الحرب الصليبية الأولى

تأليف

حسن حبشي

مدرس بدار المعلمين العالية ببغداد
دبلوم فى التربية وعلم النفس
وماجستير آداب بدرجة جيد جداً

الطبعة الأولى

الناشر

دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر

Habashi, Hasan

الحرب الصليبية الأولى

al-Harb al-salibiyah al-ula

تأليف:
حسن حبشى
مدرس بدار المعلمين العالية ببغداد
دبلوم فى التربية وعلم النفس
وماجستير فى الآداب بدرجة جيد جداً

الطبعة الأولى

الناشر
دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر

الإهداء

إلى

C. A.

تحية ود وإخلاص

ح. ح.

المـــــراجع

العربية :

١ ـــ ابن الأثير ، الكامل فى التواريخ (طبعة R. H. Or. Cr. t. I.)

٢ ـــ ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب (طبعة R. H. Or. Cr., t. III.)

٣ ـــ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (طبعة أمدروز، بيروت ١٩٠٨م).

٤ ـــ ابن ميسر : أخبار مصر ، (طبعة R. H. Or. C.)

٥ ـــ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر (طبعة R. H. Or. Cr. t. I.)
ونسخة أخرى منه فى مجلدين طبعة الأستانة .

٦ ـــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة
دار الكتب المصرية) ج ٤ ، ٥

٧ ـــ الدورى ، الدكتور عبد العزيز ؛ العصر العباسى الأول ،
بغداد ١٩٤٥ .

٨ ـــ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان، مجموعة R. H. Or. Gr. t., IV.

٩ ـــ المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك (نشره الدكتور محمد
مصطفى زيادة) ، ج ١ .

١٠ ـــ ياقوت : معجم البلدان.

الفرنجية :

1. **Albert d'Aix**; Liber Christianae expeditionis pro eriptione, emundatione, restitutione sanctae Hierosolymitanae ecclesiae, (Rec. Hist. Occ. Cr., t IV.).

2. **Baynes, N.**; The Byzantine Empire, (Home Univer. Libr.,).

3. **Brehièr, L.**; L'Eglise et L'Orient, au moyen âge(Paris 1928).
; Le schisme oriental du XI[e] siècle, Paris 1899.

4. **Chalandon** : a) Essai sur le règne d'Alexis Comnène, Paris 1900.
b) Histoire de la première croisade, Paris 1925.

5. **Delarc** : Les Normands en Italie, Paris 1884.

6. **Dussaud** : Topographie Historique de la Syrie, Paris, 1936.

7. **Fliche** : a) La Chretienté Mediévale (Paris 1936)
b) L'Europe Occidentale de 888 à 1125 Paris 1930.

8. **Foucher de Chartres** : Gesta Francorum Jerusalem expugnantium (R. Hist. Occ. Cr., t. IV.).

9. **Gibb, H. A. R.**, Damascus Chronicle of the Crusades.

10. **Grousset, R.** : Histoire des Croisades et du royaume de Franque au Jerusalem , t. I. (Paris 1934.)

11. **Guillaume de Tyre** : Historia rerum.... gestam (R. H. Occ. Cr., t. I).

12. **Hagenmeyer** ; Chronologie de la primière croisade, (R. Or. Lat., t. VI—VIII).

13. **Heyd, W.**; Histoire du Commerce de Levant au moyen âge. t. I. Paris 1885.

14. **Jorga, N.**; : Brèves Histoire de croisades. (Pairs 1924.)

15. **Lacroix** : Vie militaire et religieuse au moyen-âge.

16. **Leib** : Rome, Kier et Byzance. (Paris 1924.)

17. **Matthiew d'Edesse**, Documents Armeniens, t. I.

18. **Migne, L'Abbè** : Nouvelle Encyclopedie Théologique.

19. **Neumann** : La situation mondiale de l'empire Byzantin avant les croisades.

20. **Powicke** : Christian Life In The Middle Ages.

21. **Raimond d'Agiles** ; Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem (R. H. Occ. Cr., t. III).

22. **Riant, P.** : a) Inventaire des lettres historiques des croisades (Arch. Or. Lat., t. I.).
b) Les Scandeniviens en Serre-Sainte.

23. **Robert le Moine** : Hierosolymitana expeditio (R. H. Occ. Cr., t. III.)

24. **Rousset, P.** : Les origines et les caractères de la première croisade (Génève 1945).

25. **Schlumberger :** a) Un Empereur Byzantin au IX^{e} siècle.
b) L'Epopée Byzantine.

26. **Stevenson W. B.,:** The Crusaders in The East.

27. **Vasiliev :** Histoire de l'Empire Byzantin, (Traduction Fr.,). 2 vols.

28. **Wiet :** Précis de l'histoire d'Egypte, t. II.

فهرست

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الحوليات

مقدمة

الكتاب الذى بين يدى القارىء دراسة تاريخية لسير الحرب الصليبية الأولى وطبيعة هذه الحرب، وتحليل للعوامل المختلفة التى دعت إليها، سواء ماكان منها نابعاً من الشرق نفسه أم صادراً عن الغرب؛ بعضها ظاهر للعيان بفضل ظروف جمة عملت على إبرازه وإخفاء البعض الآخر عن قصد، على أن مهمة المؤرخ — وقد بعد به الزمن عن تلك الحروب — هى أن يفتش عما ظهر منها وعما بطن، متجرداً من جميع المؤثرات التى دفعت أصحاب المذكرات الشخصية إلى سلوك ناحية معينة يهدفون إليها من وراء تلك المذكرات، وكذلك الحال فى الحوليات، يستوى فى ذلك ما كتبه المسلمون والمسيحيون المعاصرون لتلك الحروب. والاقتصار على فريق دون آخر يبعد الحكم النهائى عليها عن جادة الحقيقة، وهى رائد البحث العلمى.

والواقع أن دارس الحروب الصليبية لن يجد تحقيق إربته تحقيقا كافيا يرضيه من وجهة البحث العلمى الخالص إذا هو اقتصر على كتابات المسلمين وحدهم أو المسيحيين وحدهم، فكتاب الفريق الأول قلما يعنون بالتفاصيل، ولم يكن ثمت أحد منهم قد ساهم فى القتال، على حين أن فى المصادر الأوربية مايمكن الباحث من درس الجوانب المختلفة إلى حدما، ومرجع الأمر أن بعضهم كان ممن تهيأت له الفرصة للخروج فى الحرب، فحاول أن يكتب لنفسه مذكرات يومية أو يدونها رسائل يبعث بها إلى ذويه فى أوربة، ومجموعة مؤرخى الحروب الصليبية بشقيها الأوربى والشرقى حافلة بما يجلى هذه الحقيقة ويزيل الشك عند من يعتوره الشك فيها.

على أنه لابد من الجمع — لاسيما للكاتب العربى — بين وجهتى النظر،

والاطلاع على ما كتبه الفريقان ، وغربلة تلك التفاصيل غربلة دقيقة لا يقف منها إزاء روح التعصب التى تبدو من الجانبين ، إذ العصر وقتذاك عصر إيمان وحرب ، — أو هكذا يبدو للعيـان — ونزاع حول أماكن ينزلها الفريقان منزلة القداسة أوما يقاربها ، وكل يدعى صحة الحجة فيما يدعى ؛ وليس يهم الباحث المتجرد للبحث الخالص أن يصادف هذه الروح من التعصب ، لأنها لاتزيد عن كونها حشائش لا يعتد بها بل تجرفها المياه الجارية فلا تقوى على مصارعة التيار ، ولا يعبأ بها الملاح ، فلا تلبث أن تذهب للعدم ، أوهى كالزبد إن لم تـكن الزبد بذاته — يذهب هباء ، أما مايبقى فهو الأحداث بصورها الزمانية والمكانية وتأثيراتها الاجتماعية والسياسية والعمرانية والاقتصادية والثقافية ، على ألا تساق هذه الأحداث سوقا جافا ، بل يربط الباحث بين ظاهرها وجوهرها ، وبين مسبباتها وخواتيمها ، وبين علتها ومعلولها . وأحب أن أقول فى هذا الموضع إن روح التعصب التى تبدو من الفريقين قد لا تكون صادقة تمام الصدق وإنما هى مجاراة لروح العصر ، وإلا فالمطالع للحوليات الفرنجية التى ترجمناها يرى كيف لا تمنع المؤلف عصبيته الدينية من الإشارة إلى سوء سيرة جماعته فى النواحى المختلفة ، بل ومعاتبتهم أحيانا معاتبة عنيفة .

ولقد رأيت كعربى أن الواجب يقتضى أن أساهم بقدر — ولو ضئيل — فى وضع هذه الوسائل الأولى بين يدى القراء والباحثين والـكتاب ، ممن يعنيهم أو يلذ لهم الوقوف على مجريات الحوادث والأمور فى كتلة البلدان العربية إبان عصر التجريدات الصليبية والهلالية ، ووسيلتى هى ترجمة مايمكننى الفراغ من ترجمته من النصوص والمذكرات والحوليـات والوثائق المتعلقة بالعصر الوسيط ، ولست أهدف من وراء هذه المحاولة إلا تغذية البحث العلمى بالعناصر الأولية الضرورية لقيامه بما يلائم النهضة العلمية العربية ، والنزعة الجامعية الخالصة .

ثم إن هناك نقصا بينا فى مكتبتنا العربية الحديثة هو عدم وجود كتب علمية — أو حتى شبه علمية — تتعلق بالحروب الصليبية عامة ؛ والكاتب العربى معذور فى إحجامه عن الخوض فى هذا الموضوع الجديد القديم ، لضآلة مابين يديه من المراجع ، ولأن معظم تلك المصادر لا يزال فى لغاته الأولى ؛ وهنا ينبغى أن ننوه بالمجهود العلمى القيم الذى قامت به فرنسا فى النصف الأخير من القرن المنصرم ، من نشر جانب كبير من تلك المصادر الأولى بلغاتها الأصلية ، بالعربية والسريانية واللاتينية واليونانية ، وأردفت بعضها بترجمات فرنسية قديمة وحديثة . وهو عمل علمى مفرد ، يحتل بين أمثاله مكانة الصدارة بالإجماع ، ثم ماقامت به فى العصر الحديث من نشر أمثالها بإشراف الباحث المدقق مسيولويس هالفن الأستاذ بكلية الآداب بجامعة بردو بفرنسا .

* * *

وهذا الكتاب دراسة تاريخية موجزة للحرب الصليبية الأولى ، ثنيته بترجمة لمذكرات شاهد عيان ، تكاد تحتل الصدارة بين جميع ما كتب فى تلك الناحية بالذات ، وأحسب أن أمثال هذه المصادر الأولى هى أول ماينبغى أن يوضع بين أيدى الباحث فى مثل ذلك الموضوع ، لما تهيأ لصاحبه من رؤية الأحداث الجارية ، ولا ينبئك ، مثل شاهد عيان .

ويرجع اهتمامى بالنظر فى الحوليات والمذكرات الشخصية إلى العهد الذى كنت إبانه طالبا بقسم التاريخ بكلية الآداب ، أدرس بعض نصوص العصور الوسطى اللاتينية ، على يد العالم الفرنسى «مسيو دبوا» ؛ فلما نلت إجازة الليسانس واشتغلت للتحضير لدرجة الماجستير ، صرفت بعض وقتى فى مطالعة عدد لا بأس به من المصادر الأولى ، المتعلقة بالنزاع الصليبي الإسلامى فى الشرق الأدنى خلال القرن الثانى عشر للميلاد ، وتهيأ لى النظر فى بعض ما كتبه

مشاهدو العيان لأحداث تلك الحقبة، التى تركت أثرا عميقا فى شتى جوانب الحياة، يلمسه دارس العصور الوسطى فى غـــير تعنت أو عسر أو إهمال، ورأيتنى أقع على صور جديدة، وإشارات دقيقة، تجلى جوانب غامضة فى سير العلاقات وتحديد النظم المختلفة فى الحياتين الإسلامية والمسيحية، فى البقعة التى كانت مسرحا مثلث عليه مأساة هذا النضال الأممى. وكان من بين ماطالعته هذه الحوليات، التى يرضينى أن أقدمها كحلقة من سلسلة خاصة فى لغتنا العربية لأول مرة للمشتغلين بتاريخ العصور الوسطى فى الشرق والغرب، وهى عبارة عن يوميات مؤرخ لاأشبهها إلا «بمذكرات صحفى عصرى»، ساير القوات الصليبية منذ خروجها من أوربة سنة ١٠٩٥ م حتى بلوغها بيت المقدس، واستخلاصها إياه من أيدى الفاطميين.

أما الوثائق التى ختمت بها بحثى عن الحرب الصليبية الأولى فهى المعروفة عند المشتغلين بتاريخ تلك الحروب باسم Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum، والتى عنى بنشرها وترجمتها كثيرون من البحاث المشتغلين فى ذلك الحقل أمثال بونجارس وهاجنمير وبرييه. أما مؤلف هذه الحوليات فمجهول عند المؤرخين، وماتسميته عند بعضهم إلا محاولات اجتهادية، يعوزها السند التاريخى. ولكن الثابت هو أنه من أهل إيطاليا، وأنه كان فى حملة بوهيمند بن روبرت جسكارد.

وبعد فأرجو أن يجد فيه المشتغلون بتاريخ العصر الوسيط عامة، والحروب الصليبية خاصة، مايمكنهم من الانتفاع به.

حسن حبشى

منيل الروضة
القاهرة فى ٢٤ سبتمبر ١٩٤٧

الفصل الأول

الصليبيون والشرق الإسلامى وبيزنطة

الحروب الدينية والحروب الصليبية . تعريفها . الحج والحجاج المسيحيون فى العصور الوسطى . حروب بيزنطة الصليبية . السلاجقة . الحرب الصليبية فكرة بابوية . الحرب الصليبية حج مسلح . إربان الثانى ومؤتمر كليرمونت . تخوف ملوك أوربة . ألكسيس كومنين واتفاقية ١٠٩٨ م . نيقية . اسكى شهر . بلدوين والرها الأرمنية . الرها إمارة لاتينية . العنصر الأوربى فى الشرق .

شهدت العصور الوسطى عامة — والقرنان الثانى عشر والثالث عشر خاصة — حركة من أخطر الحركات فى تاريخ الإنسانية ، لما تمخضت عنه من النتائج الفعالة فى ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة والحياة الاجتماعية ، وأعنى بتلك الحركة ذلك الصراعَ الطويل الذى شغل الناس فى الشرق والغرب أمداً طويلا ، وتآلف المشتغلون بالتاريخ على تسميته « بالحروب الصليبية » وترقيمها بأرقام عددية ، تبدأ أولاها سنة ١٠٩٥ م ، والهدف المعروف لتلك الحروب هو تخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وتهيئة جو مسيحى خالص للحجاج النصارى ، يؤمنهم فى أدائهم فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة التى تنطوى على ذكريات عزيزة غالية على أنفس جميع المسيحيين رغم تباين أجناسهم وأوطانهم وألسنهم .

أما قصة هذا النضال الدينى المظهر ، المسمى بالحروب الصليبية ، فينسبها الناس إلى التأثير العميق الذى استولى على نفوس السامعين للخطبة العنيفة(١) التى ألقاها البابا إربان الثانى فى مؤتمر كليرمونت بفرنسا يوم ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥ م ، على حين أن استعراض قصة الصراع بين أتباع المسيحية والإسلام فى العصور الوسطى يدل دلالة واضحة على أنها أقدم من ذلك بزمن طويل (٢) ، يرجع

---

(1) Rob. Mon., t. III, p. 727—728; cf. Fliche : La Chrètienté Medièvale, p. 312.

(2) Jorga : Brève Histoire des Croisades, p. 1—3.

إلى مستهل القرن السابع للميلاد حين ظهر الإسلام وبسط سيطرته السياسية والدينية على ما كان بيد دولة الروم الشرقية من الأقطار والولايات المطلة على البحر الأبيض المتوسط فى غربى آسيا وشمالى أفريقية ، غير أن الأخذ بهذه الفكرة يؤدى بنا إلى اعتبار جميع الحروب التى التحمت فيها السيوف بين المسلمين والمسيحيين حروباً صليبية ، ويجعل مدار البحث غير محدد زمانياً ولا مكانيا ، ومن ثم يندرج تحت هذا الاسم كل حرب اختلفت فيها ديانتا المتقاتلين منذ بدء الدعوة الإسلامية حتى عصر متأخر يدخل ضمن نطاق العصور الحديثة .

ولقد شهد الغرب حركة « شبه صليبية » فى محاربة البابوية للنرمان رغم تنصُّرهم (1)، كما شهد مثل هذه الحركة فى الحرب التى شنها الفرنسيون وملوك النصارى فى الولايات الشمالية بإسبانيا محاولين طرد المسلمين منها (2) ، كما أن البابوية عاونت — فى عهود مختلفة — على تحريض أتباعها على استئصال شأفة المسلمين من شبه جزيرة أيبريا على الإطلاق ، ونهج هذا النهج كل من البابا إسكندر الثانى والبابا جريجورى السابع (3) ، ومع ذلك فيصح عدم نعتها « بالصليبية » لأنه ينقصها جانبان لتصح التسمية ، أولهما عدم اتجاهها نحو الأماكن المقدسة بفلسطين ، وثانيهما عدم حملها الصليب . ولعل أصدق تعريف للحروب الصليبية يحدد ماهيتها هو تعريف الكونت ريان (4) الشامل من أنها « حرب دينية خالصة ، دوافعها دينية ، وترمى إلى استرداد الأماكن المقدسة عن طريق مباشر أو غير مباشر » . وعلى هذا الأساس يمكن إرجاعها إلى زمن متأخر نسبياً ، فنرى أن البيزنطيين هم أول من فكروا فى هذا

---

(1) Delarc : Les Normands en Italie. p. 202 et seq.

(2) Fliche : L'Europe Occidentale, p. 550—555.

(3) Rousset : Les origines et les caractères de la première croisade, p. 49—51.

(4) Riant : Inventaire des lettres Hist. des Croisades, t. I, p. 2.

المشروع وساروا فيه شوطاً بعيداً ، وذلك منذ أوائل النصف الثانى من القرن العاشر للميلاد على يد الإمبراطور نقفورفوكاس أولا (٩٦٣ – ٩٦٩ م) ، ثم على يد خلفه حنا الشميشق من بعده[١] (٩٦٩ – ٩٧٦ م) ؛ لكن الحروب التى قامت بها الأمبراطورية البيزنطية لم توسم بالصليبية ، على حين أن هذه التسمية أصبحت علماً على ماقام به الغرب المسيحى منذ نهاية القرن الحادى عشر ، ومنذ أن توجهت حملاته الحربية لتخليص الأماكن المقدسة وكنيسة القيامة من أيدى المسلمين ؛ ولعل انفراد حروب معينة متتالية بهذا الاسم راجع إلى ما عمد إليه جمهور السامعين لخطبة البابا إربان الثانى من وضع الصليب على أكتافهم[٢] .

كذلك لم يحمل البيزنطيين على حربهم دوافع دينية خالصة ، بل أكثرها سياسى محض ، على حين أنه ظهر فى القرن الحادى عشر عامل أدى إلى تكتل العالم المسيحى الغربى تكتلا حربيا ضد الإسلام فى الشرق ، وهذا العامل هو « الحج » إلى بيت المقدس الذى لم ينقطع طوال العصور المختلفة سواء أكان ذلك قبل ظهور المسلمين كقوة فعالة على مسرح السياسة العالميـــة أو بعد استيلائهم – زمن عمر بن الخطاب – على فلسطين ، ويكاد الإجماع بين المؤرخين ينعقد على أن زوار الأماكن المقدسة وكنيسة القيامة – من أهل الغرب والشرق على السواء – لم يكونوا يصادفون شيئاً من العنت أو الإرهاق أو الشدة من جانب المسلمين الأوائل ، على أنهم وجدوا كل هذه المتاعب مجتمعة زمن ضعف الحكام المسلمين وتفكك الخلافة ودخول جماعات جديدة فى الدين ، حملها تحمسها له على أن تسلك سبيل العنف .

ولقد لعب « الحج » أكبر دور فى توجيه الغرب النصرانى إلى الشرق الإسلامى سنة ١٠٩٥ م ، ولم يقف بعد المسافة بين الأقطار وبين بيت المقدس

(1) Baynes : The Byzantine Empire, p. 55.

(٢) Foucher, I, p.325. لكن ينبغى ألا يفهم من هذا أن وضع الصليب كان فى أثناء انعقاد جلسة مؤتمر ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥ . انظر Rob. Mon., p. 730

حائلا دون القيام بالحج ، بل كلما زادت الشقة بعداً أمام الحاج ، والطريق مشقة زادت نفسه اطمئنانا إلى غفران خطاياه ومحو آثامه ، وما قيمة التعب الذى يصادفه ؟ أليس المسيح هو القائل[1] « هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله ! » وإذن فلا محل للشكوى من أهوال الطريق ، ومايصادفه « الحاج المسيحى » من متاعب جثمانية مظهرها الجوع والظمأ وتشقق الأيدى والأقدام ، والعرى أحيانا ، والسير فى حمارة القيظ أو تحت زمهرير الشتاء ، فكل هذه المتاعب ليست إلا تمجيداً للرب وللعقيدة الدينية الخالصة ، وهذا هو إيمان المسيحى الماضى إلى فلسطين ، حيث يعد تعفير قدميه فى تراب البقعة التى شهدت مولد المسيح وتكريزه وآلامه فى سبيل الإنسانية راحة نفسية عميقة تصاحبه فى دنياه ، وزاداً يتقوت به فى أخراه ، كما يرى فى هذه الزيارة مولداً جديداً تطمئن له نفسه .

كذلك لم يقف الحج عند فترة معينة من التاريخ بل استمر متواصلا طيلة العصور المختلفة ، واشتدت حركته عقب تشييد قسطنطين كنيسة القيامة التى يدخلها الزائر اليوم فتطالعه أجيال وأجيال من الشرق والغرب حيث يشعر زائرها برهبة عجيبة ، فى ظلال الصمت المخيم على أجوائها وحجراتها المختلفة قرون من الزمان تشير إلى ما لعبته هذه الكنيسة وما بها من الأيقونات من دور خطير فى حياة العالم دهراً طويلا ، وإن تمثال العذراء بما حمل من ذهب وجواهر كريمة لتعبير مادى لإيمان روحى عميق يستوى فى الشعور به الملوك والسوقة على السواء ، والدين ليس وقفاً على طائفة من الطوائف ، نبه الجيل باسمها أو لم ينبه ، وإذا كان فى قدرة الأباطرة والملوك والأمراء ومن على شاكلتهم أن يُلبسوا تمثال العذراء هذه الحلى ، ففى قدرة الفقراء أن يقدموا تعبهم قرباناً كريما هو أصدق تعبير عن إيمانهم العميق .

ولما جاء القرن العاشر للميلاد شهدت فلسطين حجاجاً لم يقدّر لها أن تشهد مثلهم قط من قبل ، ذلك لأن الاعتقاد ساد يومذاك بأن نهاية العالم قد

---

(١) يوحنا : ١١ : ٤ .

دنت ، وأن المسيح سيظهر للمؤمنين به على رأس الألف من السنين التى غبرت ، ولم تقف رغبة هؤلاء الحجاج عند الزيارة فحسب ، بل أراد بعضهم البقاء بفلسطين حتى يوافيه الأجل ، واستولت على الناس صوفية عميقة ، حتى ليقال إن أحد الحجاج واسمه Lethbald استلقى على الصليب هاتفاً[١] « أيها السيد المسيح ، يامن تفضلت بالنزول عن عرش جلالك إلى الأرض لخلاص الجنس البشرى ، ويامن ارتفعت إلى السماء على شكل آدمى ، أتوسل إليك بعظمتك القوية أن تقبض روحى فى نفس المكان الذى شهد صعودك » .

على أن الحجاج لاقوا عنتاً كبيراً بعضه من الدولة البيزنطية[٢] ذاتها وبعضه من المسلمين ، وصادفوا مشقة عظمى زمن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، والواقع أن سياسة الحاكم من أعجب السياسات فى التاريخ على الإطلاق . على أن المحنة لم تقتصر فى زمنه على المسيحيين وحدهم بل تعدتها إلى اليهود والمسلمين أيضاً ، حتى ليذكر الذهبى أن الحاكم « أمر بقتل الكلاب فى مملكته ، وبطل الفقاع والملوخيا ، ونهى عن السمك وظفر بمن باع ذلك فقتلهم ، ومنع من بيع العنب وأباد كثيرا من الكروم ، وأمر النصارى أن تعمل فى أعناقهم الصلبان وأن يكون طول الصليب ذراعا وزنته خمسة أرطال بالمصرى ، وأمر اليهود بأن يحملوا فى أعناقهم قرامى الخشب فى زنة الصلبان أيضاً ، وأن يلبسوا العمائم السود ، ولا يكتروا من مسلم بهيمة ، وأن يدخلوا الحمام بالصلبان ، ثم أفرد لهم حمامات ، وأمر بهدم الكنيسة المعروفة بالقيامة . . . وطلب فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك ثم بدا له فقتلهما صبراً »[٣] .

وكان للحج فى العصور الوسطى تقاليده الخاصة به لا سيما فى الغرب ، إذ يتحتم على الراغب فيه أن يستأذن الأسقف ويتناول منه عصا الحج ومزوداً ،

---

(1) Migne : Nouv. Ency. Théol., p. 818.

(2) Brehièr : Le schisme oriental du XIe siècle, p. 21—22.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة مصر) ج ٤ ص ١٧٨ .

يستوى فى ذلك الغنى والفقير ، حتى أن روبرت دوق نرمنديا خرج حافى القدمين سنة ١٠٣٥ م وبصحبته كثير من « الفقراء » الذين كان يعيلهم من جيبه الخاص .

أما العصا فتكاد تبلغ طول الحاج وفى وسطها عقدة ، وقد تزاد أخرى فى أعلاها ، وكثيراً مايعقد هذا الطرف على شكل صليب ، وأما المزود فيعلق برباط ، ويزود الحاج بكتب توصية إلى جميع الأديرة التى يمر بها ، فاذا جاء يوم الرحيل خرج أهله وأحباؤه وكاهن القرية مرتلين الأناشيد الدينية ، ثم يقفل الركب راجعاً ويخب الحاج فى طريقه منفرداً بروح ملؤها الإيمان والشوق للغاية التى غادر من أجلها أهله ووطنه ، وقد تكون الشقة بعيدة ، لكن يعوض عليه ذلك وثوقه من ترحيب كل من يصادفه به .

وقد يعمد الحاج فى بعض الأحيان للتعريج على رومة فيتناول من يد البابا ذاته الصليب ، ويتلقى بركاته ، ثم يمضى إلى إحدى الموانى الإيطالية ويركب البحر إلى القسطنطينية ، وينحدر منها عبر آسيا الصغرى إلى بيت المقدس[١] .

وظل الحجاج من القرن الثالث على هذا المنوال ، ثم أخذوا منذ أواخر القرن العاشر يسلكون عبر بلاد المجر بعد اعتناق أهلها النصرانية ، وكان الحجاج إذا بلغوا حدود بيت المقدس دفعوا للمسلمين رسم الدخول عند باب يعرف « بباب الحجاج » ، وحينذاك يؤذن لهم بالتجول فى نواحيها وأداء مناسك الحج ورسومه الدينية ، ومعنى هذا أن أبواب المدينة لا تفتح على الأكثر إلا للأغنياء أو من فى حكمهم[٢] ، ويعرج الحاج بعدئذ على كنيسة القيامة والضريح ويصعد جبل الزيتون ويمضى إلى مغارة بيت لحم ، ثم يستحم بماء الأردن ، ويأخذ بعض سعف النخل ويحمله معه إلى بلده حيث يضعها على مذبح الكنيسة . وأصبح الحجاج يرسمون على ملابسهم علامة الصليب[٣] .

---

(1) Migne ; Nouv. Ency. Théol , p.806-813.

(2) Lacroix : Vie Militaire et Religieuse au moyen — âge, p. 110.

(3) Ibid., p. 400·

هذه هى تقاليد الحج فى العصور الوسطى إلى الأماكن المقدسة

* * *

لم يدخل عامل الحج فى توجيه البيزنطيين لحرب المسلمين ، على أن حركتهم لم تقتصر على فكرة استرجاع بيت المقدس وحدها ، بل طمعوا فى أخذ مكة (١) ذاتها كرد فعل لاستيلاء المسلمين على الأراضى المقدسة بفلسطين، وهناك من يذهب للقول بأن بعض أباطرتهم كان يهدف للاستيلاء على بغداد (٢) أيضا . وقد شجعهم ضعف الخلافة العباسية على التقدم فى مشروعاتهم الحربية الجريئة على حساب القوات الإسلامية المبعثرة فى بلاد الشام وشمالى العراق ، فاستطاع نقفور فوكاس طرد العرب سنة ٩٦٤م من جزيرة أقريطش (٣) كما استولى على عين زربة وسيس من أرض قيليقية ، وعينتاب ومنبج من بلاد الشام ، وقصة هذا الصراع معروفة لدى قراء تاريخ الأدب العربى حيث وقع أبو فراس الحمدانى الشاعر المجلى أسيراً فى يد الإمبراطور البيزنطى (٤) أكثر من مرة ، وتباطأ سيف الدولة — رغم إرادته — فى فك سراحه مما أثار حنق أبى فراس ، فكانت له قصائد جمة فى عتابه ، يهمنا منها فى مجلى التاريخ

---

(١) Schlumberger : Un Empereur Byzantin, p. 430.

(٢) نشر Schlumberger : op. cit. p.428 ترجمة فرنسية لقصيدة عربية مخطوطة هى عبارة عن كتاب أرسله الإمبراطور نقفور فوكاس الى الخليفة العباسى جاء فيها « واتمسا لكم يا ساكنى الصحراء ، عودوا إلى مهاجركم بصنعاء ، وإلا فسأفتح مصر بحد سيفى ... ولأننى لمرسل قواتى الى بغداد ، محتلا الطاق [يعنى إيوان كسرى] وجانب الكرخ ، وسأحرق نواحى بغداد ، وسأنشر فى كل مكان دين الصليب » ، راجع أيضا فى هذا الصدد ماجاء فى Schlumberger : L'Epopée Byzantine, p.257. ، كذلك يمكن للقارىء مراجعة صورة من الرسائل المتبادلة بين الأمبراطور نقفور وبين الرشيد ولهجتها العنيفة فى كتاب العصر العباسى الأول للدكتور عبد العزيز الدورى ، ص ١٤٦ .

(٣) كانت السفن التى خرجت لهذا الغزو تحمل أعلاما رسم عليها صور المسيح والعذراء والقديسين حورج وديمترى وتيودور ، ومن هذا نستدل على أنها كانت حربا دينية ، راجع فى ذلك Rousset : La première croisade, p. 29.

(٤) راجع أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، (طبعة الآستانة) ج ٢ ص ١١٠ ، والدائرة مادة « أبو فراس » .

تصويرها للحالة العامة القائمة إذ ذاك ، ومبلغ ضعف القوة الإسلامية عن دفع الخطر البيزنطى عما يهدد هيبتها ، ولعل فى قوله :

وقد كنت أخشى الهجر ، والشمل جامع
وفى كل يوم لقية وخطاب
فكيف وفيما بيننا ملك قيصر
وللبحر حولى زَخرة وعباب

ما يدل دلالة صريحة على بأس الإمبراطور البيزنطى وقوة الدولة المعادية التى استطاعت أن تبلغ ذروة الفتح على حساب المسلمين سنة ٩٦٩ م (٣٥٩هـ) باستردادها أنطاكية واستكثارها من العنصر المسيحى فيها ، وإلقاء مقاليد الأمور بها إلى عمال بيزنطيين . وزادت الأحوال الإسلامية فى تلك البقعة سوءاً بانتصار أحد القواد المسلمين على سيف الدولة وباستنجاده بالقوى النصرانية المجاورة ودفعه الجزية لها ، واعترافه بالتبعية السياسية لبيزنطية (١).

غير أن حركة التقدم البيزنطى الصليبى أصيبت بتوقف لفترة وجيزة من جراء الفتن الأهلية الداخليـة ، التى ختمت بالمؤامرة التى خلعت نقفور عن العرش ليحل محله القائد الحربى حنا الشميشق (٢) John Zimiskes ، وبتولى حنا الأمور تنتقل حركة الفتح إلى الجنوب ، قاصدة بيت المقدس ذاتها ، ونستدل على ذلك من رسالة الإمبراطور الصريحة إلى « أشود » (٣) الثالث ملك أرمينيا التقى ، من أن « رغبة (الشميشق) هى تخليص الضريح المقدس من أيدى المسلمين ، والصلاة فيه (٤) » وكأن سمعة حنا الحربية كانت معواناً له فى سرعة تقدمه حيث دخل نصيبين يوم ١٢ أكتوبر ٩٧٤ م ، فغادرها أهلوها خوفاً منه .

---

(1) Schlumberger: Un Emp. Byzantin, p. 728—731.

(٢) وتسميه المراجع العربية أيضاً بالدمستق ، انظر أبو الفدا المختصر ، ج ٢ ، ص ١٠٩

(3) Schlumberger : L'Epopée Byzantine, p. 254—255.

(4) Mat. d'Edesse: (Doc. Arm.) t. I, p. 13—20.

وامتد النفوذ البيزنطي عام ٩٧٥ م (= ٣٦٥ هـ) على طول البلاد الشامية ، فدفعت له حمص الجزية واستسلمت بعلبك ، وأراق الأفتكين صاحب دمشق ماء وجهه إبقاء على ولايته ، فقد ترجّل هو وأصحابه عند قربهم من « حنا » حين زيارته دمشق ، وقبّلوا الأرض بين يديه ، « ولعب أفتكين لعباً استحسنه منه ابن الشميشق ، وشاهد من فروسية الأفتكين ما أعجبه ، فتقدم اليه بالزيادة فى اللعب ، ففعل » وأثنى الملك عليـــه وقال « هذا غلام نجيب وقد أعجبنى ماشاهدته منه » فترجل الأفتكين وقبل الأرض وشكره ودعا له ، فوهب له حنا الشميشق الخراج [١] .

على أن موجة الفتح على حساب البلدان والإمارات الاسلامية لم تلبث أن توقفت منذ أواخر القرن العاشر [٢] واصطدمت بقوة الفاطميين الذين أمدّوا الإسلام بدم جديد وعنصر قوى يتـــدفق حياة ويتطلع للفتح ، وساعدتهم موارد مصر الداخلية على تنفيذ تلك الخطة ، وحاولوا أن يبرهنوا على صدق دعواهم فى عدم اعترافهم بخلافة بغداد ، وذلك بقيامهم بعمل إيجابى يكون له وقعه وصداه فى شِقّى العالم الإسلامى ، فاستردّت مصر دمشق ، وحاولت أكثر من مرة الإغارة على حلب والاستيلاء عليها لولا صلابة الحامية البيزنطية ، ومن هنا يمكن أن يقال إن موجة الفتح البيزنطى ارتدت وقنعت من المجد الحربى بالدفاع ، هذا على الرغم من أن باسيل الثانى — الذى خلف حنا الشميشق — لم يكن تنقصه الجرأة ولا الرغبـة الصادقة فى نهج السبيل الذى شقه سلفه ، فما علم فى سنة ٩٩٥ م (= ٣٨٥ هـ) باستيلاء الفاطميين على حلب حتى بادر وخلصها منهم ، ثم سلب منهم شيزر وحمص ، ولم يستطع قهر حامية طرابلس الفاطمية فاضطر للرجوع ، وقد نظلم باسيل الثانى حين نسمُ استرداده لتلك البلاد بالنصر الحاسم ، لأن ذلك النصر حمل فى طياته بذور

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، (نشره أمدروز) ص ١٣ — ١٤ .

(2) Neumann : La Situation Mondiale de l'Empire Byzantin avant les Croisades (Rol., 1903), p. 128.

الضعف الشامل ، إذ ما كاد الأمبراطور يؤوب إلى بلاده حتى وثب الفاطميون على عامله بأنطاكية وقتلوه فى أفامية ، وتبع ذلك تقلص النفوذ البيزنطى فى بلاد الشام ما عدا أنطاكية ، واضطر باسيل فى سنة ١٠٠١ م (٣٩٢ — ٣٩٣ هـ) لعقد معاهدة مع الحاكم بأمر الله ، واشتد النفوذ الفاطمى هناك ، وإن أصيب بنكسة عارضة سنة ١٠٢٣ (٤١٤ هـ) لقيام أسرة صالح ابن مرداس فى حلب (١) واستقلالها بالأمر حتى سنة ١٠٧٩ م .

على أن هناك عنصراً قوياً جديداً دخل فى الدولة العباسية وشد من قواها ، ونعنى به السلاجقة الذين وفدوا على العراق من سهول آرال ، وكان تحمسهم للإسلام وللمذهب السنى على وجه الخصوص أبرز ما يميزهم ، ووجدوا فى بلاد العراق الخصيبة ما حملهم على الاستقرار ، حتى كانت سنة ١٠٣٨ (=٤٣١هـ) حين قام زعيمهم طغرلبك فاحتل جرجان وطبرستان ثم خوارزم ، كما تمكن من هزيمة السلطان مسعود الغزنوى ، واحتل نيسابور عاصمة خراسان ، وتدرجت القوة السلجوقية فى معارج البأس حتى بلغت الذروة ، واصطنع طغرلبك سياسة الموادعة مع البيزنطيين ، فأرسل سفارة إلى القسطنطينية لعقد السلام إجابة لطلب الإمبراطور (٢) ، وسار على خطته من بعده ابن أخيه السلطان ألب أرسلان من مناصبته الأرمن العداء واستيلائه على بعض مدنهم ، كما أخذت جيوشه القدس والرملة من الفاطميين (٣) ، وعاصره الأمبراطور رومانوس ديوجين (١٠٦٧ — ١٠٧١ م) الذى حاول تقوية الجيش البيزنطى بضم عناصر مرتزقة مؤملا طرد السلاجقة من الأناضول (٤) ، ونجح فى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٢٤٨ .

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك (نشره الدكتور مصطفى زيادة) ج ١ ، ص ٣٢ ، وراجع Grousset : Hist. des Croisades, t. I, p. XXIX ، وكذلك الدائرة ، مادة « طغرلبك » .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٣٣ ، وابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨ — ٩٩ .

(٤) Vasiliev : Hist. de l' Empire Byzantin, t. I, p. 466 — 471.

إخراجهم من منطقة قيصرية بأرمينيا ، إلا أنهم هزموا قائده الأرمني فيلارتوس في ملطية وسلبوها منه ، حتى إذا كانت سنة ١٠٧١ م تقدموا إلى قونية ولم تعزّ عليهم سوى الرها (١) فمضى عنها لمحاربة حلب ، واستطاع التغلب على أميرها رشيد الدولة محمود بن مرداس (٢) .

قام رومانوس ديوجين في ربيع ١٠٧١ م (٤٦٤ هـ) بمحاولة استرداد أرمينيا ، وجمع جيشاً ضخماً قوامه المرتزقة والتركمان (٣) ، حتى إذا بلغ بهم أرضروم قسمهم قسمين ، مضى أحدهما لمهاجمة خلاط بقيادة قائد بيزنطي يعاونه « رسل دى باليول » (٤) Roussel de Bailleul النرماني ، والآخر بقيادة الإمبراطور قاصدا ملازكرت واستردها ، مما حمل ألب أرسلان على السير اليه ومنازلته يوم ١٩ أغسطس ١٠٧١ م جنوب المدينة (٥) ، وجدّ من الأمور مالم يجر قط في حسبان رومانوس ، إذ تحركت عصبية الدم عند مرتزقة التركمان ، فتركوه وانضموا إلى السلاجقة ، وكأن المقادير أرادت أن تسخر منه وأن تهون على نفسه موقف التركمان فأتته الخيانة على يد قواده ذاتهم ، وانفض عنه جميع من حوله إلا الأقلون ، بيد أنه أبلى مع هذه القلة البلاء الحسن حتى نفق من تحته جواده . وسيق أسيراً إلى ألب أرسلان الذي ما لبث أن رده ، بعد أن أخذ العهود عليه والمواثيق بترك التعرض لشيء من أعمال الإسلام وإطلاق الأسارى ، ، كما أخذ منه عشرة آلاف ألف دينار . ولكن ماجدّ بعد ذلك من القبض عليه على يد قواد ميخائيل السابع قرب « أطنة » يدخل ضمن نطاق التاريخ البيزنطي الخالص (٦) . وهكذا

(١) Grousset : op. cit. loc. cit.

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٠١ — ١٠٤

(٣) Vasiliev: op. cit. t. I, p. 468.

(٤) فيما يتعلق بالدور الذى لعبه هذا القائد الطامع ، وتمرّده بعد قليل على مولاه الشرعى ومحاولته الاستقلال راجع Neumann : op. cit. p. 167 — 168

(٥) Ency. Isl. article. "Malazgerd"

(٦) كل هذه الحوادث مذكورة بالتفصيل فى ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٩ — ١٠٥ ، وراجع أيضا Neumann : La Situation Mondiale, p. 105 — 108.

خسرت الأمبراطورية البيزنطية وقعة ملازكرت التى يعدها معظم المؤرخين نقطة الانتقال فى تاريخ الدولة والحروب بين الإسلام والمسيحية (١) . كما أدى إلى قيام الحروب الأهلية فى بيزنطية وتنازع الطامعين فى العرش . وليس من المبالغة فى القول بأن الفضل فى تمكن السلاجقة من الاستيلاء على كثير من مدن الأناضول راجع إلى الأحداث البيزنطية الداخلية .

ولما تولى « تتش » الأمر ضم جنوب سورية إليه . فاستولى على دمشق سنة ١٠٧٩ (= ٤٧١ هـ) . واستقام له الأمر فيها وأحسن السيرة فى أهلها (٢) ، ثم جد النزاع بينه وبين أخيه ملكشاه فخاف منه تتش ولم يحرك ساكنا ضد مافعله ملكشاه من إقطاعه حلب لقسيم الدولة آق سنقر جد بنى زنكى ، والرها لبزان ، وأنطاكية لياغى سيان . غير أنه بعد موت ملكشاه تحرك تتش فى يونية ١٠٩٤ (جمادى الآخرة ٤٤٨هـ) ، وقصد حلب ، فاتحدت قوات بزان وآق سنقر ، وأمدهما السلطان بركياروق بقوة من عنده بقيادة كربغا فلم تجد نفعاً إذ انعقد لواء النصر لتتش ، وإن حمل فى طياته كل دلائل الضعف فى وقت استعدت فيه أوربة لحمل السلاح لنجدة بيت المقدس ، وهبت عليها ريح من التعصب والمطامع الشخصية ، والرغبة فى بسط سلطان الكنيسة اللاتينية على الكنائس فى الشرق (٣) . إلا أن تتش مالبث أن قتل فتقاسم البلاد ابناه : رضوان (٤٨٨ — ٥٠٧ هـ = ١٠٩٥ — ١١١٣ م) ومقره حلب ، ودقاق (٤٨٨—٤٩٨هـ = ١٠٩٥ — ١١٠٤ م) ومركزه دمشق ، ودبت الشحناء بين الأخوين (٤) . ولم تخف حالة الضعف على الدولة الفاطمية فى مصر ، فأرسلت فى أغسطس (٥) ١٠٩٨م الأفضل لأخذ بيت المقدس من يد بنى أرتق إذ

---

(١) Vasiliev : op. cit. t. I, p. 499; Baynez : op. cit p. 138.

(٢) ابن القلانسى ، شرحه ، ص ١١٢

(٣) Rousset : la Première Croisade, p. 56.

(٤) توجد صوره من هذا النزاع فى ابن القلانسى ، الذيل ، ص ١٣٣ ، وراجع أيضا أبو الفداء ، المختصر ، طبعة أوربة ج ١ ص ٣ .

(٥) راجع فى تحقيق التاريخ Hagenmeyer : Chronologie de la première croisade, p. 322, note 312.

نهض الوزير الفاطمى فى شعبان سنة ٤٩١ هـ إلى بيت المقدس وفيه بنو أرتق ، فراسلهم ملتمساً منهم تسليمه القدس من غير حرب ولا سفك دماء فلم يجيبوه إلى طلبه ، وحينذاك قاتل البلد ونصب عليه المناجيق فهدمت ثلمة من سوره ، واستطاع الفاطميون امتلاكه وتسلم محراب داود[١] . وهذا مظهر جلى من مظاهر الضعف الشامل الذى ألمّ بالدولة السلجوقية ، واقترن زمنيا بظهور الإمبرطور ألكسيس كومنين .

على أن الإمبراطورية البيزنطية تعرضت لخطر جديد هو ظهور النرمان كقوة فعالة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتطلعهم للاستيلاء على بعض جزائرهم ، واحترافهم القرصنة فيه فى وقت السلم ، ثم اتخاذهم سياسة فتح جديدة وجهتها الشرق ، سواء أكان ذلك على حساب المسلمين أم البيزنطيين ، ووضحت هذه النية صريحة منذ قيام روبرت جسكارد حيث أصبح دوق أبوليا وقلهورية من أعمال إيطاليا سنة ١٠٥٩ م ، وتدخل فى الأمور الدينية[٢] ، وانتهى أمره سنة ١٠٧١ م باستيلائه على مدينة « بارى » عاصمة الأملاك البيزنطية فى جنوب إيطاليا[٣] . ثم صرح روبرت جسكارد بنواياه فى عزمه على الزحف على القسطنطينية ذاتها والتطلع لضرب الإمبراطورية الشرقية فى عقر دارها ، فكان ذلك العمل منه نواة للحملة الصليبية الرابعة ، وقد حمل موقفه هذا ألكسيس كومنين على الاستنجاد بسليمان بن قطلمش أمير سلاجقة الروم ، فأمده بجيش كامل قوامه سبعة آلاف جندى فى أتم معداتهم .

* * *

جرى الزعم على أن الدولة البيزنطية استنجدت فى أواخر القرن الحادى عشر بالغرب الكاثوليكى ضد المسلمين مما أدى إلى نهوض الحملة الصليبية الأولى

---

(١) راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ .

(2) Leib : Rome, Kiev et Byzance, p. 126.

(3) Chalandon : Essai sur le règne d'Alexis Comnéne, p. 83 — 84; Vasiliev : op. cit. t. I, p. 474 — 475; Delarc : Les Normands en Italie, p. 438 — 439,

نحو الشرق ، وهو زعم قائم على فكرة الخطاب[١] الذى أرسله الإمبراطور الكسيس كومنين إلى روبرت كونت فلاندر (١٠٧١ — ١٠٩٣ م) ، وإلى استنجاده بالبابا ضد السلاجقة ، ويتشكك الكونت ريان[٢] فى صحة هذه الرسالة فيتساءل مستنكراً « أمن المعقول أن يطلب ألكسيس النجدة من الغرب ، وأن يطلبها بالذات من كونت فلاندر ؟ » ، ويذهب فى تحليل فكرة الرسالة إلى أبعد من هذا فيرى أن الإمبراطور لم يقصد بحال ما من الأحوال الاستغاثة بالغرب ضد الأتراك ، ذلك أن لفظ « الوثنيين » الوارد فى رسالته إلى روبرت لم يعن به السلاجقة أبداً ، بدليل أن « حنة كومنين » ابنة الامبراطور لم تسمهم قط بهذا الاسم[٣]، ثم هناك من يشك فى تاريخ هذه الرسالة فيجعلها بعض المؤرخين سنة ١٠٨٨ (= ٤٨١هـ) ، ويؤجلها البعض الآخر إلى سنة[٤] ١٠٩١ (= ٤٨٤ هـ) والمدة بين آخر التاريخين وبين دعوة البابا إربان الثانى للحرب الصليبية ليست بالقصيرة . وقد ناقش شالاندون[٥] فكرة استنجاد الإمبراطور بالبابا ، ودحضها دحضاً تاريخياً ، وهو يبنى رأيه على أن الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت بالذات لم تكن فى حاجة « إلى مساعدة الغرب لها ، وأن تلك الفترة كانت أهدأ فترة فى تاريخها منذ أن تولى الحكم بها ألكسيس كومنين » وأن الغرب اللاتينى هو أول من يدعو لمثل تلك الحروب ، لما يلاقيه حجاجه من العنت . على أن هناك مؤرخاً روسياً[٦]

(١) ترجمة هذا الخطاب اللاتينية واردة فى Albert d' Aix, t IV, p. 131 — 132 ، وقصته إن صحت — هى أن كونت فلاندر كان قد حج فى سنة ١٠٨٧ إلى الأراضى المقدسة ، ومرّ فى عودته بالدولة البيزنطية حيث التقى بالإمبراطور ألكسيس كومنين ، ووعده الكونت بمدّه بخمسمائة فارس من أوربة ، ولم يكن اصطناع الامبراطورية البيزنطية للجند المرتزقة بالأمر الجديد فيها ، أنظر Vasiliev : L' Empire Byzantin, t. I, p. 468

(2) Riant: Inventaire, p. 74 — 75 et 82.

(3) Riant : Inventaire, p 84, note 24.

(4) Vasiliev : Op. Cit. t. II, p. 15 — 18.

(5) Chalandon : Essai sur le règne d' Alexis Comnène, p. 155 — 158.

(6) Vasiliev :L' Empire Byzantin, t. II, p. 19.

محدثا يقف موقف الوسط ، فيرى أن الإمبراطور أرسل فى طلب قوة من من الغرب ، وأنه كان يتأهب سنة ١٠٩٥م لمحاربة السلاجقة فى الوقت الذى علم فيه بنهوض الحملة إلى الشرق . والوقع أن اختلاف الرأى بين المؤرخين حول هذا الموضوع مما يلفت النظر ، فالقائلون بصحة الاستغاثة ضد السلاجقة يهدفون من وراء ذلك إلى بيان ما انطوت عليه الإمبراطورية البيزنطية من الضعف الشديد إبان هذه الحقبة بالذات ، وهو قول يدحضه الواقع التاريخى حتى إننا نلاحظ أن كل حرب لم تساهم فيها القوات البيزنطية كانت فاشلة أو شبه فاشلة ، ويهدفون من وراء ذلك أيضا إلى الاعتراف الضمنى بسلطة الغرب وقوته.

أجل ! لقد كانت هناك علاقات بين بيزنطة وروما اتّسمت بالود والمصافاة لاسيما إبان النصف الثانى من القرن الحادى عشر للميلاد ، وحاولت البابوية استغلال هذه الصداقة لصالحها الخاص ، وذلك بإظهارها نفسها حامية المسيحية فى العالم بشطريه ، وأنها تهدف لرعاية النصارى مهما تباينت مذاهبهم، فقد كتب البابا جريجورى السابع رسالة إلى هنرى الرابع ملك فرنسا ينبئه فيها باعتزامه تجهيز حملة تنهض للشرق رحمة بنصاراه وتخليصا لهم مما يكابدونه من ضروب العسف ، وأنه معتزم قيادة هذه الحملة(١) شخصيا حتى تدرك كنيسة القيامة . ومع ما قد يُبنى على هذا من الحكم بالموادعة الكريمة بين بيزنطة وبين الغرب ، إلا أن اعتزام البابا المضى إلى بيت المقدس يفصح عن أطماعه الخاصة فى بسط سلطان كنيسة رومة على الكنائس الأرثوذكسية فى بلاد الشام على الأقل. ومهما يكن الأمر فقد كان ذلك كله تمهيداً لحملة ١٠٩٥م الغربية البابوية .

والواقع أن الحملة الصليبية الأولى — على وجه التخصيص — ليست سوى حجّ مسلح إلى الأراضى المقدسة ، شجعت عليه البابوية مستغلة الشعور الدينى ، ومصورة المحنة القاسية التى تمر بها الكنائس فى الشرق ، وما

(1) Leib : Rome, Kiev et Byzance, p. 15.

ترسف فيـه بيت المقدس من الذل وما يؤدى إليـه ذلك من أهوال جمة يعانيها حجاجه[١] .

« عَبّدُوا طريق الرب ، واصنعوا سبله مستقيمة » .

لا سبيل إلى ذلك التعبيد إلا بنهوض المسيحيين من مختلف أقطار أوربة الغربية بعائلاتهم وأولادهم والاستقرار فى فلسطين حتى يحل العنصر المسيحى محل العنصر الإسلامى ، وحتى لا يجد الحجاج أنفسهم فيما بعد غريبين عن وطنهم الروحى . . . تلك هى فكرة البابوية التى حاولت أن تبثها فى الأذهان ونجحت فيها إلى حد بعيد، يدل عليه اشتراك كثير من شعوب الغرب فى الحملة ، وخروج كثير من القادة والفرسان والمخاطرين إلى الشرق على رأس هذه الكتائب الكثيفة .

ولقد احتضنت البابوية فكرة الحج المسلح ، فأناب البابا عنه أسقف بوى : أديماردى مونتل Adémar de Monteil . وفجع كونت تولوز فيما عقده من الأمل فى أن يكل البابا اليه القيادة الحربية ، فلم يغن عنه ماله وحسبه وسلطانه ومعاونته الكنيسة مراراً ، ولم يحمله ذلك الرفض من جانب البابا إربان الثانى على التراجع بل نهض لما أزمعه بنفس راضية وعزيمة قوية[٢] ، ولعل ذلك راجع إلى أن القواد الصليبيين المختلفين كانوا يعلمون علم اليقين بأن الحملة مشروع بابوى محض ، وليس أدل على اعتناق الجميع هذه الفكرة من أنهم حين مات أديمار — كتبوا إلى البابا يسألونه المجىء لقيادة الحملة[٣] ، كما أنهم بعثوا إليه رسالة ينبئونه فيها بخبر منازلتهم حامية عسقلان المصرية[٤] .

على أن فى إمكاننا القول بأن الحملة الصليبية الأولى كانت الامتداد الطبيعى لحركة الاسترداد الاسبانى فى الغرب المعروفة بالـ Requista ، وغرضها

---

(1) Cf. Fliche : L'Europe Occidentale, p. 546; Foucher, t. IV. p. 323.

(2) Raim. d'Ag., t. III, p. 235 — 236.

(3) Leib : Op. Cit. p. 221; Hagenmeyer : Chronologie, No. 314.

(4) Hagenmeyer: Chronologie, No. 429.

إضعاف القوات الإسلامية فى شمال إفريقية ، وطردها من إسبانيا . وكل هذه الأحداث ليست سوى تمهيد لاسترداد بيت المقدس .

* * *

كان البابا إربان الثانى يتحين الفرصة الملائمة لإثارة الغرب ، وقد نظلمه إذا قلنا أن الدين كان هو كل شيء فى الحركة ، بل الواقع أن البابوية — كقوة فى أوربة [١] — كانت تخشى أكبر الخشية من زيادة بأس النرمان [٢] ، ولعلها وجدت الفرصة مواتية للتخلص منهم بتوجيه نشاطهم الحربى لخدمة الدين والكنيسة فى الشرق وإبعادهم عن مسرح السياسة الأوربية [٣] ، ومهما يكن الأمر فالظاهر الثابت هو عقد مؤتمر كليرمونت ، حيث خطب إربان خطبته المعروفة ، مما ظهر أثرها فى صيحة السامعين جميعا « هكذا أراد الله [٤] ، Deus vult » ، وجاء إليه «إديمار دى مونتل» وركع عند قدميه وكان أول من حمل الصليب ، فجعله البابا قائد الحملة الروحى ، وكان لأديمار من التأثير على المساهمين فى الحرب قصد تخليص بيت المقدس ماتفصح عنه كتابات المؤرخين ممن شاهدوا الحملة ، يستوى فى هذا التأثر الأشراف والدهماء على السواء .

وقد تخوف البعض من دعوة البابا إربان الثانى لعقد مؤتمر كليرمونت الذى حدد له يوم ١٨ نوفمبر ١٠٩٥ ، فحال ملك انجلترا بين رجال كنيسته وبين المساهمة فى المؤتمر ، وحضرت قلة من أكليروس ألمانيا [٥] . أما ملك فرنسا فجهد فى حث جميع طبقات شعبه على المساهمة فيه [٦] ، ورغم ماهو معروف عند الناس من أن مؤتمر كليرمونت عقد لبحث المسألة الصليبية إلا

---

(1) Powike : Christian Life in the Middle Ages, p. 22.

(2) Rousset : La première croisade, p. 47—48., Delarc : Les Normands en Italie, p. 202—237.

(3) Delarc : op. cit., p. 143—144, 192—194, 312.

(4) Rob. Mon., p. 729.

(5) Rob. Mon., loc. cit.

(٤) Chalandon : Histiore de la première criosade, p. 25 et note 2 ناقش المؤرخ عدد الأساقفة والمطارنة الذين اشتركوا فى المؤتمر ، معتمدا على المصادر الأولى فى هذا الموضوع ، فبين اختلافها حول عددهم ، وهم ما بين ١٩٠ ، ٤٦٣ ، والفرق شاسع .

أن دراسته تبين لنا أن البابا انصرف فى جلساته الأولى التى استغرقت مدة أسبوع لمناقشة المسائل الدينية التى تهم الكنائس ورجال الدين عامة ، ولم يتخذ المؤتمرون قرارا بشأن إنفاذ الحملة الصليبية للأراضى المقدسة إلا فى جلسة قصيرة بعد أسبوع [١] ، وذلك فى خطبة له واردة على شىء من الاختلاف باختلاف المصادر التى ذكرتها [٢] .

لم يقتصر البابا على مؤتمر كليرمونت بل تعدّدت المؤتمرات التى خطب فيها من أجل حمل القوم على الانخراط فى الجيش الماضى إلى فلسطين [٣] ، وراح يذرع أرجاء فرنسا عاقدا المجامع [٤] مكرزا للدعوة التى استولت على نفسه ، وطبيعى أن تجد هذه الدعوة آذانا صاغية وقلوبا واعية لاسيما عند طبقات الشعب الدنيا وهم غالبية السكان ، هذا إلى أن بعضهم كان يطمع فى أن يتحرر من ملازمته أرض السيد حسب النظام الاقطاعى المألوف وقتئذ ، كذلك قوبلت الدعوة بالتأييد من جانب « الجنويَّة » البحريين الذين وعدوا بالمساهمة ببعض السفن لنقل الحجاج والذخيرة والأقوات ، ودخل أهل «بيزا» إلى جانبهم لقاء بعض الامتيازات التى قدروها وحققها لهم النصر الصليبى فى بلاد الشام وفلسطين كما نرى هذا الأمر جليا فى اشتراك الأسطولين جنبا إلى جنب فى حصار أرسوف وعكا فيما بعد [٥] . وإذا كان العامل المادى قد أغرى الجمهوريات الإيطالية التجارية على المساهمة فى حملة الحجاج المسلحين للشرق فقد وجدت إلى جانب هذا العامل روح من التصوف الدينى ترجمت عن نفسها فى شخصية بطرس الناسك الذى اختلطت الحقيقة بالخرافة فى تاريخه ، والذى كان تأثيره الشديد على سامعيه — لاسيما من الطبقات الدنيا والجاهلة — أكبر معوان على تحقيق الفكرة العامة التى اختمرت ولم يبق إلا

---

(1) Rob. Mon., loc. cit.

(٢) أنبه القارىء هنا الى أننى أوثر الاعتماد على روايتين لهما الصدارة فى هذا الموضوع هما : Rob. Mon., t.III, p. 727 ; Foucher, p. t IV, 323.

(3) Riant : Inventaire, p. 109—110, lettre No. XLIV.

(4) Riant : Inventaire, p. 116.

(5) Heyd : Hist. du Commerce, t. I. p. 139 note 3, et p. 146.

تنفيذها[١]. فقد خرج فى أبريل ١٠٩٦ ومعه خمسة عشر ألف صليبى ، حتى إذا بلغ مدينة كولونيا شجب نزاع بينه وبين جوتييه سانز أڤوار Gautier Sans-avoir، وذلك لما رآه جوتييه من وجوب متابعة السير إلى القسطنطينية ، مما أدى إلى انفصاله بمن معه عن بقية الجيش الصليبى ، حتى إذا بلغ بلغراد حامت شبهات المسئولين هناك حوله وحول رجاله فكفوا أيديهم عن تموين أصحابه مما حملهم على السلب والنهب ، وتعقدت الأمور تعقدا اضطر جوتييه معه للمبادرة إلى الرحيل شطر القسطنطينية حيث تلقى أمر الإمبراطور يوم ٢٠ يوليو ١٠٩٦ م بالتريث وانتظار جماعة بطرس ، ثم التقى الإثنان عند العاصمة واتفقا على العمل معا وتوحيد جهودهما للغرض المشترك .

طمع ألكسيس كومنين أن يستغل القوات الصليبية لصالحه ، ورأى منذ اللحظة الأولى أن تشرع هذه السيوف المصلتة لرد ما فقدته الإمبراطورية البيزنطية من قبل ، ومن ثم بعث إلى بطرس وتلقاه لقاء كريما ووعده بمساعدته فى سبيل الغاية التى جاء من أجلها من أوربة[٢] ، فقطع بطرس العهد على نفسه أن يسير جنده سيرة تليق بهم كفرسان مسيحيين فى أرض مسيحية ، إلا أن رجاله لم يحترموا هذا العهد وعاثوا فى الأرض فساداً ، فطلب إليه الإمبراطور أن ينتقل بجماعته إلى آسيا الصغرى ، وبعث إليهم بمراكب نقلتهم يوم ٧ أغسطس ١٠٩٥ ، ولم تكن هذه الجماعة بالفئة المنظمة ، بل همها التنعم بكل ما تتطلع إليه فارتكب رجالها من الأهوال والمباذل فى إزنيق مالا يتفق قط والتعاليم المسيحية ، وقاتلوا إخوانهم فى الدين وانتصروا على أهل[٣] Xerigordon.

كذلك قدم جودفروى دى بويون Gaudefroi de Bouillon وأخوه

---

(1) Brehièr : L'Eglise et l'Orient, p. 69.

(2) Leib : Rome, Kiev et Byzance, p. 193—194.

(٣) فيما يتعلق باختلاف تحديد موقعها راجع : Chalandon : Histoire de la première croisade, p. 82, note 2.

بلدوين[١]، وكان ألكسيس مهتما غاية الاهتمام بأن يأخذ من جودفروى يمين الولاء له، وأن يقسم له برد ما يتم على يده من فتح بلاد كانت تابعة من قبل للإمبراطورية ثم سلبها منها المسلمون فى العصور المختلفة، وبعث إليه برسولين[٢] من قبله طلبا منه أن يأمر جنده بكف أيديهم عن أعمال التخريب والسلب، ويدعوه أن يعسكر هو وجيشه أمام القسطنطينية، فعسكر جودفروى يوم ٢٣ ديسمبر ١٠٩٦، غير أن بقية ما طلبه ألكسيس أثار مشكلة أمام الفارس الصليبي، إذ كيف يقطع يمين الولاء لإمبراطور شرقى؟ ألا يترتب على ذلك تبعيته الإقطاعية له؟ ثم إنه كاثوليكى المذهب، والأمبراطور أرثوذكسى؟ لقد رأى فى هذه اليمين خيانة منه لهنرى الرابع وللبابا إربان الثانى، لذلك عمد لتأجيل البت فى كل تلك المسائل حتى تفد بقية الجيوش، وحينذاك لا يستطيع الإمبراطور أن يفرض عليه هذا الطلب الجائر، ولم يخف مقصده بطبيعة الحال على ألكسيس كومنين، فكف يده عن تموينهم، لكنه ما لبث أن نسخ ما قرر حين أبصر بلدوين يعيث نهبا فى نواحى المدينة، مما أثار الفوضى وفزّع أهل تلك النواحى الآمنين[٣]، فسمح لهم بالعسكرة فى بيرا المطلة على القرن الذهبى.

بقى جودفروى حيث هو حتى شهر مارس ١٠٩٧ دون أن يلتقى بالإمبراطور، وتوترت العلاقات بينهما لا سيما حين سمع ألكسيس بقرب مقدم بوهيمند النرمندى أمير تارنت وابن عدوه روبرت جسكارد، لذلك فكر فى اتخاذ خطة حاسمة منذ البداية، وهى المبادرة إلى محاصرة الجيش اللوثارنجى، فضيق الخناق عليه، واضطر جودفروى فى النهاية للنزول على رأى خصمه[٤] وقطع يوم ٨ أبريل ١٠٩٧ يمين الخضوع له أمام رهط غفير من كبار رجالات الدولة، وتبعه من معه من كبار الصليبيين[٥].

---

(1) Leib : op. cit. p. 196—197, 215—217.
(2) Grousset : Histoire des Croisades, t. I, p. 16.
(3) Alb. d'Aix, p. 300.
(4) Alb. d'Aix, p. 307—308.
(5) Ibid., p. 310.

أما أخوه بلدوين فلم يحضر هذا الحفل لتوليه الجيش مكانه ، وكان معنى هذا القسَم أن الحملة — أو قسما من الحملة على الأقل — خرج من بلاده باذلا روحه فى سبيل استرداد الإمبراطورية البيزنطية ما سلبه السلاجقة منها ، وكأن الغرب الكاثوليكى لم يعُد أن يكون كف قط لتحقيق مطامع بيزنطة السياسية وأحلامها.

صح ما توقعه جودفروى من مجىء الجماعات الصليبية ، فوفدت حملة ريموند الصنجيلى كونت تولوز بعد قليل من مقدم النرمان برياسة بوهيمند الذى أخلف موقفه ظن الصليبيين فيما كان معقوداً عليه من الآمال فى إرهاب الامبراطورية وحملها على اتخاذ سياسة الموادعة نحوهم وتزويدهم بالذخائر والإمدادات ، بعد أن لقوا فى سفرهم هذا نصباً ، وكانت الإمبراطورية من جانبها هى الأخرى تخشى كل الخشية من مقدم النرمان لأنها تدرك الدوافع التى تحركهم للمجىء إلى الشرق وهى دوافع أبعد ما تكون عن الدين أو التحمس لتخليص بيت المقدس ، لأن سياسة النرمان التقليدية تنزع نحو مناضلة الإمبراطورية البيزنطية ، وسلب ما فى يدها من الأملاك فى الغرب ثم التحرك نحو القسطنطينية ذاتها .

على أن بوهيمند كان يطمع فى تأسيس إمارة شرقية نرمانية ، ورأى الحكمة فى اصطناع اللين والمودة مع الإمبراطورية البيزنطية ، فنبذ جانبا ما توقعه الجميع منه ، فلم نعد نرى من جانبه شيئا من العداء لبيزنطة أو إقامة العراقيل والمشكلات أمامها فى تلك الفترة ، وسبيله التودد إلى البلاط ، وهل أدل على إيثاره المودة والعافية من مقدمه على الإمبراطور يوم ١٥ أبريل ١٠٩٧ ، حيث أقسم له يمين الولاء والخضوع دون أن يبدى أية معارضة ، فخلع عليه ألكسيس الخلع الثمينة ووصله بالهدايا الغالية . ولم يكن ما حدث متوقعا من بوهيمند(١) ، لذلك خشى تانكريدو ريتشارد أمير سالرنو أن يحملهما بوهيمند على الاقتداء به فيما فعل ، فرحلا سراً وعسكرا عند خليج نيقوميديا إلى جانب جيش جودفروى(٢) . وقد دلت هذه السياسة على أنه يطمع فى تكوين

(1) Grousset : Hist. des Croisades, t. I, p. 79.
(2) Chalandon : Hist. de la première croisade, p. 137.

إمارة فى الشرق خاضعة للإمبراطورية البيزنطية ، ولا شك أنه كان يهدف إلى أنطاكية ذاتها ، مما سيفسره مجرى الحوادث بعد قليل .

كذلك وصل ريموند الصنجيلى كونت تولوز بحملته إلى القسطنطينية فى النصف الثانى من أبريل ١٠٩٧ ، وأنكر على الإمبراطور أن يطلب منه أن يقسم له اليمين المطلوبة ، ولكنه كان حنيكا حين أوقف هذا الشرط على أن يخرج الإمبراطور بنفسه على رأس الجيش الصليبى وأن يقوده إلى الغاية التى من أجلها خلف وراءه وطنه وبنيه(١) . إلا أن ألكسيس حاول تبرير تقاعده مؤقتاً عن قيادة الصليبيين باضطراب الأمور فى الأملاك البيزنطية اضطراباً يحمله قسراً على البقاء حيث هو(٢) . وأراد ريموند الثأر لجيشه مما لحقه فى أوربة على يد عمال الدولة البيزنطية ، بَيْد أن جودفروى منعه من الاستسلام لغضبه ما دام هدفه نصر الصليب ، مبيناً له مقدار الخطر الذى تتعرض له القوات الصليبية من التفكك والانصراف عن متابعة الزحف إلى فلسطين ، لاسيما والسلاجقة قريبون منهم فى أزنيق(٣) ، فرضخ ريموند على كره منه ، خصوصاً وأنه كان يدرك تحت أى الظروف اضطر جودفروى لقطع تلك اليمين واضطراره عليها .

ثم لم تلبث قوة صليبية أخرى أن غادرت فرنسا قاصدة القسطنطينية بقيادة الكونت روبرت كورتهوز بن وليم الفاتح وأخو هنرى الأول ملك انجلترا ، وضمت هذه القوة كثيراً من قواد النرمان وأشرافهم أمثال إتين كونت بلوا ، وأيود أسقف بايو ، وفيليب بن مونتجمرى ، وصحبها المؤرخ فوشيه الذى ترك لنا صورة مشرقة الجوانب والألوان عن حسن استقبال البيزنطيين للصليبيين ، ودعوتهم إياهم للصلاة فى كنائسهم ، كما أعجبه رخاء الدولة وغناها وتعدد مصادر الإنتاج فيها ، وبادر الزعماء لقطع اليمين

---

(1) "Et tamen fore, si imperator cum exercitu iret Iherosolimam, quod se et suos et sua omnia illi committerat." Raim. d'Agiles, p. 238.

(2) Raim. d'Agiles., p. 238.

(3) Raim. d'Agiles, p. 238.

للإمبراطور وإن لم يمنعه ذلك من التخوف منهم ، فلم يأذن لهم بالمسير جميعا مرة واحدة ، بل أمر أن يكون دخولهم المدينة فى شراذم ضئيلة ، لا تعدو الواحدة منها ستة حجاج ، بين كل جماعة وأخرى فترة من الوقت ترقى إلى الساعة حتى لا يكون تجمعهم مغرياً إياهم على اصطناع العنف مع الأهلين[١] .

من كل ما سبق يتضح لنا بجلاء أن القوات الصليبية المختلفة التى وفدت إلى الشرق فى الحملة الأولى استجابة لدعوة البابا إربان الثانى اعترفت صراحة أو ضمنا بولائها للإمبراطور ، وتبعيتها له ، وتلى ذلك يمينها بإرجاع كل ما كان فى يدها من أرض استولى عليها السلاجقة ، الأمر الذى لم يخف على الكتاب المسلمين أيضا[٢] .

على أن المودة التى توشجت ظاهريا فى البداية — وإلى فترة غير قصيرة نسبيا — بين ألكسيس وبوهيمند ، قد حملت كثيراً من الزعماء على الاقتداء بابن جسكارد والنسج على منواله فى اصطناع سياسة الولاء والطاعة والتبعية نحو الإمبراطور الذى عقد مع بوهيمند فى مايو ١٠٩٧ م إتفاقية تعهد فيها الصليبيون بطرد السلاجقة من نيقية ومن أنطاكية أيضا[٣] ، ويقول ابن القلانسى إن « الأفرنج عند ظهورهم عاهدوا ملك الروم ووعدوه بأن يسلموا إليه أول بلد يفتحونه ، ففتحوا نيقية وهى أول مكان فتحوه[٤] » ، وكذلك استطاع ألكسيس عقد اتفاقيات مشابهة لهذه فى روحها مع كثير من زعماء الصليبيين بفضل تأثير بوهيمند عليهم ، واتفق الإمبراطور معهم على أن يخرج هو على رأس إحدى الحملات ، كما تعهد بحماية الحجاج أثناء مرورهم ببلاده فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة[٥] . وحين تم هذا الاتفاق العجيب بين الإمبراطورية من جانب وبين بوهيمند والقادة الأوربيين من جانب آخر ، خرجت القوات الصليبية بقيادة تنكريد وجودفروى دى بويون ، كما أنفذ معها الإمبراطور كتيبة بيزنطية

---

(1) Chalandon : Histoire de la première Croisade, p. 157.

(٢) ابن القلانسى ، الذيل ، ص ١٣٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ١ ص ١٩١ .

(٤) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ .

(5) Chalandon : Essai sur le régne d' Alexis Comnène, p. 188 ; Hist. de la première croisade, p. 161.

بكامل معداتها بقيادة تاتيكيوس Tatikios ، وقصد المحاربون أزميد حيث بقوا بها ثلاثة أيام انضم إليهم بعدها بطرس الناسك بمن نجى معه من كوارث الطريق . أما بوهيمند فقد بقى فى القسطنطينية إلى جانب ألكسيس كومنين يدبر معه مسألة التموين البرى والبحرى للقوات الصليبية ، فإن دل هذا على شىء فإنما يدل على الصلات الوثيقة بين العاهل البيزنطى والقائد النرمندى ، وإن كان كلاهما مماذقاً لصاحبه ، ثم إنه يشير من طرف خفى إلى زعامة بوهيمند غير المباشرة على القوات والقواد معا .

أما بقية الصليبيين فقد رحلوا ومعهم جودفروى الذى أرسل ثلة من عسكره شقت مخرجا وسط الجبال المطلة على الطريق من نيقوميديا إلى نيقية التى بلغوها يوم ٦ مايو ١٠٩٧ م ، وحاصروها من جميع النواحى ماعدا المنطقة الجنوبية حيث توجد بحيرة هرسك ، التى كانت المنفذ الوحيد لقوات السلطان قلج أرسلان ، إلا أن هذه النجدات اصطدمت بقوات ريموند الصنجيلى وأديمار التى وقفت عند المسالك المختلفة ، وقصّر قلج أرسلان فى مساعدة عساكره مما حملهم على الاستسلام(١) للقوات البيزنطية التى أنفذها ألكسيس كومنين ، وقد اصطنع الصليبيون منتهى القسوة ازاء جميع من وقع فى أيديهم من أسرى عدوهم ، فعمدوا إلى قطع رؤسهم وإلقائها وسط المعسكرات الإسلامية ، وطال انتظار السلاجقة للقوات التى أملوا أن تصلهم فلما يئسوا أدركوا أن لابد لهم من التسليم أن أجلا أو عاجلا(٢) . والواقع أن استسلام القوات السلجوقية للبيزنطيين يكشف عن حقيقة نظرة الإمبراطورية لحلفائها المفروضين عليها ، وهذا الاستسلام نتيجة اتصال سرى بين الترك وبين مانويل بوتوميتس القائد البيزنطى ، إذ شككهم فى كل أمان يقطعه لهم

---

(١) Math. d'Edesse, (Documents Armeniens) ,p. 28. وذلك كما يقرر لانشغاله بمحاربة ملطية التى كان يتولى أمرها فى ذلك الوقت بالذات الأمير خوريل الأرمنى ، على حين أن هناك من يدحض هذه الفكرة نظرا لبعد ملطية عن مجلى الصراع ، راجع Daulaurier : Doc. Arm. t. I, p. 28, note 1.

(2) Alb. d'Aix, p. 314—315.

الصليبيون الذين كانوا يجهلون مايدور فى الخفـاء ، فلا عجب إذا اشتدت دهشتهم حين بوغتوا بالأعلام البيزنطية تخفق على أسوار نيقيـة يوم ٢٦ يونيو [١] ١٠٩٧ م ، على أن الإمبراطور استعد للأمر من قبل ، وأدرك أن معظم هؤلاء المحاربين من « فقراء المسيح Pauper Ghristi » ، فدأب على إرسال الهدايا إليهم والعناية بهم ؛ مما حملهم على الاطمئنان إلى جانبه والانخداع به ، حتى لقد أقسموا ألا يغادروا نيقية أو يستردوها ويردوها لألكسيس [٢] فهل كانوا فى عملهم هذا أكثر من جند مرتزقة يبذلون دماءهم وأراحهم فى سبيل استرجاع الإمبراطورية ما كان لها من قبل [٣] ؟ لقد استطاع الإمبراطور البيزنطى بسياسته العجيبة أن يصيب من التوفيقات مالم يكن يدور قط بخلد أحد ما ، ولعله لم يدر بخلده هو الآخر أيضا ، فقد تهيأ له من النصر القريب ما يتمثل فى قطع الأمراء الصليبيين يمين الولاء له ، زد على ذلك تغلبه بدهائه على بوهيمند النرمانى — عدو الدولة التقليدى — ، ثم ختم ذلك — فى بداية المرحلة — باستمالته « شعب الفرنجة » — على حد قول المؤرخين الصليبيين — إلى جانبه ، واستمالتهم فى الدفاع عن مصالحه الخاصة . ولم يفت ذلك الأمر جماعة من المقاتلين ، فنرى مؤرخنـا المجهول قل أن يذكر اسمه إلا مقرونا بنعوت تفصح عن مبلغ إدراكه لحقيقة الواقع .

تولى بوتوميتس القلعة ، وحينذاك عاد بعض القواد إلى الإمبراطور للاتفاق معه على تحديد وجهة الحملة ، فتم الرأى على قصد أنطاكية ، كما اتفق على مساهمة الإمبراطور ذاته فى الحملة ، بيد أنه أناب مرة أخرى قائده تاتيكيوس وبذلك تخلى عن الميدان .

غير أن الصليبيين انقسموا فى الطريق شطرين ، أحدهما بقيادة أديمار وريموند وجودفروى ، والآخر ضم نرمان إيطاليا وفرنسا بقيـادة بوهيمند وتنكريد وروبرت بن وليم الفاتح ، والظاهر أن ذلك الانقسام كان رغبة

(1) Guillaume de Tyre, (R. Hist. Occ. Cr.), t. I., p. 125—128. Stevenson : Crusaders in the East, p. 12

(2) Ram. d'Ag., p. 240.

(3) Chalandon : Essai sur le règne d' Alexis Comnène, p. 191—192.

منهم فى تيسير تموين قواتهم . ولما سمع قلج أرسلان بزحف الجيوش الصليبية وتقدمها نحو « إسكى شهر » خرج على رأس قوات كبيرة ضمت أشتاتاً مختلفة من السلاجقة والعرب والتركمان [١] وكان أقرب إلى الصليبيين داراً فوافاه من التركمان مع عسكر أخيه العدد الكثير ، وقويت بذاك نفسه واشتدت شوكته ، فزحف إلى معابرهم ومسالكهم وسبلهم ، فأوقع بكل من ظفر به منهم بحيث قتل خلقاً كثيراً » ، واصطدم الجيش الإسلامى يوم ٤ يوليو [٢] ١٠٩٧ بقوات بوهيمند منفردة ، وأوشك الجيش الصليبي على الهزيمة لولا أن أنجدته قوات جودفروى حين وصلها الخبر [٣] ، ثم تلتها قوات إديمار ، وأدى مقدم هذه القوات إلى تغيير دفة القتال ، وتنفس بوهيمند الصعداء ، ورتب الصليبيون أنفسهم على شكل مروحة فى ميمنتها ريموند وأديمار وجودفروى وكونت فلاندر ودوق فرماندوا ، وفى ميسرتها قوات تنكريد وروبرت ابن وليم الفاتح ، فلما رآهم المسلمون تفرقوا ، وتواصلت الأخبار — كما يقول ابن القلانسى [٤] — بهذه « النوبة المستبشعة فى حق الإسلام فعظم القلق ، وزاد الخوف والفرق ، واشترى ملك الروم من السبى خلقاً كثيراً وحملهم إلى القسطنطينية » .

استراح الصليبيون مدة يومين ثم مضوا يتوغلون فى مناطق انعدم فيها الماء ، فهلك عدد غير ضئيل من جيادهم ، ولقوا من الأهوال ما انطبعت صورتها فى أذهانهم ، وخرجوا بعدئذ إلى ناحية قونية فى منتصف أغسطس ١٠٩٧ م ، فوجدوها خالية ليس فيها من يدافع عنها [٥] ، وغادرها أهلوها

---

(١) فيما يتعلق بالمدلول التاريخى لهذه الكلمات راجع Gibb : Damascus Chronicle of the Crusades, p. 41, note 2 .

(٢) تحديد التاريخ الميلادى وارد فى Gibb : Op. Cit. p. 42 أما ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ ، فيورده يوم ٢٠ رجب ٤٩٠ هـ .

(3) G. T., (R. H. Occ. Cr.), t. l, p. 138.

(٤) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ وراجع أيضا : Math. d'Edesse, (Dccuments Armeniens), t. l, p. 29 et note 1.

(5) G. T., op. cit. loc. cit.

بعد أن حملوا معهم كل ما قد يستطيع الجيش المغير الانتفاع به . أما السلاجقة فقد قاموا بآخر محاولة فى صد الصليبيين عند مدينة إرْجلى ، إلا أنهم لم يحققوا ما أرادوه ، بل سرعان ما فرّوا من أمام الفرنجة الذين بقوا فى تلك المدينة بضعة أيام للاستجمام ، ثم انقسموا شطرين ، خرج فريق منهم بقيادة بلدوين وتنكريد ، ووجهته قيليقيا ، وذلك يوم ١٤ سبتمبر ١٠٩٧ ، للاستيلاء على طوروس ، والآخر إلى أنطاكية .

٭ ٭ ٭

لم تكن فكرة ذهاب بلدوين إلى أرمينيا والانشعاب عن الهدف الرئيسى للحملة بالأمر الطارىء عليه ، ونخطىء التقدير إذا أرجعنا ذلك إلى المصادفة بل ونظلمها ، فليس للمصادفة دخل ما فى هذا التوجيه ، إذ الواقع أنه تنفيذ لخطة دبرها بلدوين من قبل مع زعيم من زعماء الأرمن عارف بمسالك البلاد وطرقها جميعاً ، واتفق معه على المضى بقسم من الحملة إلى هناك ، ومن ثم تقدم تنكريد منفرداً بجيشه حتى بلغ طارس فحاصر حاميتها السلجوقية يوم ٢١ سبتمبر ١٠٩٧ ، وإذ ذاك وصل بلدوين مع ثلة من القادة الصليبيين الذين تكشفت نواياهم عن رغبتهم فى ربط مصيرهم بالشرق والإقامة فيه والانصراف عن تحقيق الغرض الظاهرى الذى جاءوا من أجله ، وأدّى مقدم هؤلاء القادة إلى إيقاع الرعب فى قلب الحامية السلجوقية ، فآثرت السلامة فى الهرب متخذة من الليل ستاراً ، فلما تنفس الصباح قدم سكانها الأرمن واليونان إلى تنكريد — وكانوا أميل إليه من غيره[1] — يسألونه أن يدخل هو وعسكره الحصن وأن يرفع علمه على أسواره ، وكان تنكريد هو الآخر على اتصال سرى بأهل البلد ، وهكذا كان كل من القائدين الصليبيين يعمل لحسابه الخاص ، ونسى كلاهما تخليص بيت المقدس والضريح وكنيسة القيامة ، وكل الأغراض الدينية التى خرج «فقراء المسيح» من أجلها من أوربة .

---

(1) Albert d'Aix, p 344 ; G. T., Op. Cit., p. 140.

لم يكن من اليسير على تنسكريد تحقيق هذه الرغبة لا لعدم حرصه عليها ، بل لأن ماانطبع عليه بلدوين من طمع فى توليه الأمور واعتماده على قوة جنده لابد وأن يفسد عليه ما يتمناه ، فأنكر الأمر على تنسكريد واضطره لمغادرة طارس قاصداً أذنة ، وما كان لتنسكريد إلا أن يركب هذا المركب الكريه إلى نفسه نظراً لضآلة جيشه إذا قيس بجيش منافسه وقريبه بلدوين ، غير أن جماعة من جنده تبلغ الثلاثمائة اضطرت للعودة إلى طارس للتزود ، فمنعها بلدوين من الدخول خوفا من أن تحدثها نفسها باحتلال قلعتها ومدافعة جنده عنها ، فبقيت خارج الأسوار ، فوثب عليها فريق من الترك فى غلس الدجى وذبحوا رجالها على بكرة أبيهم ، فكان ليل وكان صباح تنفس عن جثث لاحراك بها علقت دماؤها بعنق بلدوين .

مالبث بلدوين أن استعان بجماعة من الاسكندناويين(١) ، ثم رتب أموره على احتلال المناطق التى يسكنها الأرمن وتوحيدها جميعها تحت سلطانه ، وكره بطبيعة الحال أن يظهر له منافس ما فى تلك المنطقة لاسيما ومنافسه نرمانى مثله ، لذلك قصد أذنة التى أغلق تنسكريد أبوابها فى وجهه فاضطر بلدوين أن يقيم خارج أبوابها تلك الليلة ، فاهتبل خصمه فرصة الظلام وكرّ على معسكره طامعا أن يزيله عن مكانه وعما بيده ، بيد أن الفشل لازمه ودارت الدائرة عليه فهرب إلى المصيصة ، وكان قد سلبها من الترك من قبل ، وتعقدت الأمور بينهما ، ثم أدرك أن الخير فى أن يتوطد السلم بينهما ويحل محل القتال ، وتطلعا بعين المستقبل فإذا الشرق أكبر من أن يضيق بمطامعهما لاسيما وهما فى بدء الطريق ، فنبذا الخصومة جانبا ، ومد كل منهما يده للآخر ، ورحل بلدوين حين ترامى إليه خبر جرح أخيه جودفروى فى الطراد ، وبذلك الرحيل خلى الجو لتنسكريد ليتابع الفتح ، غير أن غيبة بلدوين لم تطل أكثر من عشرة أيام عاد بعدها يوم ٢٥ أكتوبر ١٠٩٧ م إلى الأراضى الأرمنية ، حيث مضى

---

(١) قدمت هذه الجماعة بقيادة جيتمار البولونى الذى كان من قبل قرصانا ، راجع فى تحقيق هذه المسألة Riant : Les Scandenivians en Terre Sainte, p. 134 et seq.

إلى تل باشر واستطاع تخليصها من يد السلاجقة فلما سمع بذلك توروس أمير الرها الأرمنى بعث فى طلبه للوقوف إلى جانبه[١] .

وقعت هذه الدعوة من نفس الفارس الصليبي موقع الرضا وتلقاها بنفس مستبشرة ، وأذكت فيه مطامع الفتح والإمارة ورأى بعين الغيب نفسه أميراً مستقلا ، لاسيما وهو يعلم أن ليس لتوروس من ولد يخلفه على العرش[٢] الأمر الذى تنبه له بلدوين حيث طلب فيما بعد من توروس أن يشاطره الإمارة إذا أراد بقاءه إلى جواره ، وغير بعيد أن يكون توروس قد خاف من بلدوين ، وأدرك ألا قبل له بدفعه أو معارضته ، فلبي إرادته واستجاب لرغبته على كراهية منه لهذا الطلب ، وأقام حفلا أعلن فيه تبنّيه لبلدوين ورحب به الأهلون ، كما رحب هو بهذه الفكرة لبُعْد الرها عن مجلى الصراع بين الإسلام والمسيحية .

فرغ البلد من الترحيب بالفارس الصليبي المخاطر الذى انصرف لتكريس جهوده الحربية لخدمة الرها ، أو بوجه أدق لخدمة مصالحه الذاتية وتثبيت مركزه الجديد بها وتأمين أهلها وحدودها ، وذلك بالزحف على سميسطاء فى فبراير ١٠٩٨م مستعينا بالجيش الأرمنى الذى لاقى الكثيرون منه مصرعهم فى هذا الزحف[٣] .

قبِل توروس مشاركة بلدوين إياه ، على أن هذه المشاركة لم تلبث أن أنضجت مطامع الفارس الصليبي فى الاستقلال بشئون الولاية دون أن يكون إلى جانبه أحد ما حتى ولو لم يكن له من السلطان شيء ، وإلا فكيف نفسر قيام جماعة من الأرمن بالثورة والتمرد على أميرهم توروس يوم ٧ مارس ١٠٩٨ ؟ وإذا قيل إن علة ذلك ترجع إلى استعانته ببلدوين فكيف نعلل

---

(1) Stevenson : Crusaders in the East, p. 22.

(٢) يقال إن توروس زوجه ابنته «أردة» التى طلقها بلدوين سنة ١١٠٤ حين تولى عرش مملكة بيت المقدس وأرغمها على دخول الدير راجع Documents Arm., p. 25, 35; Foucher, t. IV, p. 338; G. T., Op. Cit. p. 156.

(3) Alb. d'Aix, p. 353; G. T., p. 157—158; Math. d'Ed., (Doc. Am.), t. I, p. 36—37.

مطالبـة الثوار أنفسهم بأن يتولى بلدوين الأورنى حكمهم ؟ . . . إن مجرى الحوادث يدل على أن بلدوين هو المدبر للفتنة ، إذ أى حق يخول له أن يقف وسط الثوار فى الـكنيسة وأن يقسم لتوروس وزوجته بالمحافظة عليهما وهما فى طريقهما إلى ملطية التى اختاراها منفى لهما؟

ألم يكن الواجب يقتضيه — وقد أنزله توروس منه منزلة الابن — أن يرد عنه عادية المتمردين ؟ أولا أقل من أن يبذل جهده فى المحافظة على حياته وفاء باليمين المقطوعة ؟ . . . هذه الأسئلة وأمثالها ترد على الخاطر حين نساير الحوادث الجافة فنقول إن توروس اغتيل على يد الثوار بعد يومين فقط من الفتنة ، وانفرد بلدوين وحده بالأمر فى الرها ، على أنه أراد أن يُكسب هذه التولية الصفة الشرعية فسار فى تمثيل الرواية تمثيلا عجيبا إن وجد من مؤرخى عصره — أمثال ألبرت ديكس — من رواها كحقيقة مفروغ منها ، إلا أنها لا تستقيم مع النقد ، وما تأثر القارىء بهـا فى مظانها الأولى إلا بمقدار تأثر المشاهد لتمثيلية عنيفة يندمج مع أبطالها وهم يغدون ويروحون أمامه على المسرح، ثم لا يلبث أن يعود إلى نفسه عقب الفراغ منها ، ويعلل بعض المؤرخين أن أهل الرها كرهوا استبداد توروس ؛ ولم يقدم لنا هذا البعض دليـلا على طغيانه ، ومن ثم فـكروا فى التخلص منه وسوق الحـكم لبلدوين ليدفع عنهم الخطر السلجوقى ، ويشير المؤرخ الصليبى إلى موقف النبل — وما أعجبه — من جانب بلدوين حيث رفض أن يذهب معهم لقتل توروس ، الأمر الذى ينهض دليلا — وإن فات مؤرخه — على أن لبلدوين علما سابقا بما دبر (١) ،

---

(١) Alb. d'Aix, p. 354 seq. ، وإنه ليجمل عنوان فصله الثانى والعشرين كالآتى :
"Conspirate plebis consilium in ducem suum Baldewinus reprimere volens, nil proficit." ويلاحظ أن هذا المؤرخ يحاول تبرير موقف بلدوين ، فيقدم من الأحداث مالا يصعب معه على الناقد أن يرى بين السطور يد بلدوين تحرك شخصيات الفتنة ، ويخرج منها ملوث اليدين بدماء توروس ، وإن أخفاها فى قفاز ينم عما تحته ، وهذه الحوادث واردة بالتفصيل فى Math. d'Ed., op. cit. p, 37—38.

ومهما يكن الأمر فقد تمكن بلدوين من تثبيت أقدامه فى الرها ، وأقسم أهلها له يمين الولاء ، وإذ ذاك أراد أن يبرهن لهم على حسن اختيارهم إياه ، فاشترى سميسطاء من أميرها التركى بعشرة آلاف دينار ، وأطلق أسرى الرها الذين كانوا فى قلعتها ، ثم انصرف إلى « سروج » فاحتل قلعتها فى ربيع الأول (يناير ١١٠١ م) ووضع بها حامية صليبية بقيادة المؤرخ المعروف فوشيه[1].

كانت سياسة بلدوين تهدف — كما رأينا — إلى توثيق العلاقات بين جماعات الأرمن والصليبيين ، على ألا ترقى إلى جعل مقاليد الأمور فى البلد بأيدى أصحابه الشرعيين ، وكان فى الوقت ذاته يخشى أن تتحرك عوامل الوطنية فى نفوسهم فيتمردون عليه ، ورأى أن خير وسيلة لذلك إنما هى موازنة العنصر الأرمنى بجماعات أوربية يصطنعها فى فروع الإدارة المختلفة ، ولم يفت الأرمن ماتنطوى عليه تلك السياسة من شل أيديهم فلم يرحبوا بها بل نظروا إليها نظرة الكراهية ، لاسيما وقد أفصح الكونت الصليبى عن نواياه حين اتخذ من هؤلاء الصليبيين مشاورين له وأقصى الأرمن عن الحكومة ، وأغدق على أولئك الوافدين الأموال الجمة ، وأقطعهم الأراضى الواسعة فكوّنوا طبقة أرستقراطية دخيلة على البلاد ، فلا عجب إذا تخشنت صدور الأرمن على الصليبيين واحتكت الغيرة فى نفوسهم منهم ، وظهرت هذه الغيرة فى صورة عملية حين عمد بعضهم لتدبير مؤامرة اتصلوا فيها بالسلاجقة ولم تفلح ، إذ سرى خبرها إلى بلدوين ، فألقى القبض على المتآمرين ومثّل بهم يوم ٢٦ ديسمبر ١٠٩٨م وألقى فى السجن كل من حامت حولهم الشبهات ، وصادر كثيراً من أملاكهم وأموالهم وفرض على بعضهم جزية كبيرة ، فهدأت الأحوال واستقرت الأمور فى البلد .

(1) Matthieu d'Edesse, Op. Cit., p. 53, et note 1.

الفصل الثانى

الصليبيون فى أنطاكية

موقف الأرمن والسريان . تحصين أنطاكية . تهاون المسلمين . دفاع حلب وحمص ودمشق عن أنطاكية . المجاعة فى صفوف الصليبيين . رجوع تاتيكيوس . السفارة المصرية إلى الصليبيين . نهوض العراق لنجدة أنطاكية . خيانة فيروز . فشل النجدة وأسبابه . الحربة المقدسة . أثرها المعنوى . استسلام أنطاكية . شرعية امتلاك أنطاكية . تنازع الأمراء الصليبيين . طلبهم تدخل البابا .

وجد الصليبيون فى طريقهم إلى أنطاكية معاونة كبيرة من جانب الأرمن والسريان إذ كانوا يثبون على حاميات المدن ويطعنونها من الخلف ، وبذلك ييسرون السبيل أمام الفاتحين الأوربيين حتى إن قوات الصليبيين لما أغارت على أعمال أنطاكية وجدت الأمور هيّنة أمامها بفضل وثوب الأرمن على الحاميات ، مما شجع أهالى بقية النواحى الأخرى ، كما فعل أهل أرتاح مثلا ،(١) وليس هناك من المؤرخين — القدماء والمحدثين على السواء — من ينكر التيسيرات الجمة التى تهيأت للمغير بفضل هذا الوثوب .

أما أنطاكية فكانت أكثر المدن تحصيناً ، عنى بها البيزنطيون عناية فائقة طول مدة بقائها تحت سلطانهم (٩٦٩ — ١٠٨٤ م) ، ففيها ما يقرب من أربعمائة حصن وبرج ، هذا إلى قيام المرتفعات التى تحتضنها وتجعل اقتحام المغير عليها عسيراً كما يتبين الناظر إلى الخريطة ، وقد وصفها ابن بطلان فى رسالة أنفذها سنة ٤٤٣ هـ إلى أبى الحسين هلال بن المحسن الصابى بقوله « لها سور وفسيل ، ولسوره ثلاثمائة وستون برجا يطوف عليها بالنوبة

---

(١) كمال الدين ، منتخبات من تاريخ حلب ، ج ٣ ص ٥٧٨ . ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ .

أربعة آلاف حارس ... وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مع الجبل إلى قلته فتتم دائرة ، وفى رأس الجبل داخل السور قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة ، وهناك من الكنائس مالايحد ، كلهامعمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع[1] » . وكان عليها وقت مقدم الصليبيين القائد التركى ياغى سيان فما شعر بالخطر الجديد حتى أرسل مستنجداً بدقاق أمير دمشق وبكربغا أمير الموصل وبالسلطان بركياروق ، غير أن تقدم العدو نحوها كان أسرع من استعداد المسلمين لدفع الخطر عنها .

كان بوهيمند النرمانى على رأس أول جماعة وفدت على أنطاكية حيث عسكر فى الطرف الشمالى من المدينة وعسكرت القوات الأخرى التى بقيادة روبرت النرمندى وإتين دى بلوا فيما بين باب بولص وباب الكلب ، وعسكر ريموند الصنجيلى وأديمار إلى الغرب ، وعسكر جودفروى بجنده فى الشمال قرب باب الجنينة .

خشى ياغى سيان من الصليبيين وخاف تمرد المسيحيين داخل أنطاكية فعمد إلى حيلة عجيبة ذلك أنه أخرج جميع الذكور منها حتى لايثبوا عليه من الخلف إذا جد الجد مما اضطرهم للفرار[2] إلى عدوه ، وهى رواية تختلف كل الاختلاف عما ذكره مؤرخنا المجهول فى حولياته من أن الأرمن والسوريين المسيحيين الذين كانوا داخل المدينة كانوا يخرجون منها كل يوم متظاهرين بالفرار ويأتون إلى معسكرات الصليبيين ، بينما بقيت نساؤهم فى البلد ، ويذهب مؤرخنا أكثر من ذلك فيزعم أن هؤلاء البلديين الوافدين على معسكرات إخوانه كانوا يهدفون لتقصى أحوالهم ثم يحملونها إلى ياغى سيان ، وهكذا حامت الشبهات من الجانبين حول موقف الأرمن والمسيحيين عامة . وقد يكون من الطبيعى أن يتسرب الخوف إلى نفس ياغى سيان

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ص ١٩٢ ، Chalandon : Hist. de la Première Croisade, p. 163.

من هؤلاء الأرمن ، وحينذاك يصح مايقال عنه من إخراجه إياهم من البلد ، أما القول بأن بوهيمند قد اصطنع معهم العنف فصحيح هو الآخر ، ولكن تفسيره هو ما كان يحتك فى صدر بوهيمند من الشك حول جميع الآخرين .

على أن الصليبيين ظلوا مقيمين على حصار أنطاكية قرابة ثمانية أشهر (٢١ أكتوبر ١٠٩٧ — ٣ يونيو ١٠٩٨ م) لم تكن خالية من عمل يذكر يهدف إلى إضعاف القوة الإسلامية أو تقوية عزائم الحجاج الأوربيين ، أو إقامة حصون وأبراج متحركة يمكن بها تذليل الصعاب التى تعترضهم ، ولقد عملت حامية أنطاكية الإسلامية على مساعدة العدو — عن غير قصد — فى تمكنه من البلد ، إذ ظلت أمداً طويلا بلا عمل جدى قانعة ببقائها فى الحصون والقلعة ، فأدرك الصليبيون من ذلك الموقف السلبى تخوف الحامية وشجعهم ذلك على مضاعفة الجهد ، ولعل قوتهم المعنوية زادت أضعافاً ، ومظهر ذلك انصرافهم بكل قواهم لبناء جسر من القوارب على نهر العاصى ، ولعل ياغى سيان كان يخشى فى الوقت ذاته تمرد الأهلين نظراً لما يعرفه فيهم من كراهيتهم له ، الأمر الذى لم يكن يخفى عليه وذلك لما جُبِل عليه من العنف الشديد إزاءهم (١) . وقبل انقضاء شهر على بدء الحصار ، أعنى يوم ١٨ نوفمبر قام بوهيمند بمهاجمة حصن حارم الموصِّل بين حلب وأنطاكية ، وفاجأه على حين غفلة من المسلمين وأسر جماعة منهم قادهم إلى أنطاكية وقتلهم ، وليست أهمية هذه الإغارة فى أن الصليبيين قتلوا بعض المسلمين ، ولكنها تدل على ماهو أبعد من ذلك ، إذ تشير صراحة إلى تقوية عزائمهم وخروجهم من عزلتهم وأمنهم على ما بيدهم وتطلعهم لمضايقة المسلمين فى النواحى المجاورة ، كما أنهم لم يجدوا مقاومة تحد من غلوائهم ، ولم يكتفوا بذلك بل أقاموا حصناً آخر قبالة باب بولص دعوه بحصن مالرجارد (٢) ، ومن هذا نتبين أن المهاجمين لم يقصروا قط فى التحصن والاستعداد لحرب أنطاكية وأخذها من أيدى

---

(١) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ج ٣ ص ٥٧٨

(٢) أنظر الخريطة ، ص ٦٥ Raimond d' Agiles, p. 247.

أصحابها ، كما ساعدتهم الظروف بمجيء أسطول جنوى إلى ميناء السويدية[١] فى النصف الثانى من نوفمبر حاملا إليهم بعض الإمدادات من الرجال والذخيرة، ومع ذلك فقد جابهوا مشكلة عويصة هى قلة الأقوات مما تشير إليه « جستا » بقولها « إنه حدث قبل عيد الميلاد أن شح القمح وجميع المواد ، وأصبح الصليبيون لا يجرءون على مغادرة المعسكر ، وفقدوا فى المنطقة المسيحية كل ما يمكنهم أن يمسكوا به رمقهم » ، وأهمية هذا النص قائمة على أنه وصف شاهد عيان كان فى نفس المعسكر وكان واحداً ممن ألمت بهم المجاعة التى حملتهم على إعفاء فريق منهم من مهمة الحصار للقيام بنهب النواحى المجاورة .

غير أن السلاجقة تحركوا أخيراً ، لكن تحرك الخائف ، فتربصوا لهم فى العودة . وفى ذلك الوقت بالذات كان المسلمون فى النواحى المختلفة قد أدركوا جانب الجد فى نوايا الصليبيين ، وعرفوا أن سقوط أنطاكية فى أيدى هؤلاء المخاطرين يعرض بقية بلاد الشام لخطر الغزو الأجنبى ، فنهض العسكر الإسلامى[٢] قرب شيزر بقيادة دقاق أمير دمشق ، وأتابكه طغتكين وجناح الدولة بن ملاعب أمير حمص ، وانضم إليهم ابن ياغى سيان وفريق من بنى كلاب حيث قتلوا جماعة من الصليبيين ، فاضطر الناجون للعودة إلى « الروج » وعرجوا منه على معرة مصرين[٣] ، وإذا كانت العبرة بالخواتيم فقد رجحت كفة الصليبيين يومذاك (٣١ ديسمبر ١٠٩٧ م) رغم الخسائر الجمة التى كبدهم إياها دقاق ، ومر الصليبيون بمحنة شديدة من جراء نقص الأقوات وهطول الأمطار[٤] مما أضعف معنويتهم ، ولم يجد الفقراء منهم مالا يشترون به طعامهم ، وضعفت العزائم حتى لقد آثر بطرس الناسك الهرب هو وجماعة

---

(1) Dussaud: Topographie Historique, p. 341.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ ، Gibb: Damascus Chronicle of the Crusades, p. 43.

(٣) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٧٨ — ٥٧٩ .

(4) Matthieu d'Edesse, Doc. Armeniens, t. I, p. 34; Foucher, (R. H. Occ. Cr.), t. III, p. 341.

ممن طارت قلوبهم شعاعا ، لولا أن تعقبهم تنكريد وأرجعهم إلى المعسكر وهم فى أشد حالات الخزى ، وابتلى الصليبيون بأنواع من المحن شديدة فسَّروها تفسيراً دينيا بغضب السماء عليهم من مباذلهم وعدم رعايتهم الطريق المستقيم ، فهم لم يعبِّدوا طريق الرب كما ينبغى ، ورأوا أنهم تنكبوا سبيل المسيحية . ألم يقل المسيح « أمى وإخوتى هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها » ؟ وتذكروا قوله إن الأرض والسماء تزولان ولكن كلامه لا يزول ، وعلى هذا الأساس أدركوا أنهم ارتكبوا من الخطايا ما جعلهم يشعرون معه بالخزى والعار ، حتى أننا لنرى انعكاس هذه الفكرة فى الحلم الذى رآه أحدهم قبيل عثوره على الحربة المقدسة كما سيأتى بعد .

* * *

إلا أن هذه المجاعة لم تكن إلا حادثا عارضاً انصرفوا بعده لتركيز قواهم وتوحيدها لضرب أنطاكية ، ورأى الإمبراطور أن تساهم قواته فى الفتح فيثبت حق الإمبراطورية فى الإمارة ، ومظهر هذه المساهمة هو إنفاذه قائده « تاتيكيوس » على رأس كتيبة بيزنطية ، وأشار تاتيكيوس على الصليبيين بخطة حكيمة هى المبادرة إلى احتلال المدن والحصون المجاورة ، ونصحهم بعدم التجمع فى بقعة واحدة حتى لا تجابههم مشكلة الأقوات ، لكنهم لم يستجيبوا لهذه النصيحة ، محولين على ذلك بعاملين : أولهما الشك فى نوايا تاتيكيوس ، ثم عدم قدرتهم على ذلك العمل .

لم يلبث تاتيكيوس أن انصرف بقواته عن القتال إلى جزيرة قبرص ، مما قد يُفهم منه عدم اهتمام البيزنطيين باسترجاع أنطاكية ، لكن الواقع هو أن بوهيمند أدرك أن الإمبراطورية غير جادة فيما وعدته إياه من استعماله على أنطاكية ، ولم يفته تقدير الحقيقة الراهنة التى ينطوى عليها إرسال هذه الكتيبة البيزنطية ، وأدرك — فى غير عسر — أن هدف الإمبراطور من وراء ذلك إنما هو إبعاد القوات الصليبية عن أنطاكية أو بمعنى أدق إبعاد

بوهيمند ذاته عن الإمارة، وردها إلى بيزنطية ، ومن ثم جمع أمره على الخروج عليها والنكث بعهده لها ، واصطنع المكر فى سبيل تحقيق بغيته ، فتظاهر بعزمه على الرحيل إلى أوربة بمن معه ، لقلة مافى يده من الأموال الكافية للصرف على المحاربين ، ، فخاف بقية الصليبيين أن تدور عليهم الدائرة إذا نفذ بوهيمند فكرته ، فانعقد إجماعهم — باستثناء كونت تولوز — على أن تكون أنطاكية تحت إدارة بوهيمند بعد فتحها[١] ، على أن تحتل قوات الزعماء المختلفين جميع حصون الإمارة وأبراجها وقلعتها فلا ينفرد بها نرمان بوهيمند وحدهم[٢] ، وبذلك لاح فى الأفق أمل داعب خيال بوهيمند ، غير أن وجود تاتيكيوس لا بد وأن يحول بين بوهيمند وبين ما اتفق عليه الزعماء الصليبيون من تسليمه أنطاكية ، لذلك اتصل سرا بالقائد البيزنطى ، وأفهمه أن مولاه الإمبراطور قد اتفق مع سلاجقة الروم على إنفاذ جيش إسلامى دون أن يعنى بإخبار قائده ، ومن ثم فبوهيمند يرى نفسه مضطرا لمحاربته ، فخاف تاتيكيوس وتسلل بمن معه مدعيا أنه ماض لتزويد الجيش بما يحتاجه من المئونة[٣] .

وأرادت مصر اغتنام الفرصة بموادعة الصليبيين ، وبذلك تأمن شرهم وشر اقتحامهم بيت المقدس بحد السيف وفى الوقت ذاته تقضى على الجماعات المخالفة لها مذهبيا فى بلاد الشام ، فأنفذ الأفضل[٤] شاهنشاه بن بدر الجمالى فى يناير ١٠٩٨ (صفر ٤٩٢) سفارة إلى الصليبيين بقيت شهرين ، تحمل مشروع اتفاقية تعقد بين مصر وبينهم ، تستقل فيها الأولى ببيت المقدس ، وينفرد الآخرون بأنطاكية ، على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة

---

(1) Raimond d'Agiles, Historia Francorum, (R. H. Occ. Cr.), t. III, p. 245 et seq.

(2) Chalandon : Hist. de la première croisade, p. 227.

(٣) Raim. d'Agiles, op. cit. loc. cit. ، أما فيما يتعلق بمناقشة الآراء المختلفة حول هذه المسألة فراجع Chalandon : Hist. de la première croisade, p. 192 — 194; et Essai sur le règne d'Alexis Comnène, p. 200—203.

(٤) راجع الدائرة ، الترجمة العربية ، مادة « الأفضل » .

بفلسطين ، وتكون لهم الحرية الكاملة فى ممارسة شعائرهم الدينية ، على ألا تزيد إقامتهم بها أكثر من شهر واحد ، وألا يدخلوها بسيوفهم[١] . ومهما يكن من أمر هذه الوفادة فقد لقيت من الناحية النظرية ترحيبا كبيرا من جانب الصليبيين الذين أدركوا ما تنطوى عليه من معنى الانحلال العنيف والفرقة السائدة فى المجتمع الإسلامى رغم أن الأحداث الملمة ببعض نواحيه كانت تستدعى تناسى الأحقاد والخلافات المذهبية والسياسية[٢] ، وتتطلب تضافر الجهود لدرء الخطر المشترك .

على أن الصليبيين أرادوا أن يستغلوا هذه الفُرقة فراسلوا دقاقا أمير دمشق طالبين إليه عدم التعرض لهم ، زاعمين له بألا مقصد لهم غير البلاد التى كانت بيد الدولة البيزنطية[٣] ، وحينذاك أدرك رضوان أمير حلب رغبتهم فى ضرب القوى الإسلامية بعضها ببعض ، ليسهل عليهم تحقيق نصرهم دون أن يجدوا أمامهم تكتلا ما ، لذلك رأى رضوان — بعد لأى — أن يتناسى — مؤقتاً — أحقاده الشخصية ، وأن يمد يده لشمس الدولة بن ياغى سيان الذى وفد عليه ملتمساً منه المعونة الحربية بعد أن بلغت الدماء الثُّنن ، وبعد أن يئس من تحرك الدماشقة غب هزيمتهم فى (ألبارة) قرب حلب ، لذلك نهض فى فبراير ١٠٩٨م لحصار أنطاكية ، وانضم إليه سكمان بن أرتق وأرسلان تاش صاحب سنجار وقوات من شيزر وحماة وحمص وعسكروا عند « مرج دابق » شرقى أنطاكية ، إلا أن رضواناً لم يتخذ الحيطة ولم يفكر فى أن جماعة من الأمن فى حلب قد يتصلون سراً بالفرنجة فى أنطاكية ،

---

(1) Guill. de Tyre, (R. Hist. Occ. Crois.), t. I, p. 191 et seq.

(٢) يرى Wiet : Précis de l'histoire de l'Egypte, t. II, p. 186 أن الانقسام المذهبى كان أكبر معوان للصليبيين فى الاستقرار ببلاد الشام ، ويشير فى مكان آخر (Ibid., p. 189.) إلى مبلغ ما وصل إليه الجيش المصرى فى الشام من الضعف ، على حين أن أبا المحاسن فى النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٧ ، يعيب على الأفضل تقاعده ويقول « ما أدرى ما كان السبب فى عدم إخراجه [عساكر مصر] مع قدرته على المال والرجال » .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، الطبعة الأوربية ، ج ١ ص ١٩٣ .

ويفضون إليهم بخروج القوات الإسلامية ومحاولتها مباغتة المدينة على حين غفلة منهم . لذلك استعد الصليبيون للقتال وقسّموا أنفسهم أقساما ، فأقاموا بعضهم لحماية المدينة ، وجعلوا البعض الآخر لاعتراض المهاجمين إذا فكروا فى اقتحامها ، وخرجوا متخفين بقطع من الليل تقيهم أعين الرقباء ، وضربوا خيامهم فيما بين نهر العاصى وبحيرة العمق ، وهو مكان حصين يصعب على الحلفاء المسلمين مهاجمتهم فيه لما يتطلبه من وجوب اقتحام نواح يشرف عليها الصليبيون أو جماعات ممن هواها معهم كالأرمن ، على أن الجيش المسلم تقدم يوم ٩ فبراير محاولا شق طريق له إلى المدينة من ناحية جسر الحديد ، فوقف لهم العدو بالمرصاد ولم يمكنهم من تحقيق إربتهم . وعلى الرغم من استبسال جماعة رضوان وسكمان وبراعتهم التى شهد بها أعداؤهم إلا أنهم اضطروا للارتداد نحو حارم والصليبيون فى أعقابهم يقصونهم أسراً وقتلا ، ونهباً لما يتركونه وراءهم تخفّفاً ، حتى إذا شاهدتهم حامية البلد السلجوقية مغبرين قد لوّحهم الجهد وأضنتهم مشقة الحرب وعار الهزيمة أخلت الحامية القلعة ، محاولة جعلها طعمة للنيران كى لا يجد فيها المغير المنتصر ما قد ينتفع به لا سيما بعد أن غلب عليهم أرمن حارم [1] .

على أن نشوة النصر دفعت الصليبيين — كما رأينا — لتعقب جيش رضوان ، ودفعتها الغنيمة إلى الابتعاد عن أنطاكية ، فحاولت حامية المدينة الانقضاض على المشاة الذين خلّفهم الصليبيون على معسكراتهم ، ونشب القتال بين الجماعتين ، بيد أن جماعة ياغى سيان مالبثت أن ارتدت إلى الحصن حين شاهدت بقية الصليبيين عائدة ، وبذلك توالت انتصارات الفرنجة وهزائم عدوهم ، ودلت هذه الوقعة على أن القوى الإسلامية لاتستطيع الصمود — وهى مبعثرة — أمام الصليبيين ، لا سيما وبقية نواحى العالم الإسلامى تشهد الصراع عن كثب دون أن تحاول — جدياً — مد يد المعونة للدماشقة

---

(١) ابن العديم ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٧٩

أولا وللحلبيين ثانياً ، بل كان بعضهم لا يعنيه إلا الانكباب على ملذاته[١] ، وهل أدل على تفكك العالم الإسلامى من تلك السفارة المصرية الأفضلية للاتفاق مع الصليبيين ضد السلاجقة حتى لقد سرها أن ترى رءوس القتلى المسلمين حين بعثها إليها الصليبيون ، الأمر الذى ظلت ذكراه باقية فى الأذهان أكثر من ثلاثة أرباع القرن ، فنسمع وليم الصورى[٢] يشير إلى فرحة سفراء الأفضل بما شاهدوا ، ويصف حسن استقبال الصليبيين إياهم وترحيبهم بهم.

ويلاحظ أن الدولة الفاطمية فى مصر نظرت إلى انتصار الصليبيين فى أنطاكية وحلب والمعرة وألبارة كمانع للسلاجقة من محاولتهم التوسع جنوباً ناحية مصر[٣]. كما أن الأفضل ذاته — فى رأى أحد المؤرخين المحدثين — كان يرى أن مهمة الصليبيين تنتهى عند بيت المقدس نظراً لأنهم يريدون تحقيق مشروع حنا الشميشق ومن قبله نقفور فوكاس[٤] ، على أن الواقع أن الصليبيين كانوا يدركون تمام الإدراك أن ليس ثمت عقبة فى سبيلهم للاتجاه نحو مصر بعد فتح القدس ، لإنهم يعلمون ما بين الخلافتين العباسية والفاطمية من الشقاق وكراهية كل منهما للأخرى[٥] ، ولقد رأينا حالا كيف أن الأفضل قدم لهم البرهان الملموس على صحة هذه النظرية ، فالتفسير الواقعى لسفارته هو إيضاح الخلف والكراهية التى بين مدبرى الشعوب الإسلامية حينذاك.

* * *

على أن الخلافة العباسية تحركت بعد طول سبات ، فأنفذ بركياروق قوة ضخمة بقيادة قوام الدولة كربوغا صاحب الموصل ، ولم يحاول أن يجعل

---

(1) Wiet : Précis de l'hist. d'Egypt, t. II, p. 189.

(2) G. T., p. 205.

(٣) لم تكن محاولة أتسز فى الخروج من دمشق سنة ٤٦٩ هـ ، ونهوضه فى الجمع العظيم إلى ناحية مصر طمعاً فى امتلاكها بالبعيدة عن الأذهان ، لولا قيام أمير الجيوش بدر بدفعه ، راجع ابن القلانسى ، الذيل ، ص ١٠٩ ، كما أن أتسز استولى على بيت المقدس وأخذها من مصر قبل سنة ١٠٧١ راجع ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ص ١٩٧ وكذلك G. T., (R. Hist. Occ. Cr.), t. I. p. 191—192

(4) Grousset : Histoire des Croisades, t. I, p. 83.

(5) G. T., Op. Cit. p. 191.

نهوض الحملة طى الكتمان كما ينبغى ، بل سرى الخبر فى جميع النواحى بقرب وصول النجدة العراقية السلجوقية إلى أنطاكيـة دفعاً للخطر الصليبى الذى رأته بغداد يوشك أن يغرز مخالبه فى غرب العراق بعد أن أنشبها فى شماله ، حيث أسس بلدوين إمارة الرها اللاتينية واستقل فيها ، وما كان لهذا الخاطر الذى طرأ ببال سلاجقة العراق أن يفوت الصليبيين ، وأدركوا أن تحرك العراق معناه محاولته بسط سلطانه على تلك النواحى أولا ، ولا بد له من الاستبسال فى القتال لكى يضرب الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، فلا عجب إذا بذل الصليبيون غاية الجهد لصد النجدة الموصلية . لذلك عقدوا يوم ٥ مارس ١٠٩٨ مجمعاً ضم كبار القادة منهم للتداول فيما ينبغى اتخاذه للحيلولة دون وصول النجدة إلى إنطاكية ، حتى لا تقوى معنوية المحاصرين وتشتد عزائمهم ويقع الصليبيون بين جماعة ياغى سيان فى الداخل وقوات كربوغا من الخارج ، وسبيل تلك الحيلولة هو إقامة حصن على الشاطىء الأيمن للنهر عرف بحصن « المحمرة » أو حصن ريموند ، واستعانوا بعمال من أهل السفن الإنجليزية والجنوية المرابطة عند ميناء السويدية (١) حيث ذهب بوهيمند وكونت تولوز لاستقدامهم .

على أن الصليبيين وجدوا أكبر عون لهم فى شخصية علج ، أرمنى الأصل فى بعض المراجع وتركيه فى مراجع أخرى ، وكما اختلفوا حول أصله كذلك اختلفوا فى اسمه وإن رجح أنه يدعى بفيروز (٢) ، وثق به ياغى سيان وعهد إليه بحراسة برج يعرف ببرج الأختين ، إلا أنه كان غاضبا على مولاه لمصادرته بعض أمواله وأخذه غلته (٣) ، وإن ذهبت الرواية الصليبية (٤) للقول بأن

---

(١) Riant : Inventaire, p. 224.

(٢) راجع ابن القلانسى ، الذيل ، ص ١٣٥ ، وابن الأثير ، الكامل ص ١٩٢ ، وابن العديم ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٠ — ٥٨١ ، وأبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٦ ، Guill. de Tyre, p. 212 و Raimond d'Agiles, p. 250.

(٣) ابن القلانسى ، شرحه ، ص ١٣٥ — ١٣٦ ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨١

(٤) Guill. de Tyre, (R. Hist. Occ. Cr.), t. I, p. 221.

محافظته على شرفه دعته إلى تسليم البلد لبوهيمند ، إذ اكتشف فيروز أن زوجته لم ترع حق الزوجية فى خيانتها إياه مع أحد القادة الأتراك ، ومع أن المراجع لم تنص على اسم هذا القائد التركى إلا أنه — لو أخذنا بالرواية المسيحية — لكان لنا أن نتوقع أن يكون المقصود هو ياغى سيان أو أحد ولديه ، لذلك آلى فيروز أن يكون انتقامه شديدا ، وأى انتقام أشد وقعا من أن ييسر على الصليبيين دخول البلد ، فاتصل فيروز سرا[1] ببوهيمند لما أدركه فيه من الحرص الشديد على أن يؤول إليه أمر الحكم فى أنطاكية ، وكتم بوهيمند الخبر عن بقية الزعماء الصليبيين لكنه لوّح لهم بضرورة إلقاء القيادة إليه واصطناع كل وسيلة فى سبيل دخول البلد واحتلاله ولولم تكن مشرفة لهم كفرسان ، مما رفضته أخلاق البقية ، على أنهم مالبثوا أن استجابوا لهذا التلويح حين عاد بوهيمند مرة أخرى مبينا لهم الخطر المحدق بهم من جراء اقتراب النجدة الموصلية ، ولم يشذ عنهم فى قبول توليه أمرها سوى منافسه ريموند الصنجيلى ، إلا أن الشعور العام فى المعسكر الصليبى باقتراب الخطر الموصلى السكربوغى حمل الجميع على النزول على طلب بوهيمند وإيكال القيادة العامة إليه ، وقد تم ذلك يوم ٢٩ مايو ١٠٩٨ ، ولم ينقض أسبوع إلا وأسلمه فيروز[2] برج الأختين[3] ، ثم لم تلبث أنطاكية أن استسلمت يوم ٣ يونيو ، وجرت دماء حاميتها مطلولة على شعاف الوادى وفى سراديب الحصون وعلى سفوح تلال حبيب النجار ، تسطر خديعة فيروز وخيانته ، وبطش المحتل

---

(١) ذكر ابن العديم ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨١ أن ميمند جمع القوامص وقال لهم « هذه أنطاكية إن فتحناها لمن تكون ؟ » فاختلفوا ، وكل طلبها لنفسه فقال « الصواب أن يحاصرها كل رجل منا جمعة ، فمن فتحت فى جمعته فهى له » فرضوا بذلك .

(٢) Leib: Rome, Kiev et Byzance, p. 221.

(٣) أما أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٦ ، فيخطىء إذ يزعم أن الاتصال كان بين فيروز وبين كونت صنجيل . وهو ينسب كل دور فى هذه الحرب إلى كونت تولوز ، والتعميم — من ناحية الحقائق التاريخية — مبالغ فيه مبالغة تؤدى إلى الخطأ .

وقسوته ، وطمع بوهيمند فى الرياسة دون نظر إلى ماتنطوى عليه الوسائل التى يعمد إليها من روح لاتتفق والشرف والفروسية .

وأطل ياغى سيان — وقد أتلع الفجر — فأبصر راية بوهيمند تخفق من عل فعرف جلية الأمر ، وماكانت به حاجة إلى من يفضى إليه بالنبأ الأليم : نبأ ضياع أنطاكية من يده وخروجها إلى أيدى الصليبيين ، وحينذاك أدرك ألا أمل له فى البقاء أو الدفاع ، وانطلق مع جماعة قليلة من غلمانه مؤثرين الهرب وقد نال منه الجهد كل منال ، فلقيهم بعض الأرمن فى الطريق قرب أرمناز فوثبوا على ياغى سيان وقتلوه وحملوا رأسه إلى معسكر خصمه[١] .

وبذلك انطوت صفحة من جهاد ياغى سيان ، وبدأت صفحة جديدة فى تاريخ أنطاكية .

على أن إلقاء نظرة عابرة على سير المدد الكربوغى وهو فى طريقه إلى ياغى سيان يبين لنا علة سقوط أنطاكية ، ذلك لأن المدد بلغها يوم ٧ يونيو . فأين كان منذ شهر ، منذ مغادرته الموصل ؟

لقد عرج كربوغا — وهو فى طريقه لنجدة أنطاكية — على إمارة الرها وحاصرها مدة ثلاثة أسابيع وجد أثناءها من المقاومة العنيفة ما حمله على رفع الحصار عنها[٢] ، وأسرعت النجدة لكن بعد فوات الأوان ، ويممت شطر هدفها الرئيسى ، فلما بلغته وجدت الصليبيين قد احتلوا معظم حصونها وأبراجها ، فحاصرت يوم ٨ يونيو ١٠٩٨ حصن المحمرة ، فلما رأى روبرت كونت فلاندر أن الدائرة قد تدور عليه خرج برجاله مستخفيا تحت جنح الدجى وانطلق إلى داخل المدينة ، وفعل مثله جودفروى فى حصن مالرجارد[٣] ،

(١) ابن القلانسى ، شرحه ، ص ١٣٥ ؛ وابن العديم ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨١ — ٥٨٢ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ص ١٩٣ ؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٦ ، Raim. d'Agiles, Hist. Fran., t. III, p. 252, Matthieud'Edesse, Doc. Armeniens, t. I, p. 40-41; G.T, t. I, p. 231.

(٣) Raim. d' Agiles. Hist . Franc., (R.H.Oc.Cr.), t, III p.252; G.T., Op.Cit.p.244.

واقترب الجيش المغير من أنطاكية وضرب حولها نطاقا من الحصار العنيف ، وخرج شمس الدولة بن ياغى سيان إلى كربوغا يستعجله الحرب ، ويبين له ما هو فى غنى عن معرفته ، وما تفصح الأحوال حينذاك عنه ، فاشترط كربوغا أن يسلمه شمس الدولة القلعة قبل أن يزج برجاله فى القتال ؛ أفلا يدل هذا على انعدام الثقة بين الطرفين ؟ وإذا كانت النجدة لا ترمى إلا إلى مساعدة ياغى سيان فما الداعى لإصرارها على امتلاك القلعة ؟ ليس هناك سوى مبرر واحد هو رغبتها فى أن تكون آمنة على نفسها إذا اضطُرت القوات الإسلامية المحلية للاستسلام للصليبيين تحت أى ظرف من الظروف ، وقد أنكر شمس الدولة هذا الطلب ، ثم حاول أن يؤجل التسليم إلى ما بعد المعركة ، ولم يكن الوقت ليسمح بمثل هذا الجدل والعدو على مقربة منهم ، فأنفذ كربوغا قائداً من قبله هو أحمد بن مروان فاحتلها ، وبذلك أصبح فى قدرة النجدة الموصلية أن تعيث فى نواحى أنطاكية كما تشاء .

حاول ريموند وبوهيمند إقامة العوائق فى سبيل النجدة فلم يفلحا ، وراح بوهيمند يذرع المدينة ومعسكراتها ليلا مفتشا عن الخونة الصليبيين الذين ينسلون فى غبش الظلام إلى الخارج يلتمسون الفرار من هذه المحنة القاسية والتجربة المريرة التى أنزلها بهم كربوغا بتجويعه إياهم «حتى أكلوا الميتات والدواب[1]». وظل كربوغا مقيما على مراقبة المسالك والمنافذ حتى لا يصل أحد ما إلى معسكر الصليبيين ، فلا عجب أن ضعفت نفوس الكثيرين منهم والتمس بعضهم النجاة فى الهرب ، موكلين بيفاع الأرض يشرفونها من شدة الخوف ، ومضى البعض إلى ألكسيس كومنين فى مدينة « أقشهر » حيث كان يعد العدة للزحف على أنطاكية ومحاربة المضيقين عليها من أصحاب كربوغا ، فلما رآهم تعجب لمقدمهم ولم يحسبه هرباً ، لاسيما وفيهم إتين دى بلوا[2] ، وهل كان حد الجبن

---

(١) منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٢ .

(٢) Riant: Inventaire des lettres historiques des Croisades, p. 171-178.

إلا الضن بالحياة والحرص على النجاة ؟ فرأوا تبرير مجيئهم بأن زعموا له أن المدينة سقطت فى يد عدوهم ، فصدقهم الإمبراطور وكف عن متابعة الزحف، وإذن فلا مجال للومه من جانب الصليبيين ، وإنما يوجه اللوم إلى الهاربين من جماعتهم وفيهم إتين ذاته ، وما كان للإمبراطور إلا أن يصدقه .

توالت الضربات على الصليبيين فى أنطاكية ولكنها لم تكن بالضربات المهلكة ، وما كان لهم إلا أن يتحملوها — أبوا أم قبلوا — وإلا أن يعدوها تجربة دخلوا فيها ، وأدركوا أنه إذا هانت عزائمهم وتلاشت قواهم أدى ذلك إلى هلكهم وإلى ما هو أشر من الهلك . غير أن لكل قدرة طاقة لا تستطيع أن تجاوزها ، ورأى الزعماء الصليبيون أن معنوية الجيش فى انهيار مستمر لا تجدى إزاءه صلابة بوهيمند واستعماله العنف والشدة مع الهاربين ، وأدركوا أن لا بد من حدوث معجزة .

كانت المعجزة هى الحربة المقدسة .

وتذهب الرواية الإسلامية(١) إلى أن المسلمين ضيقوا الخناق على الصليبيين حتى أكلوا ورق الشجر ، « وكان صنجيل عنده دهاء ومكر ، فرتب مع راهب حيلة وقال : إذهب فادفن هذه الحربة فى مكان كذا ، ثم قل للفرنج بعد ذلك رأيت المسيح فى منامى وهو يقول : فى المكان الفلانى حربة مدفونة فاطلبوها فإن وجدتموها فالظفر لكم ، وهى حربتى » . وتفصيل هذا الخبر أن أحد الحجاج واسمه بطرس بارتلمى زعم أنه رأى فى النوم القديس أندريه الذى أنبأه أن الحربة التى طعن بها المسيح مطمورة تحت كنيسة القديس بطرس(٢) فذاع الخبر فى أنحاء المعسكر ، ووجدت الحربة يوم ١٤ يونيو وقويت نفوس الصليبيين بعض الشىء ؛ ولاحظ ذلك الكتاب المسلمون فيقول أحدهم « والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا فى غاية الضعف من الجوع

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٧ — ١٤٨

(2) Raim. d'Agiles, p. 253 — 257 ; Chalandon : Histoire de la Premiére Croisade, p. 210—218.

وعدم القوت حتى إنهم أكلوا الميتة ، وكانت عساكر الإسلام فى غاية القوة والكثرة[1] » ، وأوفدو من قبلهم سفارة إلى كربوغا ، ويختلف المؤرخون حول حقيقة هذه السفارة ، فيزعم البعض أن الرسولين الفرنجيين بطرس الناسك وهولان المترجم عرضا على القائد المسلم أن يكون القتال على شكل مبارزة ، يختار فيها كل من الجانبين خير من عنده ؛ ويزعم البعض الآخر من المؤرخين أنهما أمراه برفع الحصار عن المدينة وخروجه منها سالماً فى نفسه ورجاله وسلاحه ومتاعه ، وربما كان الرأى الثانى أصح الرأيين لأنه بطبيعة الحال جاء عقب العثور على الحربة المقدسة وما أدت إليه من تقوية العزائم[2] . وكأن الحظ أراد أن يخدم المحتل فدبت الفرقة بين زعماء الجيش الإسلامى وانصرف أكثرهم تحت ظروف شتى ، منها محاولة رضوان فى تفريق الجماعة إذ ترادفت رسله إلى كربوغا ، فتوهم دقاق الشر من ذلك ، كما خاف جناح الدولة ، وجرت بين الأتراك والعرب منافرة ، أدت إلى انقسام فى الصفوف ، كما أن كربوغا أساء السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم « ظنا منه أنهم مقيمون معه على هذه الحال ، فأغضبهم ذلك ، وأضمروا فى أنفسهم الغدر إذا كان قتال ، وعزموا على إسلامه عند المصدر[3] » مما لم يخف على الصليبيين ، فرتبوا صفوفهم للقتال .

ما كاد فجر ٢٨ يونيو ١٠٩٨ يتنفس وتتبين العين ما أمامها حتى كان الصليبيون بقيادة بوهيمند أمام باب المحمرة ، وأعدوا كل ما استطاعوه من قوة ومن رباط الخيل ، ووقفوا صفوفا فى مقدمتها الفرنسيون والفلنكيون بقيادة هيج دى فرماندوا وروبرت كونت فلاندر ، يليهم اللوثارنجيون بقيادة جودفروى ، ثم نرمان نرمنديا بقيادة روبرت كونت هيوز ، فأهل بروفنسال

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٧ — ١٤٨

(٢) Raim. d' Agiles, p.270; Foucher, p.347–348.

(٣) راجع الكامل فى التاريخ ، ص ١٩٤ ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٢ — ٥٨٣ ، وأبو الفداء ، المختصر (طبعة R. H.Or. Cr.) ، ص ٤ .

بقيادة إديمار دى مونتل أسقف پوى ، والقول مختلف هنا حول حامل الحربة المقدسة أكان هو أديمار أم ريموند داجيل المؤرخ ؛ ثم كتيبة من نرمان إيطاليا بقيادة تنكريد و بوهيمند وفى هذه الكتيبة الأخيرة كان مؤرخنا المجهول بلا شك (١) . أما ريموند الصنجيلى فقد بقى فى المدينة حتى لا يدع الترك يخرجون ويطعنون القوات الصليبية من الخلف ، كل ذلك وكربوغا لم يحرك ساكناً ، بل إنه حال بين عسكره وبين الوثوب على الصليبيين حين خروجهم فرادى ، مؤثراً أن يلقاهم جمعاً رتيباً كأنما هو فى حفل فروسية ، وكان بعض الأمراء ممن حوله أشاروا عليه أن لا يمكن الإفرنج من الخروج بأجمعهم وأن يقتلوهم أولا فأولا فلم يلق إليهم (٢) سمعاً ، وبذلك أكثر الحز وأخطأ المفصل وهو الفارس المعلم ، لكن قد يعثر الجواد .

كرت القوات الصليبية على جيش كربوغا وتمكنت بهذا الترتيب المشار اليه أن تحدق به وأن تنضحه بنبالها وسدت المنافذ عليه من جميع النواحى ، فلما أطبق على المسلمين وبهُم عليهم الأمر وباتوا لا يدرون كيف الخلاص من هذه الهجمات التى تنوشهم من كل جانب ، لم يروا غير إضرام النار فى الحقول لصد العدو فلم يجدهم ذلك نفعا، فلما رأوا أنفسهم عاجزين حيالهم لاذ كبارهم بالهرب وفعل كربوغا نفسه مثل فعلهم (٣) ، وأبدى الصليبيون وحشية عنيفة بشهادة فوشيه (٤) المؤرخ ، فلم يرحموا ضعف النساء بل قتلوا من عثروا عليهن ، فلما رأى أحمد بن مروان ماحل بأصحابه لم يجد من الاستلام وطلب الأمان بدا ، فأجيب إلى ماطلب وأبقى على حياته وحياة من معه بفضل الكونت تولوز

---

(١) Grousset : Hist. des Groisades, t. I, p. 105, Chalandon : La Première Croisade p. 221، على اختلاف فيما بينهما حول ترتيب الجماعات وقادتها ، ولكننى أوثر الترتيب الذى ذكره الأستاذ جروسيه .

(٢) منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ص ١٩٥

(٣) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ص ١٩٥

(٤) Foucher, p. 349.

الذى أعطاه رايته إيذانا منه بذلك ، مما كاد أن يؤدى إلى فتنة طخياء بين صفوف الصليبيين ، ذلك لأن كلا منه هو وبوهيمند كان يرى لنفسه التقدمة فى امتلاك البلد بفضل المجهود الذى بذله فى الفتح ، ولا يخفى ما فى إعطاء راية كونت تولوز لابن مروان من معنى « الحماية » والجوار ، ولا يكون الجوار إلا للقوى يبذله للضعيف . ثم إن فى هذا الجوار معنى آخر هو اطمئنان ابن مروان والمسلمين لبأس الكونت ، مما يتضمن الاعتراف الصريح بعلو شأنه وسيطرته على بقية القوات الصليبية ، ولا مشاحة فى أن ذلك العمل منه يغضب منافسه فى الزعامة بوهيمند الذى حمله غضبه منه على أن يتقدم وينزع علم ريموند وينصب علمه هو ، وإن احتل القلعة رجال ريموند وبوهيمند وجودفروى وروبرت كونت فلاندر(١) ، ورضى أحمد بن مروان بما قرره الزعيم النرمانى، ويقول مؤرخنا المجهول إن ابن مروان تنصر وتعمد ، على حين أن الحوليات الإسلامية لا تشير إلى تنصره بل تذكر أنهم أنزلوه دارا بأنطاكية وأطلقوا أصحابه ، وسيروا معهم من يوصلهم إلى حلب(٢) .

ولقد عزا الصليبيون — أو جماعة منهم — هذا النصر إلى قدرة فوق طاقة البشر ، ولج بهم الزعم إلى حد القول بأن القديسَين جورج وديمترى ساهما بنفسيهما فى القتال ، حيث أبصر البعض كتيبة تنزل من السماء عليها هالات قدسية من النور تقدمت الصفوف وتسلقت السلالم والأسوار ورمت فأصمت ، وهذا تعليل يدل على مدى العقلية التى كانت تسيطر على القوم حينذاك ، أما المؤرخون المسلمون فكانوا أدق وأحكم من أمثالهم الغربيين فهم ينسبون هزيمة كربوغا إلى سوء معاملته لجماعته .

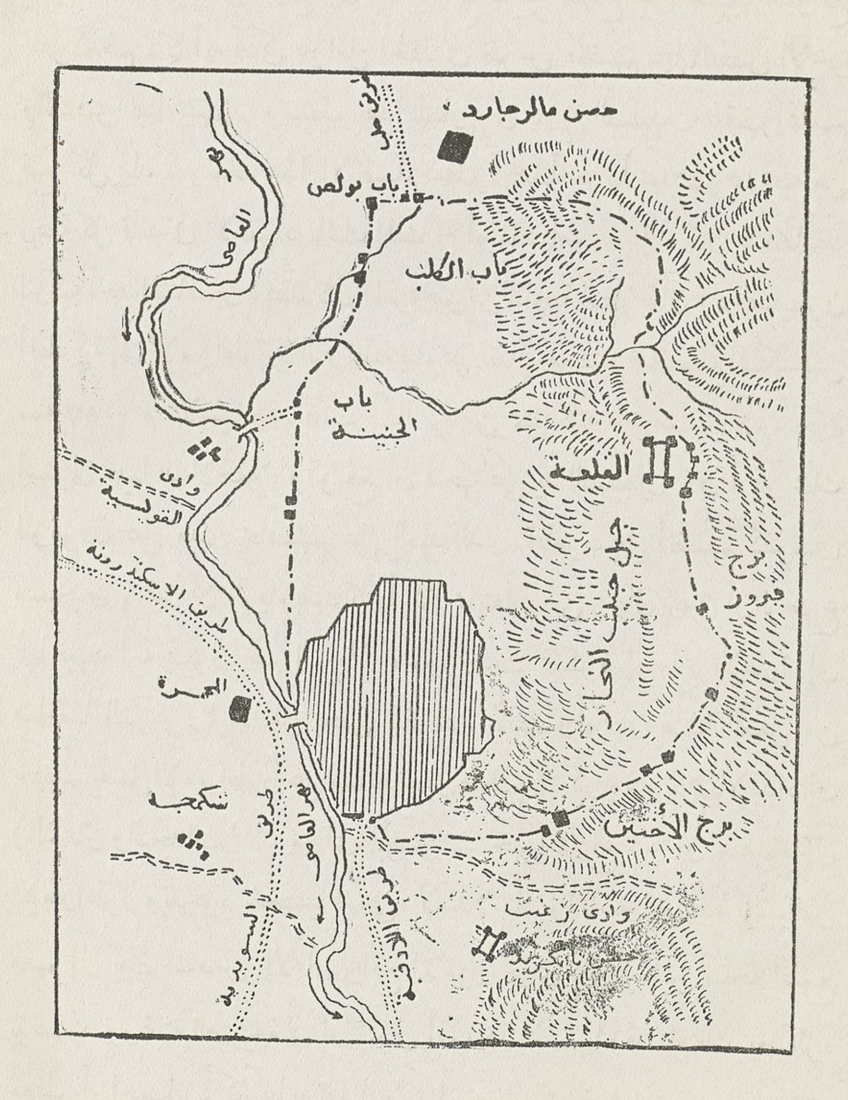
٭ ٭ ٭

خاص الصليبيون من الخطر الإسلامى وتأتت لهم هزيمة جميع القوات التى قدمت لضربهم ومضايقتهم ، وعدوا هذا النصر براعة استهلال فى

---

(١) Raim. d'Agiles, p. 261—262.

(٢) ابن العديم ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٢



خريطة تخطيطية لأنطاكية زمن الصليبيين ١٠٩٨ م

الاستبشار بتيسير الأمور فى البداية ، وأدركوا إلى جانب هذا أن العساكر الإسلامية لن تستطيع لهم دفعاً أو عليهم تغلباً ، على أن فتح أنطاكية يعتبر بداية عهد جديد من النزاع بين القادة كشف فيه القناع عن حقيقة الدوافع المحركة لهم ، كما أنه أذكى عوامل الحقد فى نفوس بعضهم على البعض الآخر والتنافس فيما بينهم ، وسيظهر هذا التنازع فى تاريخ الصليبيين عقب إتمامهم فتح كل بلد ، ويتخذ هذا الانقسام مظهراً عملياً حربياً يحدّث عما تحته من رغبة كل قائد فى الانفراد بالبلد المفتوح أو انضمامه — إن كان ضعيفا — لتزكية أحد المتنافسين ، فقد كان المفروض من الناحية النظرية أن يرد الصليبيون أنطاكية إلى الإمبراطورية البيزنطية بناء على اتفاقية معظم زعمائهم مع ألكسيس سنة ١٠٩٧ م ، لاسيما وقد كانت أنطاكية من ممتلكاته حتى سنة ١٠٨٥ حين استولى عليها السلاجقة ، والواقع أن فتحها على يد الصليبيين كان أكبر محك للوقوف على مدى محافظتهم على العهد الذى قطعوه على أنفسهم كفرسان مسيحيين « غير أن الوفاء بعهد كان أكثر مما يتطلب من رجال يرون أن الرجوع عما تعهدوا به يسوق لهم التاج[1] » ، ووجدت فكرة إرجاع الإمارة إلى صاحبها الشرعى تأييدا من بعض القواد ، لأنهم رأوا أن هذا العمل من جانبهم يحمل الإمبراطور على مساعدتهم فى هدفهم الأكبر وتزويدهم بالإمدادات والذخائر والنجدات[2] . ورأى البعض — حسما للنزاع — أن يذهبوا إلى الإمبراطور ويدعوه شخصيا للمجىء لاستلامها ، والاشتراط عليه بالنهوض معهم إلى بيت المقدس إلا أن واقع الأمور جرى على العكس نتيجة لطمع بوهيمند ورغبته الصريحة فى أن يتولى أمورها لاسيما وقد امتلك بعسكره معظم أبراجها وأكثرها ارتفاعا ، كما استعمل الشدة فى تجريد القلعة من

---

(1) Chalandon : La Première Croisade, p. 227.
(2) Albert d'Aix, p. 434.

رجال ريموند وكونت فلاندر ، وأحل جنده مكانهم ورفع علمه الخاص ، مما أغضب ريموند الصنجيلي(١).

ولقد كتبوا حينذاك رسالة إلى البابا إربان الثانى ينبئونه فيها بما تم لهم من الفتح فى الشام(٢) ، وينعون إليه نائبه أديمار دى(٣) مونتل ، ويدعونه للقدوم لتولى الحملة فى ذهابها إلى بيت المقدس(٤) ، وقد جاء فيها قولهم «والآن فإننا — نحن أبناءك الذين يتمنا موت هذا [الأب أديمار] وحرمنا من الأب الذى وكلته بنا — نلوذ بك يا أبانا الروحى ، أنت الذى افتتحت الحملة ... ولقد استجبنا لكلمتك فغادرنا بلادنا وخلفنا وراءنا جميع مانملك فى سبيل حمل الصليب واتباع المسيح والعمل على تمجيد كلمة النصرانية ، كما أننا أنجزنا كل ماعينته لنا ، فانهض الآن للانضمام إلينا بكل النجدات التى تستطيع جمعها ...» على كل حال لم تعد الفرقة فى الرأى بين الزعماء الصليبيين بخافية على أحد من الحجاج المحاربين وانصرفوا — مؤقتا — عن فكرة الزحف على بيت المقدس ، واتخذ هذا الانصراف مظهر تأجيل الرحيل إليها بضعة أشهر حتى تخف حرارة الصيف ولايتعرض «جند المسيح» للظمأ الشديد ، لكن الواقع هو أن الصليبيين — أو بمعنى أدق زعماءهم — عز عليهم أن يرحلوا عن أنطاكية ويتركوها غنيمة لبوهيمند ، كما أن جودفروى طمع فى أن يتولى باسم أخيه بلدوين أمير الرها بعض المدن التى تم لبلدوين فتحها مثل تل باشر(٥) وراوندان ، وأما غيره فقد طمع فى أن تتيسر له الأمور بفتح إحدى المدن أو القلاع الإسلامية الكثيرة الموجودة فى المنطقة الشمالية من سورية ، فينعم هذا الغير — بعد ذلك الجهد المرير — بخيرات الشرق ، وإذن فليس عجيبا أن يتأخر قيام الحملة تسعة أشهر ولكن العجيب هو قيامها وتغلبها على تلك

(1) Albert d'Aix, p. 434; Raim. d'Agiles, p. 261—62, G. T., t. I, 274.
(2) Leib : Rome, kiev et Byzance, p. 221.
(3) Leib : op. cit. p. 268—269.
(4) Leib : op. cit. p. 269.
(٥) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠٢

العوامل الفردية والمطامع الشخصية ، على أن الصليبيين لم يبقوا طوال هذه المدة ساكنين ، بل أخذوا فى الإغارة على المناطق الشمالية من سورية وإحلال النفوذ الصليبى محل النفوذ الإسلامى دون الاحتكاك بالبيزنطيين . وانطوت هذه الخطة على براعة فائقة فى تثبيت القوة الصليبية بتلك النواحى وإقامة سد منها فى وجه القوات الإسلامية والبيزنطية على السواء إذا فكرت فى مهاجمة أنطاكية أوغيرها من الإمارات التى قد يفتحها الصليبيون فى المستقبل القريب أو البعيد ، كما أنها جعلت الترابط بين الإمارات اللاتينية ميسرا ، تستطيع إحداها أن تنجد الأخرى على جناح السرعة إذا جد الجد وتعقدت الأمور ، كما أنها أوجدت مجالا حياً لنشاط الفرسان والأدواق والكونتات الصليبيين ، فخرج فى يوليو ١٠٩٨ قائد من أتباع ريموند الصنجيلى فى جماعة من الفرسان قاصدا تل منّس[١] ، وتمكن بمعاونة أرمنها وسريانها من التغلب عليها ، وأسكرته نشوة النصر وحملته على متابعة الفتح ، متشجعا بضعف الجماعات الإسلامية فى تلك النواحى ، وعدم قيامها بأية حركة معارضة له ، لذلك قصد معرة النعمان [٢] فصدته عنها قوات رضوان أمير حلب [٣] .

كما تلقى جودفروى فى أغسطس ١٠٩٨ م دعوة[٤] من أخيه الكونت بلدوين يوليه فيها أمر تل باشر وراوندان ، فرحب بهذه الدعوة لعاملين أولهما الرغبة فى تولى أمر إحدى البلدان ، وثانيهما هربا من الطاعون الذى اجتاح إذ ذاك أنطاكية وهلك به الكثيرون . وفى هذا الوقت بالذات كتب الصليبيون إلى البابا ينبئونه بسقوط أنطاكية ، ويعلق شالاندون[٥] على هذا بقوله « إنه من العجيب أن ينتظر الصليبيون هذا المدى الطويل فى إنباء البابا بسقوطها ، وربما كانت منازعاتهم هى السبب فى ذلك التأجيل ،

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٩٦ .

(٣) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٤ ، والدائرة مادة « معرة النعمان » .

(4) Raim.d' Agiles, p. 262.

(5) Chalandon : La première croisade, p. 235.

وعلى كل حال فإن اقتراحهم على البابا بانتظارهم إياه للزحف على بيت المقدس يدع مجالا للقول بأنهم قرروا ألا يرحلوا ، بل أن يقوموا باحتلال النواحى المحيطة لهم، وعلى هذا الأساس فى تفسير الدواعى المستترة وراء دعوة الصليبيين للبابا يمكننا أن نفسر عودة جودفروى أولا ثم التقاوه بريموند الصنجيلى ثانيا، ومساهمتهما فى مشروع إن دل على شىء فإنما يدل على أن القوة الصليبية فى بلاد الشام أصبحت من القـوة بالدرجة التى يرتجى بعض الأمراء المسلمين عطفها وتأييدها لهم فى مشروعاتهم ، وفى استعانة بعضهم بها ضد البعض الآخر، وذلك أن رضواناً أخذ فى محاصرة «عزاز»[١] من أعمال حلب والتضييق على أميرها بالنقوب والحروب ، مما اضطره إلى الالتجاء إلى جودفروى دى بويون والاستغاثة به ضد رضوان ، مقدما إزاء ذلك الاعتراف بتبعيته للصليبيين ، ومظهر هـذه التبعية هو تأديته الجزية لهم ، وطبيعى أن يرحب الدوق بهذه الدعوة وأن يستجيب لتلك الاستغاثة لما تنطوى عليه من الاعتراف الصريح بخطورة شأن الصليبيين فى بلاد الشام ، وما ترمز إليه من تفكك القوى الإسلامية وهو ما يهدف إليه الصليبيون ، ثم إنها فوق ذلك كله تتيح لهم الفتح على حساب المسلمين دون أن تدع مجالا لتدخل ما من جانب البيزنطيين .

عرض جودفروى على كونت تولوز أن ينهض معه لتأييد عمر أمير عزاز فلم يتوان الكونت عن النهوض فى سبتمبر ١٠٩٨م (٤٩٢هـ) ، وساعدهما بلدوين أمير الرها بإنفاذ قوة ضخمة تبلغ ثلاثة آلاف فارس ، فلما ترامى الخبر إلى سمع رضوان أيقن ألا قبل له بالوقوف أمام هذه القوات الفتية ، وخاف أن تدور الدائرة عليه إذا التحم المصافان ، فبادر برفع الحصار عن عزاز والانفلات إلى حلب ، وأدى «عمر» ما تعهد به لجودفروى[٢]. وبذلك أصبح تابعا إقطاعيا له .

---

(١) ياقوت معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ١٦٨ .

(٢) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٦ ; Albert d'Aix, p 435-439

G. T., (R. H. occ. Cr.), t. I, p.283.

الفصل الثالث

الصليبيون فى بيت المقدس

بيزنطة وفتح بيت المقدس . مقاومة معرة النعمان للصليبيين . مطامع الأمراء الشخصية .
كونت صنجيل قائد الحملة . موقف البلدان الإسلامية الشامية . ابن عمار فى طرابلس .
عرقة . الزحف على القدس . وحشية الصليبيين . وقع سقوط المدينة على
المسلمين . النجدة المصرية تأتى متأخرة . النزاع بين الأمراء الصليبيين
الدين أم الدولة ؟ اختيار جود فروى ملكا . جودفرى
حامى الضريح المقدس . مغزى اختياره . انتخاب
بطرك لاتينى للمدينة . الروح الاقطاعية .
الفرسان الاسبتارية والداوية .

لقد رأينا كيف نهضت جماعة من الصليبيين إلى الإمبراطور ، عارضين عليه القدوم إلى أنطاكية وتسلمها منهم بعد استردادهم إياها من ياغى سيان وقضائهم على قواته وقوات النجدة التى جاءت لمعاونته ، غير أن الإمبراطورية البيزنطية أضاعت فرصة طيبة من يدها حين تأخرت عن قبول فكرة المشاركة فى الحملة الذاهبة لاستعادة الأماكن المقدسة ، ثم تحركت من سباتها بعد هذه المدة الطويلة من الانتظار المسئم معلنة اعتزامها الاشتراك معهم فى شهر يولية ١٠٩٩ م ، ولا يعرف السر فى هذا التأجيل إلا ما يمكن أن يقال من أن الإمبراطور أراد أن يسير إلى النهاية فى اتفاقيته السرية مع الفاطميين بمصر (١) . غير أنه يحق لنا أن نتساءل عن العلة التى حركت الإمبراطورية بعد هذا السبات العميق ، والأرجح عندنا أنها نظرت بعين الخوف إلى توسع الصليبيين فى الفتح فى نواحى سورية الشمالية ومتاخمتهم لحدودها ، ورأت الخير كل الخير فى أن يكونوا بعيدين عنها . وسواء أكانت الإمبراطورية البيزنطية صادقة فى عزمها على المساهمة فى الزحف على بيت

---

(1) Chalandon : Essai sur le règne d'Alexis Comnène, p. 206; Grousset : Hist. des Croisades, t. I, p. 137—140.

المقدس أم غير صادقة ، فالثابت الذى لا يرقى إليه الشك هو أن الصليبيين كانوا يدركون تمام الإدراك أن النهوض إليها أمر لابد منه أن آجلا أو عاجلا ، وهو أمر تدعوهم إليه عوامل شتى ، أهمها ضيق أنطاكية عن أن تسع نواحى النشاط الصليبية المختلفة ، فقد وسعت كثيرا من أمرائهم ، ومنهم من يطمع فى تأسيس إمارة يستقل بها فى الشرق ، ومعنى بقائهم فى بقعة واحـــدة هو تحرك العصبيات الإقليمية وتقديم المصالح الشخصية واحتـكاكها بعضها ببعض ، مما يؤدى بطبيعة الحال فى النهاية إلى مقاتلة بعضهم البعض الآخر ، كما أدركوا أن طول لبثهم فى بلاد الشام منذ خروجهم من أوربة سنة ١٠٩٥ أضعف الحدة الدينية عند الـكثيرين منهم ، وتجلى للعيان أن العامل الدينى تخلى عن مكانه للصالح الفردى وللمطامع الذاتية عند الأمراء ، ولم يعد خافيا عليهم أن توسعهم فى الجنوب ومايقدر لهم من الانتصار على القوات الإسلامية الضعيفة سيؤدى حتما إلى شد عزائم المتقاتلين ، ويفتح لهم مجالا جديداً للحياة ، سواء فى التجارة أم السياسة . لـكن لم يأخذ بهذه الفـكرة كثير من الزعماء .

قر رأى بوهيمند على أن تنهض الحملة إلى بيت المقدس ، واختلفت الآراء فى بادىء الأمر حول هذا الموضوع (١) ، ذلك أن أكثر الزعماء لم يؤيدوا قلبياً فـكرة النهوض إلى بيت المقدس لأن معنى هذا تخلى الأكثرية عما بيدها من أنطاكية وحصون النواحى القريبة منها التى تهيأ لهم فتحها وانتزاعها من أيدى أصحابها المسلمين ، عربا كانوا أم سلاجقة ، أما تحمس ريموند للزحف على القدس بعد قدوم الإمبراطور فراجع إلى اعتناقه الفـكرة القائلة بوجوب رد أنطاكية لصاحبها الشرعى ألـكسيس كومنين (٢) . ومهما يـكن الأمر فقد استقر الرأى أخيرا على وجوب الزحف ، وتناسى الزعماء أحقادهم

---

(1) Rob. Mon., p. 843—844.
(2) Chalandon : Hist. de la Première Croisade, p. 239.

الشخصية ، لكن ما كادت الحملة تسير فى طريقها حتى انحدرت جماعة كونت تولوز بقيادته إلى معرة النعمان[1] يوم ٢٧ نوفمبر ١٦٩٨ .(١٤ محرم ٤٩٢ ﻫ) فوجد من أهلها مقاومة لم يكن يتوقعها أبداً ، وظلوا على مقاومتهم مؤملين عبثا وصول النجدة من رضوان أمير حلب ومن جناح الدولة أمير حمص ، لكن جرت الأحداث بغير ما اشتهت الأنفس ، فوصلت نجدة صليبية بقيادة بوهيمند لمعاونة ريموند ، فضاعف أهل المعرة مقاومتهم ، وأنكروا على العدو محاولته الفاشلة التى أدت الى مجاعة فى صفوفه ، وضيق استولى على على رجاله ، فعمد كونت تولوز إلى بناء برج أعلى من أبراج البلد وأسنده إلى سورها تدفعه الكباش [2] ، وأخذ يرمى المقاتلين بالنار والأحجار فكشفهم عنه ، واضطر فريق من الأهالى لطلب الأمان فأجيبوا إليه ، لكن الصليبيين — لاسيما بوهيمند — مالبثوا أن نكثوا بعهدهم لهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ورفعوا الصلبان فوق البلد ، وقطعوا على اهل البلد القطائع ، ولم يفوا بشىء مما قرروه [3] .

أدى هذا الفتح إلى تجدد النزاع بين الزعيمين الصليبيين[4] حول اقتسام الأسلاب والغنائم أولا ، وحول سوق الزعامة الدينية إلى بيير النربونى ثانيا ، فقد أصر ريموند أن يكون بطرك المدينة هو بيير ، فلم يُرضِ ذلك بوهيمند لما رآه من تمكن البروفنساليين من جميع نواحى البلد من وجهة النظر الدينية ، كما قدر أن ذلك الاختيار بالذات يجعل ريموند صاحب اليد العليا ، ويحمل رجال الدين والمتشيعين له على الوقوف فى صفه .

بهذا النزاع فضح بوهيمند نفسه فى أعين الصليبيين ، ووضح لهم أنه لم يكن مخلصا فى حمله الصليب بل محمولا عليه بأطماعه الخاصة ، وتجلى لهم أنه

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٩٦ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ؛ ابن العديم ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٦ — ٥٨٧ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ص ٥١٩ — ٥٢٠ .

(3) Raim. d'Agiles p. 268—271 ; Hagenmeyer : Chronologie de la première croisade, No. 316.

(4) Raim. d'Agiles, p. 270.

يستوى عنده أن يكون تابعا لبيزنطة أو مستقلا ما دام هو فى كلتا الحالتين أميرا على ما يريد ويشتهى ، وأدرك عامة الفرنجة وفقراؤهم أنهم يبذلون أرواحهم ويهرقون دماءهم لغرض فى نفس بوهيمند ، وتحقيق مآربه دون رعاية منه للصالح الصليبى العام ، أوللفكرة الدينية التى حركت الجمهور الأكبر منهم ودفعتهم على الدخول فى تجربة قاسية فى سبيل نصر المسيحية ورفعة الصليب فى بلدان ساحل الليفانت ، فلا جرم إذا انصرفوا عن بوهيمند إلى ريمند الصنجيلى وولوه قيادتهم فى زحفهم على بيت المقدس ، لاسيما وأنه دلّ منذ مقدمه على صلابته وكان أحد اثنين رفضا أن يقسما يمين الولاء للإمبراطور، وطبيعى أن يصادف هذا العرض هوى فى نفس ريموند ، وتعهد بالنهوض معهم فى مستهل ١٠٩٩م ، ثم أخذ فى الاستعداد لهذه المهمة الجسيمة ، وطلب من الزعماء الالتقاء به فى الروج فلبوا جميعا الطلب ، وتعهد لهم بأن تكون نفقات سفرهم على حسابه الخاص ، وقدم بوهيمند فأعلن استعداده للمساهمة فى الحملة إذا تخلى له ريموند عما بيده من الأبراج فى أنطاكية فرفض الكونت شرطه ، وخرج ريموند من معرّة النعمان يوم ١٣ يناير ١٠٩٩م (١٧ صفر ٤٩٢ ﻫ) حافى القدمين ، متحملا آلام الطريق ، متمثلا بالمسيح ؛ ومن العجيب المدهش أن ينصرف جميع الزعماء الصليبيين عنه يوم خروجه ، وانقلب كل إلى ناحية من النواحى التى تم لهم فتحها ، فزاد ذلك الانصراف من قدره فى أعين الحجاج والمحاربين ، وكانت تلك أجل خدمة قدمها إليه منافسوه ، دون أن يدركوا ما تنطوى عليه من النفع له ، والإنقاص من قدرهم لدى عسكرهم .

بيت المقدس !!

ليس أحب إلى المسيحى من هذا الاسم ، فهو يحمل إليه صوراً من ماض بعيد بسنواته ، ولكنه حى بذكرياته ، وهو يمثل له البقعة الطاهرة التى درج بها المسيح ، وكرز فى نواحيها ، ولقى أشتاتا من العذاب الجم من

أجل هداية خرافها الضالة ، وكان طعامه أن يعمل مشيئة الذى أرسله . أليست الحياة الأبدية — كما فى الإنجيل — لمن يسمع كلامه ويؤمن بمن أرسله ولا يأتى مثل هذا قط إلى دينونة ، بل ينتقل من الموت إلى الحياة ؟ وأى شرف أجل فى نظر النصرانى من أن يعفر وجهه فى تراب تلك النواحى المجيدة !

خرج ريموند بهذه القوات المؤمنة قاصدين أقدس بقعة عندهم ، ومرّوا فى طريقهم على بلدان وإمارات عربية خالصة مثل كفرطاب وشيزر ، فلم يجدوا منها إلا المبادرة إلى الخضوع والاعتراف بتبعيتها لهم ، أو على الأقل موادعتهم وتأمين سبيلهم وهم سائرون إلى الأماكن المقدسة ، وتزويدهم داخل بلادها بما يحتاجون إليه ، وكان أول من قدم هذه العروض «سلطان» أمير شيزر ، طمعا منه فى أن تحملهم سياسته اللينة على الابتعاد عن أرضه ، فلم يراعوا ذلك بل ضربوا خيامهم على أبواب البلد مما أثار حنق سلطان ، وحمله على تهديدهم بقطع الذخيرة عنهم ، وإن كان فى الوقت ذاته قد أرسل رسولين من قبله ليدلاهم على مخاضة نهر العاصى إلى وادى سروج حيث يجدون المرعى الخصيب لجيادهم فلم يعارض الصليبيون ، وما كان لهم أن يعارضوا حتى لا يحملوا بقية البلدان أو بمعنى أدق — الأمراء المسلمين — على النظر لهم بعين السخط ومصارحتهم به ، وتجنبا لما يؤدى ذلك إليه من مضايقتهم ، لا سيما والطريق طويل ، والرحلة شاقة .

يمم الصليبيون حينذاك شطر «جبلة»[1] ودل مسلكهم هذا على أنهم يريدون أن يتوجهوا إلى بيت المقدس عبر الشاطىء فيمرون إذ ذاك على طرطوس فطرابلس فبيروت فصيدا فعكا ، الأمر الذى لم يَرُق فى عين تنكريد لتناقص عدد الصليبيين ، وما يستدعيه هذا الطريق من محاربة البلدان المختلفة ، مما هم فى غنى عنه الآن ، وكان الحق فيما ذهب إليه تنكريد ، لأنهم فى مسيس الحاجة إلى البقية الباقية من رجالهم . واتجهوا عقب هذا مباشرة إلى

(١) ياقوت معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٣ .

« مصياف »[١] فخرج إليهم أميرها يوم ٢٢ يناير ١٠٩٩ م وعقد موادعة مع ريموند الصنجيلي ، رحل الصليبيون بمقتضاها إلى « بعرين »[٢] فرفنية[٣] ، فلم يجدوا مقاومة لأن أهلها رحلوا عنها ، وأصاب الفرنجة ذخيرة وافية فأقاموا حيثهم ثلاثة أيام ، نزلوا بعدها على البقيعة ، فلما علم سكانها وكلهم من العرب والبدو — بنزولهم استبد بهم الخوف ، وانطلقوا يلتمسون النجاة هرباً بما خف حمله وغلى ثمنه ، والتجأوا إلى أسوار « حصن الأكراد » فتعقبهم المهاجمون وشددوا الحصار عليه حتى سقط فى أيديهم ، وفى اليوم التالى أقاموا احتفالا بعيد ذكرى دخول المسيح إلى الهيكل ، كما وفدت عليهم رسل من قبل جناح الدولة صاحب حمص ، تحمل إليهم الهدايا وتؤكد الموادعة والاتفاق . كما توالت عليهم وفود النواحى المجاورة مستأمنة قاطعة لهم العهود بالمحافظة على سلامة الحجاج ، وأخذ الصليبيون بعد ذلك فى التقدم شطر طرابلس ومتولى أمرها يومذاك أبو على فخر الملوك بن عمار ، فلما ترامى إليه نبأ مسير القوم أدرك الخطر المهدد لإمارته ، ورأى سلامته وسلامتها فى مصانعتهم ومداراتهم[٤] ، لاسيما وهو يدرك أن السلاجقة أضعف من أن ينهضوا لنجدته . وقبل ريموند ماعرضه عليه ابن عمار وأرسل إليه سفارة صليبية عادت فأخبرته بغنى الأمير المسلم ، فشدد كونت تولوز الحصار على بعض المدن الطرابلسية وعاونته أمداد بحرية من سفن البنادقة[٥] .

حينذاك لم يجد المسئولون غير الإرجاف بشائعة كاذبة استهدفوا من ورائها إلى بث الخوف فى نفوس الصليبيين ليرفعوا حصارهم عن « عرقة » ، فزعموا أن خليفة بغداد والسلطان بركياروق قد أعلنا « الجهاد » دفعاً للمغيرين وأنهما غادراها على رأس جيش لجب قاصدين طرابلس ، وصدق ريموند

---

(١) أو مصياب ، أنظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٧٩ .
(٢) ذكر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ، أن صحتها « بارين » .
(٣) ياقوت : شرحه ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ .
(4) Raim. d' Agiles, p. 275.
(5) Raim. d'Agiles, p. 276.

هذه الشائعة فطلب من جودفروى وكونت فلاندر القدوم عليه وضم قواتهما إليه ليكونوا جميعا يدا واحدة ازاء الخطر الجديد ، وللمبادرة للاستيلاء على عرقة (١) ، لكن سرعان ماتبين القوم كذب هذا الادعاء (٢) .

أما حقيقة هذه الشائعة التى ظنها جودفروى خديعة من ريموند حتى يدفعه لرفع الحصار عن جبيل (٣) فتتلخص فى ماذكره ابن القلانسى (٤)، من أن صاحب عرقة أنفذ سنة ٥٠٢ هـ رسوله إلى ظهير الدين أتابك يلتمس منه المعونة على دفع الإفرنج عنها وإنفاذ من يتسلمها « فندب بعض ثقاته فتسلمها وأقام واليا بها منتظرا وصول العسكر إليهـــا والوفاء بما وعد به من الخلع والإحسان إليه ، وحدث فى الوقت من الثلوج والأمطار ماعاق المسير إليها ، وقلّ القوت بها وانقطعت الميرة عنها ، فبادر الإفرنج بالنزول عليها ، وتوجه ظهير الدين عندذاك إليها فصادفهم قد أحاطوا بها ولم يتمكن من دفعهم عنها . وعاد إلى حصن « الأكمة » ونزل عليه وقاتله ، فلما عرف الإفرنج ذلك نهضوا إليه فى تقدير ثلثمائة فارس لإنجاد من بالأكمة فوصلوا إليهم ليلا فقويت نفوسهم ، واقتضى رأى أتابك الرحيل عنها بحكم من صار فيها منهم فرحل كالمنهزم وطمع فيه . . وعاد الإفرنج إلى عرقة وعدم القوت فيها فملكوها بالأمان »

لم يكن جودفروى بالحريص على معاونة ريموند الصنجيلى فى تشديد الحصار على « عرقة » لذلك أصر على وجوب النهوض حالا إلى أورشليم . أما ريموند فكان غير حريص على المضى لما يريده جودفروى . وشجب الخلاف فى الرأى بين الزعيمين كل يدافع عن وجهة نظره ويؤيدها بما يتفق — فى زعمه — والصالح العام ، وكانت حجة ريموند أن القضاء على إمارة طرابلس يجعل القوات الصليبية آمنة من ضربة تأتيها من الخلف إن هى

(1) Rob. Mon., p. 853, Foucher, p. 352.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ص ٢٠٥، Raim. d'Agiles, p. 277; Alb. d'Aix, p 453

(3) Chalandon : Essai sur le règne d'Alexis comnéne, p. 258.

(٤) ابن القلانسى ، الذيل ، ص ١٦٢ ، Rob. Mon., p. 853

تقدمت إلى الجنوب ، وكاد الخلاف بينهما يؤدى إلى افتراق الكلمة ، لولا أن شغلوا حينذاك بأمر سفارة وفدت من قبل الإمبراطور ألكسيس كومنين تحمل إليهم رسالة مؤداها « إن جميع البارونات كانو قد أقسموا بالأناجيل المقدسة برد كافة المدن والقلاع التى كانت من قبل تابعة للإمبراطورية القسطنطينية بمجرد استيلائهم عليها هى وبقية الأراضى التى تمتد حتى بيت المقدس (١) » والواقع أن الإمبراطور لم يكن بالمتعسف فى طلبه هذا ، وإنما هو التفسير العملى لاتفاقية ١٠٩٧ التى تعهدوا له فيها بشرفهم — كفرسان مسيحيين — بإرجاع كل ما كان ملكا للإمبراطورية . ولدينا رسالتان متبادلتان بينه وبين بوهيمند بصدد هذه المشكلة ، فقد جاء فى رسالة الإمبراطور إلى دوق تارنت قوله « إنك تدرى أنك وبقية الكونتات الإفرنج قد قطعتم يمين الولاء والإخلاص لى ، وأنت الآن يا بوهيمند أول من تنقضه باستيلائك على أنطاكية واللاذقية وغيرهما من المدن الإمبراطورية ، فاخرج حالا من هذه المدن إذا كنت راغبا عن إثارة حرب جديدة » فأجابه بوهيمند « إن الفرنجة لم ينقضوا عهدهم إلا لأن ألكسيس نفسه قد أخلف عهوده معهم . ألم يقسم بمصاحبة اللاتين فى الحرب ومشاركتهم الخطر ؟ لقد صادف المسيحيون العذاب فى حصار أنطاكية دون أن ينهض الإمبراطور لمساعدتهم » .

بهذه اللهجة العنيفة كان كل من الإمبراطور وأمير تارنت يكاتب الآخر ويغلظ له فى القول ، ورفع كل منهما القناع وجاهر الآخر بالعداء ، وأظهر ما كان مطويا فى دخيلة نفسه ، وعُرف أن كلا منهما كان مماذقاً فى صداقته لصاحبه مما دعى ريموند إلى القول بوجوب انتظار مقدم ألكسيس ومصاحبته فى الزحف على الأماكن المقدسة ، وبذلك انتقل كونت تولوز من موقف المعارض لرغبات الإمبراطورية إلى المؤيد لأطماعها ، ولعله رأى فى ذلك وسيلة لتحقيق إربته من حيث استماله على إمارة طرابلس ، ولم يخف

---

(1) Raim. d'Agiles., p 286. Cf aussi G. T., p. 307.

ذلك على جودفروى الذى مانع فى التريث ، متهماً الإمبراطور بخلف الوعد وعدم رعاية مصالح المحاربين ، واشتد الجدل بين الزعيمين الأوربيين شدة رنّ صداها فى المعسكر الصليبى بأجمعه ، وتناقله الجند ، واستحال الهمس إلى جلبة ، وراحوا يتناقشون فيما بينهم « مَنْ مِن الفارسين المخطىء ومن منهما المصيب ؟ » . واستعادوا فى ذاكرتهم موقف بوهيمند أمس من ريموند فإذا به يتكرر اليوم ، ولكن بين ريموند وجودفروى .

وحاول بيير بارتلمى — صاحب معجزة الحربة المقدسة — أن يحمل الصليبيين على الوقوف إلى جانب صاحبه ريموند بوجوب الهجوم على عرقة مدعياً أنه أوحى إليه ذلك فى نومه فلم يفلح فيما حاوله لوقوف أحدهم ضده ، ورميه إياه بالكذب ، وتشكك البعض فى قصة الحربة المقدسة وعدها خديعة منه فحاجّهم بيير أن يمر بالنار فإن سلم كان بهــا وإلا فلا داعى للتريث فى طرابلس ، واضطر بيير لقبول هذه المباهلة لكنه لم يلبث أن مات بعد بضعة أيام[1] (يوم ٢٠ أبريل ١٠٩٩) ، وطبيعى أن يؤدى موته فى مثل ذلك الوقت وبين مثل تلك الجماعة إلى انتصار فريق جودفروى وهو الفريق الأكبر ، ولم يكن ثم بد لريموند من الخضوع لرأى الأغلبية مخافة أن ينفض من حوله الكثيرون ، لاسيما وقد أبصر تنكريد ينحاز إلى جانب جودفروى ، فاضطر كونت تولوز إزاء هذا الإجماع لرفع الحصار عن عرقة يوم ١٣ مايو عام ١٠٩٩ بين دموعه وآلامه أو على حد قول مؤرخه[2] «Conturbabatur comes usque ad lacrymas et usque ad sui atque suorum odium » وضاعت آمال ريموند واضطره موقف جودفروى للتخلى مؤقتاً عن إمارة كانت قطوفها دانية له ، وإذا كانت آفاق تلك الحادثة المكانيــة ضئيلة ، فإن مايترتب عليها لجد خطير فى تقرير سياسة الصليبيين ، وفى بدء معرفة المسلمين

(1) Foucher, p. 344—345.

(2) Grousset : Hist. des Croisadest.I, p. 199 d'aprés Raim. d'Agiles.

بحقيقة موقف المغير المحتل ، وإن لم تعد هذه المعرفة أفق مسلمى طرابلس فحسب .

لم يخف شيء من الفرقة فى الرأى بين الزعماء على أمير طرابلس ، فعادت المقاومة من جديد من جانب أهل البلد ، لكنها ما لبثت أن هدأت ، وأمد ابن عمار الصليبيين بمبلغ ضخم من المال لقاء رفعهم الحصار عن عرقة ، ومضوا بعد ذلك فى طريقهم — بفضل مرشديه — إلى بيروت ، تساعدهم السفن فى البحر [١] .

لقد استطاع الصليبيون الاستيلاء على الرها وأنطاكية وهزموا القوات الإسلامية فى كثير من بلدان سورية الشمالية ، ووقفت طرابلس وحيدة أمام قواتهم ، واشتمل اليأس على أهلها من جرّاء تأخر وصول الأسطول المصرى والميرة والنجدة ، واستسلمت لهم فصار للجنويين ثلث البلد والثلثان لريموند الصنجيلى [٢] .

— ٢ —

مر الصليبيون فى طريقهم إلى بيت المقدس على بعض بلدان الساحل اللبنانى ، فتلقاهم بعضها بالعطف والتأييد والمبادرة للاعتراف بالتبعية لهم على شرط فتح بيت المقدس كما فعل أهالى بيروت ، وأخذ آخرون فى مقاومتهم كأهل صيدا [٣] وإن جازاهم الصليبيون بالعنف والشدة ، ثم توالت الإمدادات الصليبية من الرها وأنطاكية ، وساروا فى سبيلهم قدما فمروا على صور وعكا واللد والرملة حيث عقدوا مجلس المشورة للتشاور فيما ينبغى عليهم اتخاذه ولتنسيق خطة السير ، وكان الوقت (يونيو) قد آذن بالحرارة ، والصيف قد اشتد ، فانقسم الرأى ، إذ مال فريق للزحف على مصر وحجته فى ذلك أنه بمحاربتها والقضاء عليها وتحطيم قواها يضمن الاطمئنان من وثبات تأتيهم من الجنوب بين حين

---

(1) Albert d'Aix, p 457—458 ; G. T., (R. Hist. Occ. Cr.) p. 310.

(٢) ابن القلانسى : الذيل ، ص ١٦٣ .

(3) G. T., Op. Cit. p. 311—312.

وآخر ، وتكفل لهم حرية التجارة البحرية والبرية وسلامة الشواطىء وعدم تعرّضها لخطر الأسطول المصرى ، وأما الفريق الآخر فقد رآى أن الحكمة وسداد الرأى تحتمان عليه وجوب الزحف مباشرة على القدس والاستقرار بها والتحصّن فيها ، وزعيم هذا الرأى جودفروى الذى ما كاد يصل إلى « القبيبة » حتى وفدت عليه جماعات كثيرة من مسيحيّ بيت لحم يحثونه على الإسراع لما نصب نفسه من أجله ، ويعدونه بالمعونة وهى فى أيديهم ميسرة ، وذلك لأن عمال الدولة الفاطمية يستعملونهم فى تحصين المدينة ، فأرسل جودفروى ربيئة استكشافية ، تتحقق له من صدق الأمر بقيادة بلدوين دى بورج وتنكريد النرمانى على رأس ثلة ضئيلة من الفرسان ذهبوا إلى بيت لحم ، فبلغوها مع الفجر ، فلما علم بها مسيحيوها خرجوا « حاملين الصلبان والأناجيل ، مرتلين تراتيلهم الدينية مهللين ممجدين الرب » ، واستبدت بهم الفرحة فمضوا يقبلون أيدى الفرسان ، إذ رأوا فيهم مخلصين لهم « مؤملين أن أن تعود مملكة ابن السماء على أيدى فرسانه » وقدموا بهم إلى الكنيسة « التى قامت بها ذات المجد أم يسوع الطفل مخلص العالم ، وأرادوا إظهار ما فى نفوسهم من الفرح فرفعوا راية تنكريد وركزوها عالية على كنيسة أم الإله[1] » .

وإذن فلم يعُد ثمّت شك يخامر نفوس الصليبيين فى نوايا مسيحيّ بيت لحم ، وهل أدل على إخلاصهم لهم من تعريضهم أنفسهم للخطر فى الوقت الذى لا تعدو فيه هذه الربيئة أن تكون مائة فارس لم تقدم للفتح ! !

والواقع أن بلوغ الصليبيين بيت لحم جعلهم يدركون أنهم أوشكوا على الغاية التى غادروا من أجلها أوربة ، وأنه قد آن لهم أن يستريحوا بعد رحلة دامت أكثر من عامين لاقوا فيها من الآلام والعذاب والأمراض والجوع ما تظل ذكراه باقية فى أذهانهم وأذهان مؤرخى الحملة الذين حفظوها لنا ، وشعروا جميعا بالعزاء الروحى والسكينة تنزل فى قلوبهم ، وعادت إلى أذهانهم ذكرى السيد المسيح .

(1) Foucher, p. 354—355 ; Albert d'Aix, p. 462, G. T., p. 316.

ألم تكن هذه القرية مهد طفل نفخ الله فى أمه من روحه ؟

ألم يكن هذا الطفل هو الذى رأى مجوس الشرق نجمه فأتوا ليسجدوا له ويقدموا له ذهباً ولبانا ومراً ؟

ألم تكن البلد الذى شاهد خروج المسيح مع أمه العذراء وخطيبها يوسف النجار قاصدين مصر ملجأ كل مضطهد وملاذ كل خائف على عقيدته فى القديم والحديث ؟

هذه هى بيت لحم !

هذه هى القرية التى خرج منها مدبّر يرعى شعب إسرائيل ! !

وهذه هى بيت المقدس يبلغها جودفروى بالجند يوم الثلاثاء ٧ مايو ١٠٩٩ م فتطالعهم قبابها فتلهب نفوسهم حماسة ، وتشتد منهم العزائم .

اليوم يعود أتباع «الراعى الصالح» بعد ألف ومائة من السنين ، مهاجرين محاربين ، ويدخلون البقعة المقدسة عند الأديان السماويه الثلاثة ، فلا عجب إذا بكوا وجثوا على ركبهم معفرين وجوههم فى ترابها ولعلهم فى هذه الآونة بالذات تذكروا أنهم قد ورثوا الحياة الأبدية مصداقا لقول المسيح[١] «كل من ترك بيوتاً أو أخوة أو أخوات أو أباً أو أما أو امرأة أو أولاداً أو حقولا من أجل اسمى يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية» ، وإنا لنسمع نغمة فى مؤرخ ليست فيها عبارة التاريخ ولكنها أقرب ما تكون إلى المناجاة حيث يقول «سلام لك أيها السيد الكريم ، ما أغزر الدموع المنسكبة من عيون شعبك حينما طالعوا أسوار وطنك وأسوار أورشليم .. لقد مست جباههم الأرض محيين قبرك المقدس . أنت أيها الجالس عن يمين الله الآب !» .

* * *

فوجىء افتخار الدولة — حاكم مصر على القدس — بمقدم هذه الجموع اللجبة ، وأدرك ضعفه عن مقاومتها فعمد إلى تسميم الآبار وطم القنوات ،

(١) متى ١٩ : ٣٠ ، مرقس ١٠ : ٢٩ — ٣٠

وأخرج النصارى من المدينة ، وعهد بحراسة الأسواق إلى جماعة من العرب والسودان [١] .

أما الصليبيون فقد قسموا أنفسهم أقساماً حتى يكون حصارهم للمدينة من جميع منافذها فلا يمكنون المسلمون من الاتصال بالخارج [٢] ، وشرعوا فى الهجوم على القسم الجنوبى من المدينة ، وطبيعى أن تحملهم الحماسة الدينية على الاستبسال فلا عجب إذا انهارت الأسوار الأولى أمام هجماتهم العنيفة ، ولكنهم قاسوا الكثير من نقص الذخيرة وقلة المياه وحرارة الجو وشدة المحصورين فى دفعهم عن البلد الذى هو عندهم من الأماكن المقدسة أيضا حيث أسرى الله بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله [٣] ، فالحرب هنا تختلف فى طبيعتها وموحياتها ومؤثراتها عن كل حرب سابقة ، فهنا تعاون الدين والدنيا فى حمل الجانبين على القتال العنيف ، وأدرك الصليبيون أنهم يواجهون هذه المرة خصما يرى أن فى ضياع بيت المقدس ضياعا لهيبته السياسية وانتهاكا لحرماته الدينية ، فلا مشاحة إذا اصطنع الفرنجة كل وسيلة من وسائل القوة فقرروا بناء آلات الحصار والقتال ونصبوا الأبراج وأسندوها إلى السور [٤] ، وجرت الظروف رخاء وفق أهوائهم إذ قدم إلى ثغر يافا يوم ١٧ يونيو ١٠٩٩ م بعض أساطيل جنوية ، « وكان هؤلاء فى العدد القليل لانشغال الجمهورية الجنوية إذ ذاك بالحرب الأهلية ، ويتراوح عدد هذه الأساطيل التى ساهمت فى مساعدة الصليبيين فى الفتح بين ست وتسع سفن [٥] ، حملت إلى المهاجمين ماهم فى حاجة إليه من الذخيرة والأخشاب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ص ١٩٨ . Foucher, p 359 ; Raim. d'Ag. p. 291—294.

(٢) يمكن للقارى مراجعة موقف كل زعيم صليبي فى حصارهم لبيت المقدس فى : Grousset : Hist. des Croisades, t. I. p, 154 — 155. Chalandon : Hist. de la première croisade, p. 269.

(٣) القرآن ، سورة الإسراء .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ .

(٥) Heyd : Hist. du Commerce, t. I, p. 134 et note 6.

والعمال ، ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا قوة من رجالهم أخذت تجوس خلال بعض النواحى مسترشدة بالجماعات المسيحية البلدية فى الوقوف على الأماكن التى تتوفر بها الأخشاب ، وعمل الجميع فى البناء فلم يتأخر عنه الزعماء بل عملوا جنبا لجنب مع أحقر الحجاج والمحاربين ، مما شدد من عزائم الجميع ، وأدركوا أنهم يحاربون من أجل المسيح ، وأقسموا « على تطهير أرض السيد من الخطاة[1] » وأقاموا صلاة يوم ٨ يوليو ١٠٩٩ م (= رمضان ٤٩٢ هـ) ردت عليهم هدوءهم الروحى ، وأزالت — أو على الأقل خففت — ما كان قد شجر بين الزعماء من التنازع والخلاف .

شرع الصليبيون فى الهجوم مساء الأربعاء ١٣ يوليو ١٠٩٩م (٤٩٢هـ) ، ووجدوا من الحاميات الإسلامية دفاعا قوياً رغم ما استعدوا به من آلات الحصار والأبراج المتحركة ، وأخذت حامية المدينة ترميهم بالنار الإغريقية حتى إذا كان صباح الجمعة بلغ القتال ذروته ، ولم يعد أحد يتبين أى الكفتين ترجح وأيهما تشيل ، واستمر القتال على هذا المنوال بضع ساعات انفلت بعدها جود فروى بجماعة من الفدائيين استطاعوا أن يجدوا لهم منفذاً فى ناحية لم يهتم المسلمون بتحصينها فدخلوا منها ، وفتحوا أبوابها للفرنجة الذين اندفعوا كالسيل الآتى ، يلمع الموت فى سيوفهم ، ويصرخون صرخات عالية ، فالتفت المسلمون إلى الوراء وإذا بهم يرون أنفسهم وقد أحدق المغير بهم من كل جانب فلم يجدوا وسيلة إلا الالتجاء إلى الحرم الشريف والمسجد الأقصى معتصمين به ، فتعقَّبهم الصليبيون بقيادة تانكريد وجودفروى ووضعوا السيوف فيهم ، وسالت الدماء حتى خاضوا فيها إلى ركبهم أو على حد تعبير مؤرخنا حيث يقول Ut Nostri in sanguine illorum pedes usque ad cavillas mitterent. مما أخذ على الصليبيين فيما بعد، واستحال المسجد الأقصى إلى بركة من الدماء كان منظرها مثيرا للمغيرين ، حتى لقد نكثوا

(1) Albert d'Aix, t . IV, . p. 470; Raim. d'Agiles, p. 266 — 982, G. T., p. 337 — 340.

بعهد كان تانكريد قد قطعه على نفسه لجماعة من العرب أمَّنهم على حياتهم [١] .

فكانت تلك الوقعة « لطخة » فى تاريخ الصليبيين كما يقول الأستاذ جروسيه [٢] ، كما أنها جعلت « الصليبيين لا يذكرونها إلا وتقشعر أبدانهم فزعاً واشمئزازاً منها » على حد تعبير المؤرخ الصليبي وليم الصورى ، ورن صدى هذا الحادث الجلل فى الآفاق ، فقامت من دمشق إلى بغداد وفادة برياسة زين الدين أبي سعد الهروى مستغيثة بالخليفة العباسى والسلطان السلجوقى ، وراح الشعراء يحرضون ، فكان مما قيل قول أحدهم [٣] :

فإيهاً بنى الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
تحث السيوف البيض محمرة الظبى ... وسمر العوالى داميات اللهاذم
وبين اختلاف الطعن والضرب وقعة ... يظل لها الولدان شيب القوادم
وكيف تنام العين ملأ جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام أضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأنتمو ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم ، يقرع بعدها سن نادم
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدا ... رماحهمو ، والدين واهى الدعائم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... وتغضى على ذل كماة الأعاجم ؟

وكثر التحريض من جانب الشعراء المختلفين ، وها نحن أولاء نسمع أخرى يقول فيها القائل :

أحل الكفر بالإسلام ضيما ... يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع ، وحمى مباح ... وسيف قاطع ، ودم صبيب
وكم من مسجد جعلوه ديراً ... على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق ... وتحريق المصاحف فيه طيب [٤]

(١) أبو الفدا : المختصر ، ص ٤ ، ابن الأثير : الكامل ، ص ١٩٨ ، Albert d' Aix, p. 485 — 207, G. T., p .334.

(2) Grousset : Histoire des Croisades, t. I, p. 165.

(٣) مرآة الزمان ، ص ٥٢١ .

(٤) مرآة الزمان ، ص ٥٢٢ .

والظاهر من هذه النغمة أن الخوف من الصليبيين سرى فى الشرق الإسلامى ، وخدر الأعصاب فلم تجد هذه الصرخات صدى، وقنع المسلمون بالتحسر وإبداء الأسى ، ونسبوه إلى المقادير ، وهل يقول العاجزون إذا ابتلوا إلا أنه أمر الله يانفس فاصبرى ؟

ومهما يكن أمر الجماعات الإسلامية خارج بيت المقدس ، فإن الجماعة التى كانت بها بقيادة افتخار الدولة لم تلبث أن استسلمت لكونت تولوز ، بعد أن أمنهم على أنفسهم ، وتعهدوا له بالمضى إلى مصر ، وخاف ريموند أن يثب عليهم الصليبيون فسار بصحبتهم حتى وصلوا عسقلان (١) .

باستسلام فخر الدولة آلت بيت المقدس للصليبيين ليبدأ نوع جديد من الصراع استمر طيلة قرنين من الزمان حتى تهيأ للمسلمين استرداده .

على أن تملك الفرنجة للقدس أثار مشكلة داخلية هى انقسامهم فيما بينهم على من يتولى أمرها ، أيعهدون بذلك إلى ريموند الصنجيلى أم إلى جودفروى ؟ ولا شك فى أن لكل من الفريقين رجاله الذين يؤيدونه ، كما أنه من الطبيعى أن يحاول كل فريق عمل كل ما من شأنه سوق الإمارة لصاحبه ، وإن وجدت جماعات كثيرة تطمع فى العودة إلى أوربة بعد أن حققت الغاية التى خرجت من أجلها ، واشتد بها حنينها إلى موطنها الأول حيث خلفوا نساءهم وأولادهم وأحباءهم ومراتع صباهم ، ومن العجيب أن الفريق الأكبر من هؤلاء كان من البروفنساليين أتباع ريموند الصنجيلى ، مما يمكن أن نفسر به ما يزعمه أحد المؤرخين من أنه رفض تاج الإمارة وإن أنكر ذلك عليه غيره ودحضه (٢) ، وليس من اليسير علينا أن نقبل الرأى القائل برفض ريموند لولاية القدس إلا فى شىء كثير من الحيطة ، وإن كان الإجماع منعقدا على أن جودفروى رفض التاج هو الآخر مبدئيا ، وإن عاد فى يوليو ١٠٩٩ إلى قبوله تحت إلحاح

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ص ١٩٨ ، Foucher, p. 361

(٢) Albert d' Aix, p. 485, Raim. d'Agiles., p. 301.

الحجاج وإصرارهم مما أثار حفيظة ريموند ولم يحاول كتمانه ، فأبى الاعتراف بهذا الاختيار رغم حث كونت فلاندر وروبرت النرمانى له ، كما أنه رفض الرحيل إلى أوربة حتى يحتفل بعيد القيامة ، ثم أصر أن تكون له بعض نواحى المدينة يرابط فيها بقواته ، إلا أن أسقف « ألبارة » — وكان من أتباعه — رأى وجوب تسليم كل شىء إلى جودفروى لما رآه فيه من حرصه على الصالح الدينى مما أحنق ريموند ، وخرج متخشن الصدر موغره على الجميع ، وغادر تلك الناحية إلى الأردن حيث عمد ، وبذلك بقى جودفروى تغلب عليه النزعة الدينية ، وكانت عنده أظهر من الناحية السياسية ، ولعل ذلك هو السبب الذى جعل رجال الكهنوت يؤثرونه بالولاية كى لاتتغلب المصالح المادية الشخصية عند ريموند فتطوى تحتها المصالح الدينية للكنيسة الكاثوليكية. أما جودفروى فقد رفض أن يلقب «بالملك» وأبى أن يتوج بتاج من الذهب فى البلد الذى توج فيه المسيح بالشوك ، ورأى الفخر كل الفخر أن يسمى « بحامى القبر المقدس ».

* * *

لم يكن معنى ذلك استقرار الأمور نهائيا للصليبيين ، إذ ما كان لمصر أن تقف إزاء هذه الحوادث المفجعة مكتوفة اليدين ، لاسيما بعد أن رأت احتلال الفرنجة للبلد ولغيره من المدن ، وانضمام العناصر المسيحية إلى جانبهم مما يؤدى بطبيعة الحال إلى تقوية العنصر الأوربى معنويا ، ومحاولته أخذ بقية ما فى يد الجاليات المصرية من المدن الساحلية ، وما يترتب على هذا من وفود الأساطيل الأوربية من جنوة والبندقية وأمالفى وانجلترا ونرمنديا واسكنديناوة ، الأمر الذى يجعل من شرقى البحر الأبيض المتوسط وحدة بحرية صليبية تنازع مصر السيادة فيه ، فلا عجب إذا تحركت مصر وإن جاء تحركها متأخراً لوقوعه فى أغسطس ١٠٩٩ (= رمضان ٤٩٢ ﻫ) ، ولم يخف خبر التحرك عن سمع الصليبيين فتردد صداه فى القدس ، وسمع به جودفروى ، فأنفذ على جناح

السرعة رسولا إلى تنكريد — وكان فى نابلس — يستدعيه هو والقوات التى معه للمساهمة فى رفع الخطر الفاطمى ، وشاءت الظروف أن تذهب أبعد من هذا فى خدمة الصليبيين ، فوقعت فى أيديهم ربيئة مصرية أرغموها على الإفضاء لهم بخطة سير الجيش المهاجم ، وعرفوا منها أن الأفضل[١] خرج بنفسه على رأس المهاجمين وأنه قد بلغ عسقلان وهو فى انتظار الأسطول والنجدات التى وعده العرب[٢] بها .

بعث جودفرى إلى بقية الأمراء الذين ساهموا فى فتح بيت المقدس يطلب إليهم الانضمام إليه للدفاع عن القبر المقدس هذه المرة ، ولم يتخلف منهم أحد ما حتى كونت تولوز على الرغم مما أبداه — حين وصلته الدعوة — من الرفض ، وبذلك وحّد الخطر الفاطمى جميع القوات الصليبية .

تجمعت هذه القوات فى « يبنا » التى تعرف فى المراجع الفرنجية ب Ibelin واتجهت جنوبا قاصدة عسقلان ، وساروا وحدة ، فى القلب روبرت النرمانى وكونت فلاندر وتنكريد ، وفى الميمنة ريموند الصنجيلى ، وفى الميسرة جودفروى ، ولم يكن لدى القوات المصرية علم بتحرك الصليبيين ، ولم تكن تتوقع زحفها بمثل هذه السرعة ، فلا عجب إذا هى فوجئت ولم تجد الوقت الكافى لحمل السلاح ، وبادر الصليبيون فلم يدعوا لها فرصة تتأهب فيها ، وكر كونت فلاندر على حامل العلم المصرى فقطه بسيفه ، وانطلق فى إثره الصليبيون فدخلوا المعسكر المصرى ونهبوه وتمت الهزيمة على الجند الفاطمى ، وهرب الأفضل فى خواصه إلى مصر[٣] . أما البقية فهرب بعضها إلى إحدى الغابات فأضرم الصليبيون فيها النار فأتت عليها وعلى من بها[٤] . وبذلك خلى البلد من المدافع عنه ، وأصبح من اليسير على القوات الصليبية أن تشق طريقها

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ؛ مرآة الزمان ، ص ٥٢٠ .

(٣) ابن القلانسى : شرحه ، ص ١٣٧ .

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٤٦٤ ، Albert d'Aix, p. 497

دون أن تخشى عائقا ما ، وأن تواصل الزحف حتى يستسلم البلد بأجمعه ، وهذا ماهدف إليه جودفروى ، لولا أنه اصطدم بظهور روح العـداء ضده من جانب النافسين عليه تولى أمور بيت المقدس . والواقع أن جودفروى من جهته هو الآخر كره من ريموند ميل العسقلانيين إليه وتفضيلهم الاستسلام له دون سواه [١] ، معتمدين على محافظته على عهده الذى يقطعه لهم بالإبقاء على حياتهم ، وتأمينهم على حرياتهم ومقدساتهم وأموالهم ومعتقداتهم ، فطلب إليه جودفروى مغادرة البـلد حالا ، وكان الصليبيون قد قرروا على أهلها عشرين ألف دينار ، وشرعوا فى جبايتهـا ؛ إلا أن هذه الجفوة بين الزعماء أدت بهم للرحيل دون أن يقبضوا شيئا ما [٢] .

حينذاك وضح العداء بين الزعيمين الصليبيين وضوحا تاما ، فقد تراجع ريموند إلى الشمال شـطر أرسوف ، وفى الوقت ذاته حث العسقلانيين على الشدة فى مقاومة جودفروى منبئا إياهم بانفضاض العدد الجم من الجند من حوله [٣] ، فطال حصاره لها مدة تقرب من الشهرين [٤] ، هذا إلى قلة مالديه من الرجال ، كما عز عليه حصارها بحرا [٥] ، ولم ينفذ الأفضل نجدة لها سوى ثلة ضئيلة لا تعدو ثلاثمائة مقاتل ، على حين وصلت الصليبيين نجدات بحرية من أساطيل بيزا ، مما حمل أهل أرسوف على الاستسلام أخيرا بالأمان [٦] .

لم يبق من القادة الصليبيين إلى جانب جودفروى سوى تانكريد ، فعهد إليه بقيادة الجند وأقطعه مقاطعة الجليلى وأمره عليها إذ وكل إليه فتحها فخرج فى شرذمة ضئيلين ، ولم تعز تلك الناحية عليه بل استسلمت له دون أن تهرق

---

(١) Hagenmeyer : Chronologie, no., 435.

(٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ .

(٣) Riant : Inventaire, p. 200.

(٤) Albert d'Aix, p. 497 — 499; cf. Hagenmeyer : op. cit. p. 496.

(٥) Albert d'Aix, p. 507 — 509.

(٦) ابن القلانسى ، شرحه ، ص ١٣٩ .

نقطة من الدماء واتخذ طبرية عاصمة لها (١) . ثم تقدم فاحتل بلدة بيسان وحصنها وأرغم البدو على ترك هذه المنطقة فأمنت القوافل من غاراتهم .

غير أن القدر لم يمهل جودفروى طويلا فما لبث أن مات سنة ١١٠٠ ، وتولى مكانه أخوه بلدوين كونت الرها .

بهذا ختمت رحلة الحجاج الأوربيين المسلحين القادمين إلى الشرق على رأس القرن الحادى عشر للميلاد ، ويبدأ دور جديد من العلاقات المحلية والنظم المستمدة من عادات الشرق والغرب معاً . وينسى المغير الأوربي وطنه ليندمج اندماجا كليا فى الشرق العربى ، وتتفتح آفاق جديدة فى التفكير والثقافة ، وتتعدد نواحى النشاط الاجتماعى والاقتصادى والترابط بين الشرق والغرب .

كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وإخراج أهله المسلمين منه خاتمة مطاف حربى استمر بضع سنوات ، حرم فيها الحجاج الأوربيون من رؤية أوطانهم وأولادهم ومرابع شهدت فترة من حياتهم وهلك الكثيرون منهم فى مناطق السير المختلفة ، أما الذين قيضت لهم الحياة فقد تنازعهم الحنين إلى أوطانهم الأولى ، وحببها إليهم أيام شبابهم التى قضوها هناك ، كما استبد بهم الأسى على من قضى من رفاقهم . على أن هناك عاملا هدهد من أحزانهم ذلك هو امتلاكهم بيت المقدس ، وبذلك تحققت أمنية من أشهى أمانيهم بل غاية أمنياتهم .

فتحت مدينة بيت المقدس الحافلة بالذكريات الدينية العميقة ، وهنا ظهر الخلاف واضحا بين الصليبيين أنفسهم حول إدارة دفة الأمور بها ، أتوكل إلى رجال الدين يدبرون شؤونها ويصرفون أمورها حسب وجهة نظرهم وبما يتفق وطبيعتهم ؟ أم يُختار أحد الفرنجة الأمراء ليكون ملكا ؟

انقسم القوم فريقين لكلٍّ مؤيدوه ومناهضوه ، أما رجال الدين فقد أنكروا أن يتوج أحد ما فى البقعة التى تألم فيها المسيح « وتوج فيها بتاج من الشوك » ، ثم إنهم قالوا إن بيت المقدس ليست كباقى مدن العالم ولكنها مدينة الرب Civitatis Dei ، وليس بنا من حاجة للقول بأن هذه الفكرة لم

تجد مكانا خصيبا فى نفوس الأمراء ، ومرجع ذلك هو تغلب المنفعة الذاتية على الجانب الروحى ، فهم يرون أنهم قاموا بأجل عمل يثابون عليه ، ألم يخرجوا من بلادهم وأرواحهم على أكفهم لايدرون متى يلاقون منيتهم ؟ ألم يغادروا الأهل والأوطان فى سبيل نصرة « الفكرة المسيحية » التى دعى إليها البابا إربان الثانى وعمل بطرس الناسك بشعوذته الدينية على تثبيتها بكل الوسائل التى تجوز على السذج لأنها تخاطب العاطفة أكثر مما تخاطب العقل ؟ وإذا كان المسيح هو القائل اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فما أجدر هؤلاء الأمراء أن يجنوا ثمار تضحياتهم فى الميادين المختلفة بتتويج أحدهم ملكا على بيت المقدس ؛ ثم إن فى الملكية نوعا من الاستقرار والهيبة لايتوافران فى غيرها من النظم السياسية التى تبتدعها الجماعات المختلفة ، وهى نظم ليس لها ما يدعمها من المنطق أو التطور التاريخى أو التقدم الاجتماعى ، إلا أن كل هذه الاعتبارات لم يكن لها أدنى قيمة عند رجال الدين الذين أرادوا أن لاتكون يد فوق أيديهم فى تصريف أمور المدينة ، وما دامت هى « مدينة الرب » فهم أولى من غيرهم بأن يكونوا أصحاب السلطة العليا . هذا إلى أنهم كانوا يرون أن الحملة حملة دينية بدليل أن البابا آثر إلقاء قيادتها إلى « إدمار دى مونتل » ولم يقبل إيكالها إلى كونت تولوز ، هذا إلى أنه لم يختر أحداً لتولى قيادتها العامة بعد موت نائبه أسقف پوى ، ثم إن فى الخطاب الذى أنفذه الصليبيون إلى البابا لدعوته لتوليها بعد موت إدمار اعترافاً صريحا بالزعامة الدينية وترجيحها على الزعامة الدنيوية ، وطبيعى أن يشتد الجدل بين الفريقين حول هذه المسألة الخطيرة التى لايستبعد أن تقسم الصليبيين إلى معسكرين مختلفين فى الرأى تمام الاختلاف بصدد مشكلة لها أهميتها العظمى ؛ وكان أخشى مايخشاه أصحاب التوفيق أن تذهب الفرقة فى الرأى إلى إفساد ما بينهم من وشائج الود والصداقة ، لذلك رأى فريق منهم عقد مؤتمر يضم عشرة من رجال الدين والأمراء لتبادل وجهات النظر المختلفة والاستقرار على رأى يرضى إلى حد ما

الطرفين حتى لاتكون فتنة ، واتفقوا على وجوب اختيار واحد من الأمراء ليكون « رئيسا » ومدبرا لشئون بيت المقدس .

لم يكن ذلك نهاية للشقاق بل بداية نزاع جديد ولكنه ليس نزاعا بين البارونات وبين رجال الدين ، بل انحصر بين الأمراء أنفسهم ، فقد رأى كل منهم ذاته أهلا لتولى هذه الرياسة ، ومهما يكن الأمر فقد انحصر النزاع بين شخصين هما جودفروى دى بويون وبين ريموند الصنجيلى الذى لم يكن ثم أنكد حظا منه فى هذه الرحلة المسلحة منذ البداية حتى النهاية ، فقد فجعه البابا فيما كان يطمع فيه من تولى قيادة الحملة ثم إخراجه من أنطاكية ، وهاهى الفرصة تلوح أخيراً لتعويض مافقده ، فهل ترى الحظ يؤاتيه بعد أن أخطأه مرتين ؟ وهل آن للأقدار أن تكفر عما حالت بينه وبين نواله فيتوج على بيت المقدس ؟ ليس بنا من حاجة لأن نقول إنه بذل غاية جهوده حتى يقع الاختيار عليه ، فهو لاتنقصه الشجاعة ولا المال ولا الرجال ولا الحماسة الدينية ، وهو إلى جانب هذا يبز منافسه «جودفروى» فى بعض هذه النواحى ، فجودفروى أقل اندفاعا للحروب من ريموند وأميل للسلم ، ثم إنه بادر حين مقدمه إلى القسطنطينية بقطع يمين الولاء للإمبراطور البيزنطى ، وريموند قبل كل شىء لايعنيه أن يقف وحده فى سبيل رأى يراه حتى ولو خالف الإجماع مادام يعتقد صحة الأمر ؛ لكن فاته أن هذه الميزات الأخلاقية الطيبة إنما هى التى تحول بينه وبين تولى شئون بيت المقدس ، لاسيما وأن جميع البارونات ورجال الدين يكرهون أن يتولى الأمور رجل له من شخصيته وقوته ما يحول بينهم وبين مايطمعون فى تحقيقه ، فالأمراء يريدون « ملكا » لايقف حجر عثرة فى سبيل مطامعهم وأهدافهم الدنيوية ، وأدركوا فى يسر أنهم لابد وأن يرتطموا بشخصية ريموند القوية وحينذاك لايصده شىء ماعن كبح جماحهم ، وأما رجال الدين فقد كانوا أميل لرجل يحسون فيه عطفا على الدين ، ولا شك أنه هو جودفروى ، وسنرى ذلك حالا فى إعلان تبعيته لدامبرت بطرك

بيت المقدس الجديد . ولقد تم اختيار جودفروى وإيثاره على منافسه ، وسيقت إليه مملكة بيت المقدس ولكن نزعته الدينية أبت عليه أن يلبس تاجا من الذهب « حيث توج السيد بالشوك » ، واكتفى كما رأينا بأن يلقب بحامى بيت المقدس .

ويذهب أحد المؤرخين المحدثين للقول بأن سبب رفض الأمراء لريموند إنما يرجع إلى أنهم كانوا يدركون فيه ميله للاتفاق مع بيزنطة ، وهو رأى قد يكون له مايبرره ، لكن من اليسير استبعاد طروء هذه الفكرة على أذهانهم ، لاسيما وأن واحداً من أكبر رجالاتهم — وهو بوهيمند — لم يخجل فى بداية الأمر من إظهار كل مظاهر الولاء والتبعية المذلة له ولرفاقه وخضوعه خضوعا تاما للإمبراطور رغم ما كان يرتجى منه من وقوفه موقف المناهض له المدافع عن الشخصية الصليبية ، فهل نرى هؤلاء البارونات أحرص منه على المصالح العامة ؟ وهل تراهم لايبادرون إلى الانضواء تحت راية الإمبراطور إذا مالوح لهم بمقاطعة أو إمارة ؟ . . هنا قد تبدو مسألة أخرى وهى « كيف لم يتيسر لريموند أن يتولى مملكة بيت المقدس وهو أغنى الأمراء الإقطاعيين فى الحملة ؟ » وتفسير هذه المسألة عند مؤرخه « ألبرت ديكس » حيث يشير إلى أن رجاله خافوا — إذا سيق إليه تاج مملكة بيت المقدس — أن يمنعهم من الرجوع الى أوربة ، وأن يحملهم على الاستقرار فى فلسطين ، وهى وإن كانت عزيزة عندهم الا أن عاطفة الأسرة أجدر بأن تراعى بعد أن تهيأ لهم من النصر القشيب مامكنهم من تحقيق هدف الحملة الرئيسى ، ثم إن انصراف كونت فلاندر وكونت نرمنديا عن المنافسة حول امتلاك تاج مملكة بيت المقدس وأوبتهما الى أوربة مع رجالهما وأتباعهما حرك الذكريات العميقة فى نفوس رجال كونت تولوز ، فكرهوا أن يتحقق شىء ما يكون من ورائه إجبارهم على البقاء بفلسطين ، وقد أدت كل هذه العوامل مجتمعة إلى صرف التاج إلى منافسه جودفروى ، وهكذا قد تواتى الأمانى الطيبة أبعد من لايرتجيها .

توج جودفروى على بيت المقدس ، وحرم كونت تولوز من هذه الأمنية ، فما مقدار الخطأ أو الصواب فى هذا الاختيار ؟

إن استعراض الأحوال السياسية والاجتماعية والدراسة الجغرافية لمملكة بيت المقدس وماجاورها من الأقاليم المسيحية والإسلامية تبين لنا بوضوح ما انطوى عليه هذا الاختيار من تجنب الصواب بالنسبة للصليبيين ، غير أن مطامع كل من الفريقين صرفته عن رؤية مايحوطه من خطر جسيم يهدد بيت المقدس كما يهدد بقية الإمارات اللاتينية فى الشام وشمال العراق ، وهو ما أثبتته الحوادث بعد بضع سنوات من ظهور حركة الجهاد على يد مودود فإيلغازى فبلك فآق سنقر فزنكى ، وانتهت هذه الحركة بقيام كتلة إسلامية متحدة تمتد من شمال العراق وتشمل بلاد الشام ومصر زمن نور الدين ثم صلاح الدين من بعده ؛ ولقد فاتت المؤتمرين ظاهرة قوية هى أنهم يعيشون ويتنفسون فى محيط إسلامى خالص ، وأن من معهم من الحجاج الأوربيين إنما هم قلة إذا قيسوا بالجموع الإسلامية الكثيفة التى يحكمونها أو يجاورونها .

حقيقة أن هذه القوات الإسلامية المبعثرة لم تستطع الصمود فى وجه الجماعات الصليبية ، لكن ليس معنى ذلك تجاهلها بالمرة ، فهى إنما تمر بدور من الضعف لاتلبث أن تنهض منه فترد اللطمة باللطمة وتحاول أن تدفع عن أرضها المغير الأوربى وتتآلف قواتها المختلفة فى شتى البقاع ، وإذن فمعنى هذا أنه كان ينبغى أن تكون مملكة بيت المقدس الجديدة مملكة «حربية» خالصة ، والظاهر أن هذا الأمر لم يفت جودفروى ذاته حين سمى نفسه « حامى » قبر المسيح ، وهل تكون « حماية » الشىء إلا حين يخشى عليه من مغير أو مهاجم؟ ولعل هذا التفسير قد طرأ على بال جودفروى نفسه من ثمانية قرون ونصف ، ومهما يكن الأمر فقد آل حكم مملكة بيت المقـــدس إلى جودفروى رغم العوامل الجمة المزكية لمنافسه الذى مالبث أن رحل إلى أوربة .

لم يكن معنى خلو الجو من ريموند الصنجيلى الراحة التامة لجودفروى ،

بل الواقع أن الحزب الدينى رأى الفرصة مواتية للتدخل فى الشئون العامة ، وذلك لأنه لم يعد على مسرح السياسة الصليبية ببيت المقدس سوى رجل حسن الطوية من اليسير اتخاذه لعبة فى يد القوى ، سواء أكان مصدر القوة دينيا أم دنيويا ، مع أن ظواهر الأمور وبواطنها تتفق على أن جودفروى كان يؤثر الناحية الدينية . ولو لم يكن جودفروى أميراً لكان من رجال الكهنوت ، ولقد تم انتخاب بطرك لمدينة بيت المقدس هو أرنول الرهاوى وإن شاب انتخابه أمور تحط من قدر هذا الانتخاب وتسىء إليه لاسيما كرجل دينى فى بلدة تتجه إليها أنظار المسيحيين قاطبة ، كما أنه لا يتفق مع رغبة الكنيسة الكاثوليكية فى السيطرة على كنائس المذاهب الأخرى .

بهذا تهيأ لمدينة بيت المقدس أن تشغل فى العالم المسيحى الشرقى مكانة الرياسة الدينية والسياسية فى نظر الصليبيين ، وذلك على اعتبار أن رئيسها حامى القبر المقدس والأماكن المقدسة التى يحج إليها النصارى من جميع بقاع العالم وعلى اختلاف مذاهبهم الدينية ، ثم إن بيت المقدس ذاتها كانت بهرة اجتمعت فيها شتى الأجناس حتى ليذكر جاك ڤترى من مؤرخى القرن الثالث عشر فى « تاريخه الشرقى » إنها كانت تضم بين أسوارها جماعات من البولان والجنوية والبيازنة والبنادقة والسريان والروم والملكانيين واللاتين والمسلمين، وجماعات من اليعاقبة والنساطرة والمارون والأرمن وأهل جورجيا المستعربين وأشتاتا أخرى غير هذه كلها .

* * *

والمدقق للحملة الصليبية الأولى يتبين فى غير عسر أنها كانت حملة إقطاعية بجانب ما يمكن أن توصف به من الصفات الأخرى ، فكل من بوهيمند وكونت تولوز يعول جماعة من الحجاج النصارى وينفق عليهم من جيبه الخاص، وأبرز دليل على ذلك أن بوهيمند هدد بقية الأمراء والكونتات بالانسحاب من حصار أنطاكية — وهم أمامها — والأفول إلى أوربة بمن معه إن لم

يعاهدوه على تسليمها إليه ، كما أن خوف أتباع الكونت تولوز من الإقامة فى فلسطين تجلى فى كراهيتهم أن يساق إليه تاج المملكة الجديدة ، وذلك لأنهم يعرفون أنهم مرتبطون به أشد الارتباط ، فإن أقام أقاموا وإن رحل كانوا فى ركابه ؛ كما أن انفصال بلدوين دى بورج واستئثاره بأمارة الرها جعل من معه من الرجال ينحرفون عن الغرض الذى قدمـــوا من أجله من أوربة ويستقرون كفاتحين فى شمالى العراق وتنقطع كل صله لهم برفقائهم فى الحرب وبيت المقدس ، وكل هـذه دلائل جلية على ما تنطوى عليه الحملة من روح إقطاعية ، والمتتبع لتاريخ كل من هؤلاء الأمراء فى أوربة قبل قدومهم للشرق يرى هذه الروح واضحة فى محاربة بعضهم البعض ، كما أن فى خطبة البابا إربان الثانى إشارة صريحة لتلك المسألة ، أضف إلى هذا أن المؤرخ الصليبى « فوشيه دى شارتر » (١) لم يفته النص عليها فى تفسيره للحملة من أن الضرورة ألحت على أولى الأمر فى إنهاض هذه الحملة حتى تتجه السيوف ضـــد الأجانب الأغراب ، وهو يقول ما نصه necesse erat ut, malis tantimodis dimissis monitione a papa Urbano sic exorsa, contra paganos saltem certamina inter se dudum consueta distenderent.

* * *

على أنه وجدت نظم حربية جديدة لم تكن مألوفة فى الشرق الأدنى من قبل ونعنى بها نظم الفرسان الاسبتارية والداوية والتيوتون .

وأقدم هذه الجماعات هى الاسبتارية ، وهم فئة من الفرسان الذين جمعوا بين الدين والدنيا ، وترجع نشأتهم إلى منتصف القرن الحادى عشر للميلاد (سنة ١٠٤٨ م) ، وكان للتجارة دخل كبير فى ظهورهم ، ذلك أن أهل أمالفى الوافدين على الشرق كانت تربطهم ببلاد الشام منذ زمن بعيد روابط تجارية عظيمة ، وهم الوسيط التجارى بين منتجات الشرق وأوربة ، ولما كانوا كثيرى الترداد على بلاد الشام فقد استطاعوا أن يلمسوا عن قرب مدى تمتع

(1) Foucher, t. III, p. 326-327.

كل طائفة من النصارى بالحرية فى ممارسة شعائرها الدينية ، وخيل إليهم أن إخوانهم الكاثوليك دون بقية المسيحيين عامة مكانة ، وهالهم ألا تكون لهم أية مؤسسة دينية فى تلك البقاع ، على حين أن الأموال تتدفق بكثرة بين أيدى الأمالفيين ، لذلك اتجهوا إلى الخليفة الفاطمى المستنصر معد على وطلبوا منه أن يأذن لهم بإقامة دير لمن على مذهبهم ، فلم يعارض المستنصر ، فبادروا فى التو إلى إنشائه فى إحدى ضواحى بيت المقدس وعرف بدير Ste. Marie-Latine ، وكان أول من سكنه جماعة من البندكتان الإيطاليين ، على أنهم مالبثوا أن أقاموا إلى جواره بيمارستانا لإيواء الحجاج المسيحيين ومعالجة مرضاهم ، وتطوع للقيام بخدمتهم نفر أشربت نفوسهم حب الدين وجبلت على الرحمة فلم تكن تقرن وقت السلم بين دين ودين ، أو مذهب ومذهب ؛ على أن هذه الجماعة ذاتها تطورت فيما بعد إلى ما عرف فى تاريخ العصر الوسيط بفئة « الاسبتارية » Hospitaliers . وذلك أنهم تسلحوا لحماية الحجاج وهم فى طريقهم إلى بيت المقدس بغية أداء الحج ؛ لكن مالبث القوم أن انفصلوا سنة ١١١٣ م عن الإخوان البندكتان فى عهد أول رئيس لهم « جيرار توم » المعروف بالرجل التقى . ولم يكن لهذه الجماعة أن تخطو هذه الخطوة الجريئة من التسليح والحماية لولم تكن مستعدة لها من قبل ، ولولم تكن واجدة من عطف ولاة الأمور والأهالى عليها مايبسر ذلك العمل ، فقد تملك الإعجاب بها نفس جودفروى لما تضطلع به من أعمال تنطوى على الفروسية بقدر انطوائها على الرحمة والمودة ، فأقطعها إحدى الضواحى وجعلها وقفا عليها . ونهج الصليبيون نهجه فأغدقت عليهم الأموال ، وانهالت عليهم العطايا والهبات إكبارا لهم وإعجابا بهم رغم أن مؤسستهم تقوم على أركان ثلاثة هى : الطاعة والفقر والعفة .

لكن على الرغم مما ينتظر من مثل هذه الجماعة من المساواة المطلقة إلا أنها كانت فى داخلها تتألف من فريقين ، هما رجال الدين والمدنيون ، كما أن

الفئة الثانية كانت تنقسم طبقتين هما الطبقة العليا والعامة ، ولم يجدوا ثم معارضة لهذا التقسيم العجيب ، بل إن البابا إنوسنت الثانى نفسه أقر ذلك الوضع سنة ١١٣٠ م ، كما أقر نوع الملابس التى يستعملونها وكانت سوداء يتدلى منها الصليب ، وزاد على ذلك بأن جعل راية فرسانهم تحمل صليبا أبيض ؛ وقد حفلت كتب التاريخ العربى بالإشارة إليهم لقتالهم المسلمين ، ويشير ابن القلانسى[1] إلى حملة كان قوامها جماعات الفرسان المختلفة ، فيشير إلى « أن الأفرنج الملاعين أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتوليها وتقويتها بالسلاح والمال ، وكانت عدتهم سبعمائة فارس من أبطال الاسبتارية والسرجندية والداوية » ، وقد أخذوا فى معاونة الصليبيين منذ استقرارهم فى الشرق الأدنى فى مختلف مراحل تاريخهم لاسيما فى القرن الأول من مجيئهم لبلاد الشام ، وقل أن نجد حربا قصد الدفاع أو الهجوم دون أن يكون لهم ضلع فيها ، واتسعت رقعة نشاطهم فى عهد « الرئيس الأعظم » ريموند دى بورى ، فامتدت إلى إسبانيا ذاتها ورحل إليها بنفسه ، حيث كان ألفونس الأول ملك أرغونة ونفارة قد أوصى بجزء ضخم من أملاكه لجماعات الفرسان المختلفة ، ومن بينها الاسبتارية ، ثم عاد ريموند حوالى سنة ١١٤٠ م إلى بيت المقدس وساهم فى محاربة المسلمين فى عسقلان ؛ والظاهر أن نشاط ريموند جاوز حدود بلاد الشام كما رأينا ، مما حمل بلدوين الثالث والبابا أنسطاس الرابع على تثبيت ما بيد فرسان الاسبتارية من الأملاك وإضافة أجزاء غيرها إليها كما يتضح ذلك من وثيقة مؤرخة ٢١ أكتوبر ١١٥٤ م ؛ كذلك ساهمت الاسبتارية فى الحرب التى نشبت بإسبانيا بين العرب ونصارى الأندلس سنه ١١٤٦ م .

أما الفئة الأخرى المشابهة لها فهى الفرسان الداوية التى ظهرت على أساس من الحماسة الدينية والفروسية ، إذ اتفق سبعة من الرجال سنة ١١١٨ م

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٨ — ٣٢٩ .

على تكوين عصبة من بينهم للدفاع عن بلاد فلسطين وحماية حجاج الأماكن المقدسة المسيحية ، وعرضوا تلك الفكرة على Gormond بطرك مدينة بيت المقدس إذ ذاك ، فلا بدع إذا وجدت منه ترحيبا عظيما لما تنطوى عليه من معنى دينى عميق ، فلما وجد هؤلاء السبعة منه التأييد التام لفكرتهم أقسموا أمامه بالمحافظة على الشعائر الثلاثة المعروفة « الفقر والطاعة والعفة » ، وزادوا عليها بأن أقسموا اليمين على حمل السلاح وتجريده ضد المسلمين ، وبذلك اصطبغت هذه الجماعة منذ اللحظة الأولى — وهى فى دور التكوين — بصبغة القتال والحرب ، ولعل ظروف الإمارات الصليبية حينذاك بالشام وفلسطين كانت أكبر عامل فى حمل هؤلاء الفرسان على أن يقسموا هذه اليمين العجيبة ، وأقطعهم بلدوين الثانى ملك بيت المقدس خانا يقيمون فيه قرب مسجد عمرو أو محراب داود ، ومن ثم سموا بالداوية فى المصطلح التاريخى العربى . وظل هؤلاء الداوية بضع سنوات قلائل مثلا للتقشف والزهد ، فلم يكن لهم من الملابس إلا ما يجود به عليهم غيرهم ، وكانوا أشد الناس فقراً رغم ما كان يمكنهم جمعه منه إن شاءت لهم أهواؤهم ، لكنهم آثروا المتربة ، عملا بقول المسيح » . « إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله ! »

ولقد بذل مؤسس الداوية Hugues de Payens غاية الجهد فى تثبيت دعائم نظامه هذا وبث مبادئه ، فركب البحر سنة ١١٢٧م إلى فرنسا وانجلترا وإسبانيا يجمع الصدقات لمساعدة فقراء الأراضى المقدسة ، فانهالت عليه التبرعات من جميع النواحى ومن مختلف طبقات المجتمع ، ومال البعض للاقتداء به واقتفاء سبيله فرحلوا معه إلى الشرق وانضموا إلى صفوفه ، وهدفهم من ذلك محاربة المسلمين ، وأصبح لهذه الجماعة « الحربية » نظمها الخاصة بها ، وازداد عدد المنخرطين تحت لوائها زيادة استلزمت تعدد مصادر الثروة التى أخذت تتدفق عليهم من كل حدب وصوب ، فلم يعد هؤلاء الفرسان «فقراء» ،

بل أصبحوا يؤلفون طبقة «ثرية» واتاها الغنى من حيث لا تحتسب ،ولم يمض بضع سنوات على رجوع « هيج » من رحلته فى أوربا حتى مات عام ١١٣٩ م مخلفا وراءه أملاكا شاسعة ، كما تدخلوا فى المسائل السياسية فى بلاد الشام ، وامتد نفوذهم السياسى إلى إسبانيا ذاتها .

على أن هذا التوسع العظيم فى النفوذ الاجتماعى والسياسى أدى إلى اعتراف البابا « أيوجين الثالث » سنة ١١٤٦م بهم كهيئة خاصة لها نظمها وكيانها ، ويرتجى نفعها ، ومظهر هذا الاعتراف البابوى فى أنه أمر بأن يحمل أولئك الفرسان الصليب الأحمر على ملابسهم البيضاء ، فحمرة الصليب رمز للتضحية والاستشهاد والذب عن الملة ونصرتها ، أما البياض فرمز للعفة والطهارة كفرسان دينيين قد نبذوا رفاهية الحياة وبلهنيتها ، كما اتخذوا رايتهم من اللونين : الأبيض والأسود ، أما البياض هنا فرمز لإخلاصهم للمسيح وخدامه والعطف عليهم ، وكثيراً مانجد فى الإنجيل عبارة « الثياب البيضاء » رمزاً للشهادة ، وأما السواد فدلالة على قسوتهم على أعداء دينهم ومحاربيهم ، ونقشوا على العلم الرئيسى هذه العبارة «Non nobis, Domine, non nobis sed nomini tuo da glorium.» وقد ساهم فرسان المعبد هؤلاء فى محاربة الصليبيين للمسلمين ، فوقفوا إلى جانب بلدوين الثالث فى نضاله ضد نور الدين زنكى سنة ١١٥٠م ، كما أنهم قادوا حملة سنة ٥٥٢ ﻫ (= ١١٥٧م) بين طبرية وبانياس . وكان الخوف منهم شديدا وإن كتب النصر للمسلمين حيث أسروا كبير فرسان المعبد « برتراند دى بلانكفورت » ، ولعل وصف ابن القلانسى الذى شاهد الحادث أصدق مانقدمه فى هذا الموضوع حيث يقول « وصلت الأسرى ورتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ، ومعهم راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رءوسهم بشعرها عدة . والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس وعليه الزردية والخوذة وفى يده راية ، والرجالة من السرجندية والدركيولية كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر

فى حبل » ولم يفت الشعر العربى تخليد هذه الوقعة ، فأورد ابن القلانسى — على قلة تمثله بالشعر — قول القائل :

مثل يوم الفرنج حين علتهم ذلة الأسر والبلا والشقاء
وباياتهم على العيس زفوا بين ذل وحسرة وعناء
بعد عز لهم ، وهيبة ذكر فى مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الأعادى عند شن الإغارة الشعواء

على أن الداوية مالبثوا هم الآخرون أن انغمسوا فى الترف المادى ، ومالوا إلى التنعم برفاهية الحياة .

* * *

هذه لمحة خاطفة عما أنتجته الحرب الصليبية الأولى فى الناحية الحربية ، وهى قليلة بالنسبة لآثارها فى ميادين الحياة الأخرى . غير أن أكبر فضل لها هو هزها الشرق الإسلامى هزة عنيفة وإيقاظه من سباته ونبذه التفرقة المذهبية ، مما أدى فيما بعد إلى لم الشمل وتوحيد القوى المختلفة .

تاريخ الفرنجة وغيرهم من حجاج بيت المقدس [(١)]

الدعوة للحرب الصليبية . الحملة الشعبية . جماعات الصليبيين ووصول
جود فروى إلى القسطنطينية . حملة بوهيمند ونورمان
إيطاليا الصليبية . بلوغهم نهر الوردار .

١ — تحقق اليوم ما اعتاد المسيح أن يقوله دائما لأتباعه مصداقا لما جاء فى الإنجيل «إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى» [(٢)] مما أحدث حركة عظمى شملت جميع أقطار غالة ، فكان كل ذى قلب طاهر وروح سليمة ، صادق النيــة فى اتباع السيد والسير وراءه مخلصاً فى حمله الصليب لا يتوانى عن المبادرة إلى الضريح المقدس .

والواقع أن إربان الثانى — الرئيس الرسولى لكرسى رومية — سرعان ما اكتسب إلى جانبه البــلاد الواقعة «خلف الجبل» [(٣)] بجميع مطارنتها وأساقفتها وشمامستها وقسيسيها ، وشرع يخطب القوم ويعظهم عظات غالية . قائلا إنه لايجوز لأى ساع فى خلاص روحه أن يتوانى عن أن يسلك خاشعا طريق السيد ، وإذا أعوزه المـال فالرحمة الإلهية تعينه ، وأضاف السيد الرسولى إلى ذلك قوله «يجب عليكم أن تتعذبوا كثيراً من أجل اسم المسيح فتتحملوا المشقة والفقر ، وتكابدوا الحفاء والاضطهاد والذلة والمرض والجوع والظمأ وماشا كلهــا من الشرور ، كما قال السيد لتلاميذه «سأريكم كم ينبغى أن تتألموا من أجل اسمى [(٤)]» ، وقوله «إنى أنا أعطيكم فما وحكمة لا يقدر

---

(١) جرت عادة القوم فى العصور الوسطى على تسمية الحجاج باسم الهيكل الذى يحجون إليه .

(٢) متى ، ١٦ : ٢٤ ؛ مرقص ، ٨ : ٣٤ ؛ لوقا ، ٩ : ٢٣ .

(٣) المقصود بهذه العبارة «فرنسا» ، وهى تشير كذلك إلى أن كاتب الحوليات من أهل إيطاليا .

(٤) أعمال الرسل ، ٩ : ١٦

جميع معانديكم أن يقاوموها أو يناقضوها (١)، وكما قال أيضاً « إنكم ستأخذون ميراثاً عظيما (٢) » .

لم تلبث هذه الخطبة أن ذاعت شيئاً فشيئاً فى جميع أقطار غالة وولاياتها وما كاد الفرنجة يسمعون أقواله هذه حتى بادروا فى التو واللحظة إلى خياطة الصلبان على أكتافهم اليمنى ، قائلين إنهم — على بكرة أبيهم — يريدون متابعة خطى المسيح ، مؤملين أن يمكنهم ذلك من استرداد القوة من التتار .

٢ — سرعان ماتركت جموع الغاليين مساكنهم وانقسموا ثلاثة أقسام ، فدخل فريق من الفرنجة أرض المجر وفيه بطرس الناسك والدوق جودفروى وأخوه بلدوين ، ثم بلدوين كونت دى مونس ، ولقد سلك هؤلاء الفرسان الشوس وكثيرون غيرهم ـ ممن أجهلهم ـ الطريق الذى سلكه من قبل شرلمان ملك فرنسا العظيم إلى القسطنطينية .

أما بطرس المشار إليه فكان أول الذاهبين إلى القسطنطينية ، فبلغها [يوم ٣٠ يوليو سنة ١٠٩٦ م] وبصحبته الفريق الأعظم من الألمان ، وهناك انضم إليه اللمبارديون وكثيرون سواهم ، فأمر الإمبراطور بتزويدهم بالميرة بقدر ماتسمح به طاقة البلد ، وقال لهم « لاتعبروا البسفور قبل وصول بقية الجيش المسيحى لأنكم لستم بالكثرة التى تمكنكم من محاربة الترك » ، فسار المسيحيون أسوأ سيرة ، إذ خربوا قصور المدينة وأضرموا فيها النيران وخلعوا الرصاص الذى كانت تغطى به الكنائس وباعوه للإغريق ، فتلظى الإمبراطور غضباً عليهم ، وأمر — وهو فى سورة حنقه — بإبعادهم عن البسفور .

لم يتورع الصليبيون — بعد كل ما ارتكبوه — عن اقتراف شتى ضروب

---

(١) الرسالة إلى تيموثاوس ، ١ : ٨ ؛ لوقا ، ٢١ : ١٥ .

(٢) متى ، ٥ : ١٢ ؛ الرسالة إلى أهل كولوسى ، ٣ : ٢٤ .

المساوىء كإضرام النار فى البيوت والكنائس وتخريبهم إياها ، وانتهى بهم السير أخيرا إلى نيقوميديا حيث انفصل اللمبارديون والألمان عن الفرنجة ، واختار اللمبارديون لقيادتهم سيدا يدعى « رينالد » ، وحذا الالمان حذوهم ، ودخلوا إقليم أسيا الصغرى ، وساروا مدة أربعة أيام وراء نيقية ووجدوا قلعة اسمها Exerogorgo قد خلت من كل مدافع عنها فاستولوا عليها ، وعثروا فيها على كميات وفيرة من الميرة كالحنطة والخمر واللحوم وشتى أنواع المأكولات .

ولما علم الترك باحتلال النصارى لهذه القلعة نهضوا لمحاصرتها ، وكان أمام بابها بئر وعند سفحها نبع ماء جار ، فنصب « رينالد » بجواره كمينا لاقتناص الترك الذين وصلوا يوم عيد القديس ميخائيل [٢٩ سبتمبر ١٩٠٦ م] حيث وجدوا رينالد ورفاقه فوثبوا عليهم وفتكوا بعدد كبير منهم ، ولاذ الباقون هربا إلى القلعة معتصمين بها ، لكن سرعان ماحاصرهم الترك فيها ومنعوا عنها الماء فاشتد الظمأ برجالنا شدة دفعتهم لفصد عروق جيادهم وحميرهم وشرب دمائها ، وألقى الآخرون الخرق معلقة بالخطاطيف فى الكُنُف وعصروها فى أفواههم ، وكان أحدهم يبول فى يد رفيقه ثم يشرب الاثنان ، وحفر بعضهم الأرض الرطبة واضطجعوا فيها وهالوا التراب على صدورهم وهكذا وصلت شدة ظمئهم إلى تلك الحال ، ، وأخذ الأساقفة والقساوسة يقوون عزائم رجالنا ويحضونهم على الصبر .

استمرت هذه المحنة ثمانية أيام سويا ، ثم عقد زعيم الألمان اتفاقا مع الترك عاهدهم فيه على أن يسلمهم رفاقه ، وتظاهر بالخروج للقتال ثم هرب إليهم ، وحذا حذوه الكثيرون فتبعوه ، ولقى المنية كل من أبى إنكار السيد ، أما الذين بقوا على قيد الحياة فقد تقاسمهم العدو كأنهم الأنعام السائمة ، واتخذ الترك بعضهم هدفا يفوّقون إليهم سهامهم ، ومضوا يتهادون البعض ويبيعون البعض الآخر بيع الحيوان ، وساقت جماعة من العدو الغنيمة إلى مساكنها ،

وأخذها غيرهم إلى خراسان[١] وأنطاكية وحلب ، وذهب كل بها إلى حيث يقيم ، وكان هذا هو الاستشهاد الكريم الذى لقيه الرجال الأوائل فى سبيل تمجيد اسم السيد يسوع .

ولما علم الترك بعد ذلك بوجود بطرس الناسك وجوتييه سانز أفوار فى « هرسك » الواقعة وراء « إزنيق » توجهوا نحوهما ، يعلوهم البشر ، مؤملين القضاء عليهما كما قضوا على رفاقهما من قبل ، وفى أثناء مسيرهم التقوا بجوتييه وهو فى جماعته ، وسرعان ما انقضوا عليهم وقتلوهم ؛ أما بطرس الناسك فقد عاد من القسطنطينية عاجزاً عن تنظيم هؤلاء الجند اليائسين الذين أضحوا عازفين عنه منصرفين عن خطبه ، فكر الترك عليهم وذبحوا منهم جمعاً غفيراً إذ صادفوا بعضهم مستغرقا فى نومه ، والبعض الآخر عاريا من كل شىء فقتلوهم عن بكرة أبيهم ، وكان هناك قسيس يعظ فلقى الشهادة على أيديهم هو الآخر على المذبح ، أما الذين استطاعوا النجاة فقد هربوا إلى « هرسك » ، وألقى بعضهم نفسه فى البحر ، ولاذ غيرهم إلى الأحراج والجبال تخفيا بها ، فانطلق الترك فى آثارهم وكدسوا الأخشاب لحرقهم هم والمدينة معا .

غير أن النصارى الذين احتلوا المدينه أشعلوا النار فى أكداس الخشب وهب اللهب ناحية الترك ، فأهلك بعضهم حرقا ، بينما حفظ الرب رجالنا من أن تمتد إليهم تلك النيران ، وأخيرا تمكن الترك من أخذهم أحياء وتقاسموهم فيما بينهم كما فعلوا مع الذين سبقوهم من قبل ، وشتتوهم فى كل النواحى ، فساقوا البعض إلى خراسان ومضوا بالبعض إلى فارس . وقد جرت كل هذه الحوادث فى شهر أكتوبر .

لم يكتم الإمبراطور فرحه العظيم حين ذاع خبر تشتيت الترك لرجالنا ، وأصدر أمره بنقلهم عبر البسفور بعد أن جردهم من كل سلاح يحملونه .

---

(١) يلاحظ هنا أن الحوليات تستعمل كلمة « خراسان » استعمالا مبهما ، ويذكر الأستاذ بريبه أن جميع المؤرخين اللاتين والأرمن يطلقون هذا اللفظ على جميع البلدان الداخلة تحت سيطرة السلاجقة بما فيها العراق ، ويذهب « ألبرت ديه » إلى أن « بغداد » هى عاصمة خراسان .

٣ — أما القسم الثانى فقد ولج أرض الصرب والكروات مع ريموند الصنجيلى و [إديمار دى مونتل] أسقف پوى .

أما القسم الثالث فقد سار فى طريق رومة القـديم ، وفيه بوهيمند [بن روبرت جسكارد] وريتشارد السالرنى ، وروبرت كونت فلاندر ، وروبرت هيوز النرمندى [بن وليم الفاتح] ، وهيج الكبير [أخى ملك فرنسا فيليب الأول] وإيفراد دى بواسيه ، وأكار دى مونتمريل ، وإيزور دى موزون ، وكثيرون غيرهم . فذهب البعض بعدئذ إلى ميناء برنديزى ، والبعض الآخر إلى بارى ، وسواهم إلى أترنتو .

أبحر هيج الكبير ووليم بن المركيز [أخو تنكريد] إلى بارى ، وأرسوا فى دورازو التى ما كاد واليها [البيزنطى] يعلم بخبر رسو هذين الرجلين العظيمين حتى دبر لهما فيما بينه وبين نفسه خطة دنيئة ، إذ ألقى القبض عليهما واهتم بترحيلهما إلى القسطنطينية ليمثلا أمام الإمبراطور وليقسما له يمين الولاء .

أخيرا وصل إلى القسطنطينية دوق جودفروى مقدم جميع السادة على رأس جيش لجب . وكان وصوله إياها قبل ميلاد سيدنا بيومين ، فبقى معسكرا بظاهر المدينة حتى أذن له الإمبراطور الظالم بالإقامة فى إحدى ضواحى المدينة ، ولما كان الدوق باقيا حيث أمر فقد اعتاد أن يرسل رجاله يوميا فى هدوء ليجلبوا التبن وكل ما يلزم للجياد ، وكان رجاله يظنون أن فى استطاعتهم الذهاب آمنين أنى شاءوا ، إلا أن الإمبراطور ألكسيس الغادر أمر الدركيولية والمرتزقة بمهاجمتهم وقتلهم أنى ثقفوهم ، فلما تناهى ذلك الخبر إلى بلدوين — أخى الدوق — كمن [لجند الإمبراطور] فى الطريق وباغتهم وهم قاصدون القضاء على رجاله ، واستبسل فى الهجوم عليهم وأيده الرب بظهوره عليهم ، فأسر منهم ستين رجلا غير من قتلوا وجاء بالباقين إلى أخيه الدوق .

استبد الغضب بالإمبراطور حين استطار إليه نبأ هذه الحوادث ، فلما رآه الدوق ساخطا متخشن الصدر غادر تلك الناحية برجاله وعسكروا داخل المدينة ، فلما أرخى الليل سدوله أصدر الإمبراطور التعيس أمره إلى قواته بمهاجمة الدوق والجماعة النصرانية ، فتتبعهم الدوق على رأس جنود المسيح وانتصر عليهم وقتل منهم سبعة وطارد الباقين حتى باب المدينة ، ومن ثم عاد إلى معسكره ولزمه خمسة أيام مستجما [١٣ — ١٨ يناير] ، ثم عقد موادعة مع الإمبراطور الذى حثه على مغادرة مضيق سنت جورج ، وأذن له أن يتزود بالذخيرة جهد ما تسمح موارد القسطنطينية ، كما تسلم منه صدقة يستعين بها على إعاشة الفقراء .

٤ — أما بوهميند المنصور الذى كان موجوداً إذ ذاك فى حصار جسر سكافارد بأمالفى فقد علم بمقدم جماعة مسيحية من الفرنجة لايحصيها العد ، فصمم على المضى إلى ضريح السيد ، وشنّ الغارة على الشعب الوثنى ، ووفق بوهيمند فى الاستفسار عن نوع السلاح الذى تستعمله هذه الجماعة فى القتال وعن الشعار المسيحى الذى تحمله فى الطريق وعن هتاف التجمع الذى تهتف به فى المعارك ، فقيل له « إنهم يستعملون سلاحاً ملائماً للحـرب ، ويحملون صليب المسيح على أحد الكتفين أو فيما بينهما ، وأما هتافهم الذى يرددونه جميعا فى نفس واحد فهو : هكذا أراد الله ! » . وفى الحال امتلأ بوهيمند بالروح القدس وأمر بتجزئة العباءة الثمينة التى يرتديها إلى أجزاء صغيرة لعملها صلبانا .

حينئذاك انطلق الفريق الأعظم من الفرسان المحاصرين للمدينة فى صولة شديدة ، حتى إن الكونت « روبرت » كاد أن يبقى وحيداً ، ولما عاد إلى صقلية تشكى واغتم لضياع كل جيشه .

ولما عاد السيد بوهيمند إلى أملاكه(١) استعد بكل مافى طوقه للتوجه إلى

(١) كان بوهيمند أميرا على تاونت وأوترانتو من أعمال ايطاليا ، راجع Chalandon : Hist. de la domination normand en Italie, t. I, p. 288.

الضريح المقدس ، ثم ركب البحر بجيشه مصطحبا معه تنكريد بن المركيز ، والأمير ريتشارد وأخاه رينول ، وروبرت أنز ، وهرمان كانى ، وروبرت سورديفال ، وروبرت بن توستانى ، وهنفرى بن رودلف ، وريتشارد بن الكونت رينولف ، وكونت رسيفولو وإخوته ، وبويل دى شارتر ، وأوبريه دى جانيانو ، والهنفرى دى مونت سكيابوزو . وعبر الجميع البحر على نفقة بوهيمند وأرسوا فى بلغاريا حيث وجدوا وفرة بالغة من الحنطة والخمر وجميع الأطعمة النافعة .

ثم نزلوا عقب ذلك فى وادى «أندرونو بوليس» ، وأقاموا فى انتظار عبور بقية الجيش ، وحينذاك أخذ بوهيمند فى مشاورة جيشه وتشجيع رجاله ، وحضهم على الطيبة والتواضع والكف عن تخريب تلك البلاد التابعة للنصارى ، وأمرهم ألا يأخذوا أزيد مما يحتاجون إليه فى معاشهم .

آن وقت الرحيل ، فخرجنا[1] فى العدد الجسم نسير من مقاطعة إلى مقاطعة ، ومن مدينة إلى مدينة ، ومن قلعة إلى قلعة ، وأفضى بنا السير إلى Castoria فاحتفينا فيها احتفاء رائعاً بميلاد السيد المسيح ، ولبثنا بها بضعة أيام باحثين فيها عما نتزوّد به ، غير أن أهلها أبوا علينا ذلك لشدة تخوفهم منا ، ولم ينظروا إلينا نظرهم إلى حجاج بل خيل إليهم أننا طامعون فى تخريب أرضهم والفتك بهم ، فاستولينا على الثيران والخيل والحمير وعلى كل ما وجدناه ، فلما غادرنا « كستوريا » دخلنا إقليم Pelagonie حيث توجد قرية من قرى الملاحدة هاجمناها من جميع نواحيها ، وسرعان ما سقطت فى أيدينا ثم أضرمنا بها النار وأحرقناها بسكانها .

بلغنا بعدئذ نهر « الوردار » ، وإذ ذاك تابع السيد بوهيمند زحفه مع الفريق الأعظم من جنده لانفصال الكونت روسينولو واستقراره هناك

---

(١) يلاحظ هنا استعمال ضمير المتكلم.

مع إخوته ، وبقى الجيش الإمبراطورى وهاجم السكونت كما هاجم إخوته وجميع من كانوا معهم .

ارتد تنكريد على أعقابه حين سمع بهذا الخبر وعبر النهر سباحة وانضم إلى رفاقه ، وتبعه ألفان من الرجال اقتدوا به فى عبور النهر، فوجدوا الدركيولية والمرتزقة الذين كانوا يقاتلون رجالنا ، فباغتوهم واستبسلوا فى الهجوم عليهم حتى أعيوهم ، ثم أسروا جماعة منهم وقادوهم مشدودى الوثاق إلى حضرة السيد بوهيمند الذى قال لهم[١] « أيها الأشقياء ، ما الذى حملكم على قتل جند المسيح الذين هم جندى ، مع أننى لم أشهر الحسام أبداً ضد إمبراطوركم ؟ » فأجابوه « ليس فى استطاعتنا أن نقرر غير الواقع ، لقد استؤجرنا لحساب الإمبراطور ، وكان علينا أن ننجز كل ما يأمرنا به » ، فإذن لهم بوهيمند بالانصراف دون أن يقتص منهم . وقد جرت هذه الوقعة فى اليوم الرابع من أول أسبوع صوم الأربعين [١٨ فبراير سنة ١٠٩٧ م] . فليبارك الرب الجميع . آمين !

---

(١) Cf. Raoul de Caen, p. 607-610.

— ٢ —

من وقعة الوردار إلى الاستيلاء على نيقية

سير نرمان إيطاليا ورحيل بوهيمند إلى القسطنطينية . الزعماء الصليبيون في القسطنطينية وقطعهم اليمين للإمبراطور — وصول الصليبيين إلى نيقية • حصار نيقية والاستيلاء عليها .

٥ — بعث الإمبراطور التعيس فى الوقت ذاته إلى سفرائنا أحد رجاله ، وكان يؤثره بحبه الشديد وممن يسمونهم مواليه ليرشدنا إلى السبل الآمنة فى جميع بلاده حتى نبلغ القسطنطينية ، وفى أثناء مرورنا أمام بلدانه كان يأمر سكانها بأن يحملوا إلينا الأقوات كما فعل أولئك الذين تكلمنا عنهم من قبل ، واستبد بهم الخوف من رجال السيد بوهيمند الشجعان حتى إنهم لم يسمحوا لأحد منا بمجاوزة أسوار مدنهم ، وحدث فى ذات مرة أن أراد رجالنا مهاجمة أحد الأمكنة الحصينة ، والاستيلاء عليها بحجة احتوائه على الذخائر الوفيرة ، فرفض بوهيمند العاقل طلبهم وأنكر عليهم أن يجاوزوا مكانهم برا بعهده المقطوع للإمبراطور ، وغضب أشد الغضب على تنكريد وعلى بقية الآخرين وجرت هذه الحادثة مساء ، وفى صباح اليوم التالى خرج سكان البلد يطوفون به حاملين الصليب فى أيديهم ، ومثلوا فى حضرة بوهيمند الذى تلقاهم بالترحاب والسرور ، ثم صرفهم من لدنه فرحين مغتبطين .

بلغنا بعد ذلك مدينة تدعى Serra نصبنا فيها خيمنا ووجدنا بها كمية وفيرة من الذخيرة الملائمة لهذا الفصل ، وهناك عقد بوهيمند اتفاقا مع اثنين [من كبار] المرتزقة ، دفعه حبه لهما واحترامه للمحافظة على سلامة الأرض لإصدار أمره إلى رجالنا برد جميع الحيوانات التى أخذوها نهبا ، وأدركنا بعدئذ بلدة « Rusa » فخرج أهلها الإغريق بأجمعهم للترحيب بنا ،

ومضوا فرحين لتلقى السيد بوهيمند ، حاملين إلينا الكثير من المؤونه ، ونصبنا بها خيامنا يوم الأربعاء [المقدس] السابق لعشاء السيد السرى ، [وذلك يوم أول أبريل] ، وهناك ترك بوهيمند كل جيشه غير مستصحب معه سوى شرذمة ضئيلة من الفرسان ، وخلف تانكريد على رأس جند المسيح ، ولما رأى تانكريد أن الحجاج يشترون الأطعمة تعهد من ناحيته بترك الطريق الأعظم ، وسوق الشعب إلى مكان يستطيع أن يجد فيه الطعام بوفرة ، فتوغل فى واد مجهز بكل ما هو لازم للعيش، واحتفلنا فيه احتفالا عظيما بعيد قيامة السيد [وذلك يوم ١٥ إبريل ١٠٩٧ م] .

٦ — حين علم الأمبراطور بأن بوهيمند وافد عليه أمر بمبالغة الاحتفاء باستقباله ، وإنزاله منزلا كريما خارج المدينة ، حتى إذا استقر حيث شاء بعث [الإمبراطور] إليه يسأله القدوم عليه لمفاوضته على انفراد ، وقد اشترك فى هذه المقابلة أيضا كل من جودفروى وأخيه [بلدوين] ، وحينذاك كان كونت صنجيل قد اقترب من المدينة ، فقلق الإمبراطور أشد القلق وتميز غضبا ، وأخذ يدبر مكيدة تمكنه من تعجيز جند المسيح ، ففكر : أيعمد إلى المكيدة والخداع ؟ غير أن العناية الإلهية صرفت عنهم كل أذى فلم تمكنه هو أو رجاله من إيقاع أدنى ضر بهم ؛ وفى هذا الوقت بالذات [الذى كان فيه بوهيمندوجودفروى بحضرة الإمبراطور] التأم فى مكان آخر شمل جميع الرجال الكرام المولد ، الوافدين على القسطنطينية ، وجزعوا أن يحال بينهم وبين وطنهم ، ورأوا أن لا بد من أن يقسم زعماؤ جيشنا والقوامص العظماء قاطبة يمين الولاء للإمبراطور ، وانعقد إجماعهم على ذلك بعد أن عقدوا مجلسا قلبوا فيه هذه المسألة على شتى وجوهها ، واستعرضوا الخطط الحكيمة ، غير أن البعض رفضوا هذا الطلب قائلين لهم ، إن هذا أمر مزر بنا ، ولا يحق لنا أن نقسم له اليمين مهما كانت الحال ، فلربما يخدعنا زعماؤنا هؤلاء ، فمن ذا الذى يقدر هذا الأمر ؟ وستدفعهم الضرورة للقول حينذاك بأن الإمبراطور

أرادهم — إن طوعا أو كرها — على الخضوع أمام مشيئته » .

وقد وعد الإمبراطور بوهيمند الشجاع — الذى كان يخافه كثيرا لأنه فر أكثر من مرة بجيشه من أمامه — أن يقطعه أرضا وراء أنطاكية تمتد مسيرة خمسة عشر يوما طولا وثمانية أيام عرضا إذا أقسم بوهيمند للإمبراطور يمين الولاء دون رجاء ، وعاهده الإمبراطور أنه لن ينسى أبدا وعده إليه طالما هو مقيم على يمينه له . وإذن فكيف تصرف الفرسان الشجعان القساة ؟ لا شك فى أن الحاجة الملحة كانت تجبرهم على قبول ذلك .

ووعد الإمبراطور من جانبه جميع رجالنا الوفاء بما عاهد ، والطمأنينة إلى ما وعد . بل لقد أقسم هو نفسه أنه سيرافقنا بجيشه برا وبحرا ، وأنه يضمن — فى إخلاص — تموينا على اليابسة وفوق ظهر الماء ، وأنه سيعمل من جانبه على تدارك جميع خسائرنا ، وزيادة على ذلك فإنه لا يحب أن يشعر أحد من الحجاج — وهم فى طريقهم إلى الضريح المقدس — بشىء من الملل أو الضيق .

أما كونت صنجيل فقد أقام بظاهر المدينة فى إحدى الدساكر وبقى جيشه معسكراً فى الخلف ، وبعث الإمبراطور إلى الكونت يطلب منه أن يقسم له يمين الولاء والإخلاص كما أقسم الآخرون ، غير أنه فى اللحظة التى أرسل فيها الإمبراطور هذه الرسالة كان الكونت قد فكر فيما يستطيع عمله للثأر من الجيش الإمبراطورى ، فأفهمه الدوق جودفروى وروبرت كونت فلاندر وبقية الأمراء أن ليس من العدل أن يمتشق الحسام ويستله لمحاربة النصارى ، وأضاف بوهيمند العاقل إلى ذلك قوله « إذا ارتكب [كونت تولوز] أى تعد ضد الإمبراطور وخالف ما تعهد الزعماء له بالوفاء به فإن بوهيمند ذاته سيقف فى صف الإمبراطور » ، فمضى الكونت لاستشارة رجاله ثم عاد فأقسم على احترام حياة ألكسيس وشرفه ، وألا يسمح مطلقا بأية إساءة تناله سواء أكانت من قبله هو أم من قبل أحد رجاله ، لكنه حينما

دعى إلى «الولاء» أجاب إنه لن يستجيب لهذه الدعوة أبدا حتى ولو أدى رفضه إلى قتله . وفى هذه اللحظة بالذات [يوم ٢٦ إبريل ١٠٩٧] كان جيش بوهيمند قد اقترب من القسطنطينية .

٧ — ولكى يتجنب تانكريد وريتشارد الرئيس القسم الإمبراطورى عبرا البسفور سرآ مستصحبين معهما جلة جند بوهيمند ، وسرعان ما بلغ جيش كونت صنجيل القسطنطينية ومكث الكونت بها هو ورجاله ، أما بوهيمند ، فقد بقى لدى الإمبراطور ليتشاور وإياه حول ما يتخذ من الوسائل لتيسير تزويد القوات الموجودة فيما وراء نيقية ، وذهب الدوق جودفروى أولا إلى نيقوميديا مع تانكريد ومع الآخرين ولبثوا بها ثلاثة أيام .

ولما أدرك الدوق أن ليس أمامه من طريق يستطيع أن يقود فيه هذه القوات إلى نيقية لأن الطريق الذى عبره الصليبيون الأوائل فى البداية لم يكن ميسرا لجماعة كثيفة العدد كهذه الجماعة — لما أدرك الدوق ذلك أرسل ربيئة فى ثلاثة آلاف رجل مسلحين بالفئوس والسيوف ، وكلفهم بتعبيد هذا الطريق وتوسيعه ليتمكن حجاجنا من المسير فيه إلى نيقية ، فشقوا طريقا عبر مضايق أحد الجبال الضخمة ، وفى أثناء عملهم هذا صنعوا صلبانا من الحديد والخشب رفعوها على صوى لتكون دليلا يسترشد به حجاجنا ، ومن ثم وصلنا قرب نيقية عاصمة كل بلاد آسيا الصغرى وذلك فى اليوم السادس من مايو [١٠٩٧ م] ، وأقمنا هناك معسكرنا .

وقبل وصول السيد بوهيمند عدمنا الخبز ، حتى لقد كان الرغيف الواحد يباع بعشرين أو ثلاثين قرشا ، فلما قدم بوهيمند العاقل جلب معه بطريق البحر ذخيرة وفيرة ، وتوالت الإمدادات على اليابسة والماء ، فعم الفرح العظيم جيش المسيح .

٨ ــ وفى يوم صعود السيد [أعنى يوم ١٤ مايو ١٠٩٧م] شرعنا فى مهاجمة المدينة من جميع نواحيها وبناء كباش وأبراج خشبية لنتمكن من هدم أبراج المنطقة ، وتمكنا فى خلال فترة يومين من الاقتراب من المدينة بشجاعة وحماسة حتى قوضنا حيطانها وأسوارها . أما الترك الذين كانوا فى المدينة فقد بعثوا رسالة لمن قدموا لنجدة البلد وختموها بقولهم « اقتربوا بجسارة وفى اطمئنان وادخلوا من الباب القبلى لأنكم لن تجدوا فى هذه الناحية أحدا ما أمامكم يزعجكم . »

وفى اليوم ذاته [١٦ مايو] أعنى يوم السبت الذى تلى صعود السيد احتل هذه الناحية [القبلية] كونت صنجيل وأسقف بوى ، أما هذا الكونت القادم من ناحية أخرى والذى ترعاه العفة الربانية ويزهى بأسلحته الدنيوية فقد خرج على رأس جيشه الباسل ، وكر على الترك الذين كانوا يتقدمون نحونا ، ولما كان [ريموند] مسلحا من جميع الجهات بعلامة الصليب فقد اشتد فى الهجوم عليهم وتمكن من قهرهم والظهور عليهم فلاذوا بالفرار مخلفين وراءهم كثيرين من الموتى ، غير أن جماعة أخرى من الترك أقبلوا لنجدة الأولين ونفوسهم تفيض بالسرور والفرح بالنصر المحقق ، وكانوا يجرون الحبال ليسحبونا مصفدين بها إلى خراسان ، ولما كانوا فى شدة النشوة فقد شرعوا فى النزول بالتتابع من ذروة تل مرتفع ، لكنهم كانوا كلما نزلوا واستقروا فى مكان ضربت أعناقهم بأيدى رجالنا الذين أخذوا يضعون رءوس القتلى فى المقاليع ثم يقذفونها إلى المدينة ليبثوا الذعر بين سكانها الأتراك .

بعد ذلك أخذ كونت صنجيل وأسقف بوى يتشاوران حول اصطناع وسيلة تمكنهم من هدم برج قائم أمام معسكراتهم ، واتفقوا على إنفاذ فريق

من الرجال لهدمه يحميهم حاملو الأقواس ورماة النشاب . فنهض الرجال لما ندبوا له وشرعوا فى الحفر حتى بلغوا أساس السور ، وكوموا الكتل والخشب ثم أضرموا فيها النيران ، فلما أقبل المساء انهار البرج ، غير أن الجميع كفوا عن متابعة القتال حين أرخى الظلام سدوله ، فاغتنم الترك الفرصة وخرجوا بقطع من الليل ورمموا الحائط ترميما قويا ، حتى لقد كان من المستحيل — حين تنفس النهار — أن ينالهم منا أدنى أذى من تلك الناحية .

سرعان ماوصل روبرت دوق نرمنديا والكونت إيتين وكثيرون غيرهم ثم روجر دى بارنفيل ، فحاصر بوهيمند المدينة من إحدى نواحيها ، ووقف إلى جانبه تنكريد ، ثم أقبل الدوق جودفروى وكونت فلاندر يعاونه [دوق] نرمنديا ثم الكونت صنجيل ومعه أسقف پوى ، وكان الحصار البرى بالغ الشدة حتى لم يستطع أحد ما الخروج من المدينة أو الدخول إليها ، وفى هذه اللحظة وقف الجميع وقفة رجل واحد ، فمن ذا الذى يستطيع إحصاء جيش المسيح . هذا الجيش القوى ؟ أظن أنه لم يتأت ولن يتأتى لأحد ما أن يبصر مثل هذا العدد الكثيف من الفرسان وهم فى غاية التأهب والاستعداد !

بيد أنه كان يوجد فى إحدى نواحى المدينة بحيرة عظيمة [هى بحيرة إسنك] قد أرسى الترك فيها قواربهم ، ومن ثم كان فى قدرتهم الخروج والعودة محملين بالعلف والخشب وغير ذلك من الغلات ، وبعد أن عقد زعماؤنا مجمعا للتشاور فيما بينهم أرسلوا إلى القسطنطينية الرسل وكلفوهم دعوة الإمبراطور لإنفاذ السفن إلى ميناء [شفتوت] وطلبوا إليه أن يأمر بجمع الثيران وسوقها عبر الجبال والغابات إلى مقربة من البحيرة ، وسرعان ماتم ذلك فى الحال وأرسل الإمبراطور فى الوقت ذاته مرتزقته [بقيادة مانويل بوتوميتس] ؛ ولم ير القوم إنزال القوارب فى الماء يوم وصولها بالذات بل أنزلوها البحيرة حين أقبل الليل ، فاعتلاها المرتزقة وهم فى كامل سلاحهم ، فلما تنفس الفجر شوهدت القوارب الصغيرة وهى فى أحسن نظام تجذف وسط البحيرة متجهة

صوب المدينة ، فما كادت عيون الترك تقع على هذا المنظر حتى استولت عليهم الحيرة وتساءلوا « أتراها لقومهم أم لرجال الإمبراطور ؟ » ولم يلبث الرعب القاتل أن تملكهم حين أيقنوا أنهـــا قوة إمبراطورية ، وانفجروا باكين منتحبين ، بينما كان الفرنجة فرحين يمجدون الرب .

ولما أيقن الترك فى النهاية أنهم لن يستطيعوا تلقى أية نجدة من جيوشهم بعثوا إلى الإمبراطور سفارة تعلنه تسليمهم البلد من تلقاء أنفسهم إذا سمح لهم بالعودة بنسائهم وأطفالهم وجميع ما يملكون ، فازدهى الإمبراطور غروراً ودفعه سوء الطوية إلى الامر بإخراجهم سالمين ، وإرسالهم آمنين مطمئنين إلى القسطنطينية ، وعاملهم باللين ليكونوا على أتم أهبة لنصب الكمائن للفرنجة ووضع العقبات فى سبيلهم .

استمر هذا الحصار سبعة أسابيع وثلاثة أيام [من ٦ مايو إلى ٢٦ يونيو ١٠٩٧ م] واستشهد فيه كثير من رجالنا وصعدت أرواحهم الطاهرة إلى الله مغتبطة جذلى ، ومات كثير من الفقراء جوعا فى سبيل تمجيد اسم المسيح ، وصعدت نفوسهم منتصرة إلى السماء مرتدية ثياب الشهادة[١] [البيضاء] وهى تهتف جميعها فى صوت واحد « حتى متى أيها السيد القدوس الحق لا تقضى وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض ؛ أنت يا من تستحق مدائحنا جيلا بعد جيل ، لك المجد[٢] . آمين ! » .

---

(١) راجع رؤيا يوحنا اللاهوتى ، ٦ : ٩ ، ١١ ؛ ٧ : ٩

(١) رؤيا يوحنا اللاهوتى ، ٦ : ١٠

— ٣ —

زحف الصليبيين فى آسيا الصغرى

وقعة دوريليم (أول يوليو ١٠٩٧ م).

٩ — فى هذه الأثناء — وقد استسلم البلد — كان الترك سائرين إلى القسطنطينية، وكان الإمبراطور قد فرق كثيرا من الصدقات على فقرائنا،[١] وتزايدت فرحته لعودة [نيقية] إلى سلطانه.

وفى اليوم الأول لمغادرتنا البلد وصلنا إلى جسر استرحنا عنده مدة يومين، وفى اليوم الثالث استيقظ رجالنا قبل انبلاج تباشير الفجر حيث كان الليل لايزال مرخيا أسداله على الكون، ولم يستطيعوا شق نفس الطريق معا فانقسموا فريقين كانت المسافة الفاصلة بينهما تقدر بمسيرة يومين، ولقد رحل مع الفريق الأول بوهيمند وروبرت دوق نرمنديا وتنكريد العاقل وكثيرون غيرهم؛ أما الفريق الآخر فكان فيه كونت صنجيل والدوق جودفروى وأسقف بوى وهيج الكبير وكونت فلاندر وكثيرون غيرهم.

وفى اليوم الثالث كر الترك كرة عنيفة على بوهيمند ورفاقه، وشرع الأعداء يصرون على أسنانهم ويصرخون صرخات عاليه مدوية، وهم يرددون بلسانهم كلمة[٢] شيطانية لا أعرفها، فلما رآى بوهيمند الحكيم هذه الكثرة من الأتراك مدفوعين وهم يزجرون فى صوت من به مس من الشيطان بادر إلى إرجال الفرسان من على دوابهم، وأسرع فى نصب خيمته التى قبل أن يتم إقامتها أعاد قوله على جميع الفرسان « أيها المبجلون ويافرسان المسيح

(١) وزع الأمبراطور كثيرا من الصدقات والخلع على الفقراء والفرسان على السواء. راجع Foucher, p. 333; Epistulae et Chartae, p. 145.

(٢) تشير الحوليات هنا الى عبارة « الله أكبر »، يدل على ذلك ما أورده Raoul de Caen, p. 636 حيث ذكر أن المسلمين كانوا يهتفون بقولهم « "Alla Chibar".

الأشاوس ، هانحن أولاء الآن فى انتظار المعركة الفاصلة وقد أحدق العدو بنا من كل جانب ، ومن ثم فليمض الفرسان قدما إلى اليمين فى شجاعه ، وليبادر الرجالة إلى نصب الخيام وليكن رائدهم العقل » .

أحاط بنا الترك من كل جانب حين تم ذلك كله وأخذوا فى قتالنا ورمينا بالحراب وتصويب النبال إلينا من مسافة بعيدة عجيبة ، وعلى الرغم من عدم قدرتنا على مقاومتهم وعجزنا عن احتمال وطأة هذا العدد الغفير من الأعداء أجمعنا أمرنا على الخروج لصدهم ، حتى إن نساءنا عاوننا فى ذلك اليوم معاونة عظمى بحمل الماء لرجالنا كى يشربوا ، ولم ينقطعن عن حثهم على القتال والدفاع . ولم يتأخر بوهيمند العاقل عن أن يطلب من الآخرين — وأعنى بهم كونت صنجيل والدوق جودفروى وهيج الكبير وأسقف بوى وبقية فرسان المسيح — الإسراع والمبادرة للسير إلى القتال قائلا لهم « من شاء أن يساهم اليوم بنصيب فى الصراع فليقدم مصلاتا غير خوار » . وسرعان ما كان الدوق جودفروى المعروف بإقدامه وشجاعته وهيج العظيم أول القادمين بقواتهما ، ولم يلبث أسقف بوى أن تبعهما بجنده ، ثم تلاه كونت صنجيل فى جيش كثيف .

استولت الدهشة على رجالنا فراحوا يفكرون من أين تمكن من الخروج هذا العدد العظيم من الترك والعرب والشرقيين وغيرهم ممن يستحيل إحصاؤهم ، فقد ملأ هذا الجنس الملعون كافة المرتفعات والجبال والأودية والسهول ما كان منها داخل المدينة وخارجها ، وجرت بيننا محادثة سرية قلنا فيها بعد حمد الرب والمشاورة « فلنتحد بكل وسيلة فى سبيل دين المسيح ومن أجل نصر الصليب المقدس ، لأنكم إذا أرضيتم الرب اليوم انقلبتم أغنياء موفورى الثراء » .

لم يلبث شمل مقاتلينا أن التأم وانتظمت الصفوف ، وكان على الجناح الأيسر كل من بوهيمند العاقل ، وروبرت النرمندى وتنكريد الفطن ، وروبرت

دى أنزا ، وريتشارد الرئيس؛ وتقدم أسقف بوى من مرتفع آخر للإحداق بالترك والكفرة ؛ وكان على الجناح الأيسر كذلك الفارس المشيع الجنان « ريموند كونت صنجيل » ؛ وعلى الميمنة الدوق جودفروى والفارس المقدام كونت فلاندر وهيج العظيم وكثيرون ممن أجهل أسماءهم .

وعند اقتراب فرساننا بادر الترك والعرب والشرقيون والغلمان[١] وجميع الشعوب البربرية إلى الهرب السريع من مضايق الجبال ومنافذ السهول ، وكان عدد الترك والفرس والرعاع والشرقيين والغلمان وغيرهم من الوثنيين يبلغ ثلاثمائة وستين ألف مقاتل ، هذا عدا العرب الذين لا يعرف عددهم غير الله ، وفروا مسرعين إلى خيامهم ، بيد أنهم لم يستطيعوا اللبث بها طويلا إذ ما لبثوا أن تابعوا الهرب ونحن فى آثارهم نقتل فيهم طيلة يوم كامل ، وأصبنا غنيمة من الذهب والفضة والخيل والحمير والجمال والمواشى والثيران وأشياء كثيرة غير تلك مما نجهلها ، وما كان لأحد من رجالنا أن ينجوا هذا اليوم لولا وجود السيد معنا فى هذه المعركة ولولا أنه أرسل إلينا على جناح السرعة الجيش الآخر [جيش كونت صنجيل ورفاقه] ، فقد استمر القتال من غير انقطاع من الساعة الثالثة إلى التاسعة ، إلا أن الرب العظيم الحنون الرحيم لم يرض بهلك فرسانه أو وقوعهم فى أيدى أعدائهم ، فبعث إلينا هذه النجدة على جناح السرعة ؛ لكن قتل فى هذا اليوم اثنان من فرساننا الشرفاء هما جودفروى دى مونت سيكيابوزو ، ووليم بن المركيز أخو تنكريد ، كما مات كثيرون من الفرسان والمشاة الذين أجهل أسماءهم .

فمن هذا الحكيم العالم الذى يجرؤ على وصف لباقة الترك ومواهبهم الحربية ومقدار بسالتهم ؟ لقد كانو يظنون أنهم يخيفون أمة الفرنجة بتهديدهم

(١) أوثر كلمة « الغلمان » العربية ترجمة لكلمة Angulani اللاتينية ، لاسيما وأن مسيو بريه يقول عن الأنجولان فى تفسيره لها “un corps de troupe de l’ armée Turque.” أما المراجع العربية كابن القلانسى فكثيرا مايرد فيها لفظ « الغلمان » ويقصد به فريق من العسكر يستعان به فى الحرب ، ولم أجده مستعملا قبل هذا التاريخ فيما بين يدى من المراجع العربية .

إياهم بنبالهم كما أخافوا العرب والشرقيين والأرمن والسريان والإغريق ، لكن إذا أراد الرب ألا يتغلبوا على رجالنا فلن يستطيعوا إلى الغلبة سبيلا .
ولقد كان حقاً ماقيل من أنه لا يجوز لأحد ما أن يسمى بالفارس إن كان من غير الفرنجة أو الترك (١) ، وسأقول الحقيقة ولن يستطيع أحدما مناقضتى ، وهى لو أنهم آمنوا إيماناً تاما بالمسيح واتبعوا النصرانية المقدسة ، ولو تأتى لهم أن يعترفوا برب واحد فى ثلاثة أقانيم وهو ابن الله المولود من العذراء ، الذى تألم ثم قام من بين الأموات وصعد إلى السماء أمام أعين تلاميذه ، وأرسل التعزية الكاملة بالروح القدس ، ولو تأتى لهم أيضاً أن يؤمنوا إيمانا صادقا عادلا بأن له الحكم فى السماء والأرض (٢) لما وجدنا شخصا ما يمكن أن يساويهم فى القوة والشجاعة وفن القتال .
وشاءت إرادة الرب أن يلاقوا الهزيمة على أيدى رجالنا . وكانت هذه الوقعة يوم أول يوليو .

— ٤ —

زحف الصليبيين على أنطاكية

عبورهم آسيا الصغرى وذهاب بلدوين وتنكريد إلى طارس .
عبور أرمينيا الصغرى وإقليم كبادوشيا .
بلوغهم أبواب أنطاكية

---

١٠ — بعد انهزام الترك — أعداء الرب والمسيحية المقدسة — هزيمة تامة وهروبهم مدة أربعة أيام وأربع ليال سويا جاء الخبر بأن زعيمهم سليمان بن

(١) تشير الوثائق هنا إلى الأسطورة التى تزعم أن الفرنجة والترك منحدرون من نبعة تورانية .
(٢) إشارة إلى قانون الإيمان الكاثوليكى .

سليمان الأكبر قد فر إلى نيقية ، حيث صادفه عشرة آلاف عربى فقالوا له : « أيها الشقى ، ويا أتعس الخلق جميعا ، ما الذى دفعك على الهروب ؟ » فأجابهم سليمان « حين انهزم الفرنجة من قبل كنت أحسب أننى سآخذهم مكبلين مأسورين ، ولما أردت تقييدهم جماعة بعد أخرى ، ونظرت إلى الوراء أبصرت شعبا كثيف العدد أكثر من الدبا ، ولو تأتى لكم أنتم وغيركم أن تكونوا مشاهديهم لرأيتم جموعهم تغطى كافة الجبال والتلال والوديان والسهول ، ولم نكد نراهم حتى استبد بنا الفزع الشديد وتابعنا المسير ، وكدنا أن نلقى أنفسنا بين أيديهم من فزع الخوف وهوله ، فإن كنتم مصدقى فيما أقول فارحلوا من هاهنا لساعتكم لإنهم لو عرفوا خبر قدومكم لما بقى أحد منكم حيا » فلما سمعوا قوله هذا ولوا الأدبار وتشعب صدعهم وانسابوا فى كل نواحى آسيا الصغرى .

أما نحن فلم نكف عن تعقب أولئك الترك الطغاة الذين كانوا يفرون كل يوم من أمامنا[١] ، وكانوا كلما بلغوا بلدا أو مكانا حصينا كذبوا على سكانه ومكروا بهم قائلين لهم « لقد هزمنا جميع المسيحيين ، وكان نصرنا عليهم عظيما حتى إنه لن يجرؤ أحد ما منهم أبدا على الوقوف أمامنا ، فدعونا ندخل عندكم » ، ولا يكادون يدخلون البلد حتى يسلبوا الكنائس وينهبوا البيوت وكل ما يصادفهم ، كما يغتصبون من أهله الجياد والحمير والبغال وجميع مالديهم من الذهب والفضة ، وكل ما يتأتى لهم ، وينطلقون بأبناء النصارى ويأتون على كل ما يستطاع الانتفاع به حرقا أو هدما ،... كل ذلك وهم يفرون من ملاقاتنا ويفزعون منا ، وقد تتبعناهم عبر الصحارى والأراضى التى خلت من الماء والحياة فحاق بنا الخطر ، وكدنا ألا نخرج أحياء[٢] ، وبلونا شدة الجوع وقسوة الظمأ ، ولم نجد ما نمسك به رمقنا سوى الشوك

---

(١) كان هذا بعد راحة يومين ، راجع Foucher, p. 336.

(٢) يلاحظ هنا أن هذه الوثائق هى التى تنفرد من بين جميع ما كتب فى تلك الناحية بذكر الطريق الذى سار فيه الصليبيون .

الذى كنا نقتلعه ونسحقه بأكفنا ، فكان هو الطعام الذى عشنا عليه ونحن فى أشد حالات الضنك ، وقد نفق هنا معظم جيادنا حتى اضطر الكثيرون من فرساننا للترجل ودفعنا نقص المطايا إلى استعمال الثيران بدلا من جياد القتال . وفى وسط هذه الحاجة الملحة استعملنا الماعز والخراف والكلاب لحمل متاعنا .

دخلنا بعد ذلك منطقة خصيبة تفيض بالمأكولات والأطايب وتزخر بشتى أنواع الحياة ، واقتربنا من قونية التى أشار علينا أهلها بأن نحمل معنا كميات أخرى وفيرة من المياه لأننا سنفتقد الماء فلا نجده طوال مسيرة يوم كامل ، وبلغنا كذلك نهرا عسكرنا عنده مدة يومين ، وشرع أعداؤنا فى التقدم أمامنا حتى أفضوا إلى ناحية هرقل حيث كان هناك فريق من الترك متأهبين لملاقاة جند المسيح والبحث عن الطريق المؤدية لإيذائهم ، أما جند الرب القوى فقد رأوا هؤلاء الترك واستبسلوا فى الهجوم عليهم ، وحملوا فى ذلك اليوم أيضا على عدونا الذى أسرع فولى مدبرا غير مقبل أشبه بسهم قد انطلق من قوسه إثر ضربة قوية صائبة . وسرعان ما اقتحم رجالنا المدينة ولبثنا بها أربعة أيام (١) .

وهناك انفصل تانكريد بن المركيز عن الآخرين ، وحذا حذوه الكونت بلدوين أخو الدوق جودفروى ، ودخلا معا وادى Bothrentot ، ثم رحل تانكريد وحده على رأس فرسانه وانطلق بهم حتى بلغ مدينة طرسوس فغادرها الترك وهبوا لدفعه متجمعين فى كتلة واحدة وتهيأوا لقتال النصارى ، فلما تدانى رجالنا لحربهم لاذ العدو هاربا وارتد على أعقابه إلى المدينة مسرعا ، غير أن تانكريد فارس المسيح ثنى عنانه المضروب وضرب معسكره أمام باب المدينة .

ومن ناحية أخرى وصل الكونت بلدوين (٢) مع جيشه سائلا تانكريد

---

(١) هى المدة من ١٠ سبتمبر ١٠٩٧ إلى ١٣ منه .

(٢) حوادث هذه الفترة واردة بتفصيل أدق فى Raoul de Caen, p. 629-641; Albert d' Aix, p. 342-350.

أن يأذن له بمقاسمته المدينة ، فأجابه تنكريد « إننى أرفض كل قسمة معك » ، فلما أرخى الليل سدوله فر جميع الترك المذعورين ، وحينذاك تستر سكان المدينة بالظلام الدامس وخرجوا هاتفين بصوت عال « بادروا أيها الفرنجة المنتصرون ، بادروا فإن الترك الذين اضطربوا خوفا قد انصرفوا جميعا فى آن واحد » .

ولما تنفس الصباح قدم أشراف البلد وسلموا المدينة من تلقاء أنفسهم وقالوا للمتنازعين حول هذا الموضوع « أقصروا أيها السادة أقصروا ، إننا نطلب إليكم ونسألكم أن تسودوا علينا هذا الأمير [تانكريد] الذى استبسل أمس فى محاربة الترك » . إلا أن الكونت بلدوين المحبوب احتج وحاج تانكريد بقوله « فلندخل المدينة معا وننهبها ، وليقم على حراستها من يصب النصيب الأوفى ، وليحتلها من يستطيع غزوها ! » فعاد تانكريد الشجاع يقول « ما أبغض هذا المسلك إلى نفسى وأبعدها عنه ، إننى لا أريد ان اسلب النصارى ، ولقد اختارنى رجال هذه المدينة أميرا عليهم وهم لا يريدون سواى » ، ثم لم يشأ تانكريد الشجاع ان يذهب اكثر من هذا فى مناضلة الكونت بلدوين ذى الجيش القوى ، وترك المدينة طوعا أو كراهية وأرتد بشجاعة مع جيشه ، وسرعان ما استسلمت له مدينتان هامتان هما أذنة والمصيصة ، كما دان له كثير من الحصون .

١١ — ومع دلك فإن الجيش العظيم وريموند كونت صنجيل وبوهيمند الحذاقى والدوق جودفروى وكثيرين غيرهم قد دخلوا بلاد الأرمن ظمآنين إلى دماء الترك متعطشين لها ، وأفضى بهم السير أخيرا إلى حصن شديد المناعة وقفوا حياله عاجزين ، وكان يقيم فيه رجل اسمه « سيمون » من أهل البلد فسألهم ان يكلوا إليه امر الدفاع عن تلك البقعة من الأرض ضد محاولات أعدائه من الترك ، فمنحه الفرنجة إياها ، وأقام بها مع أبناء جنسه .

ثم غادرنا تلك الناحية ووصلنا — ناعمى البال — إلى « قيصرية » من أعمال كبادوشيا ، ثم رحلنا إلى مدينة عظمى وفيرة الغنى كان الترك قد أقاموا على حصارها مدة ثلاثة أسابيع قبل قدومنا ، إلا أنهم عجزوا عن التغلب عليها ، بيد أننا ما كدنا نبلغها حتى بادرت إلى الاستسلام لنا وهى فرحة أشد الفرح ، وقام أحد الفرسان واسمه بطرس الألبوسى Petrus de Alpibus وسأل جميع السادة أن يقطعوه إياها ليدافع عنها بكل ما وسعه الإخلاص من أجل الرب والضريح المقدس وفى سبيل السادة والإمبراطور ، فانعقد الرضاء بالإجماع على إقطاعه إياها .

فلما كانت الليلة التالية علم بوهيمند أن الترك الذين كانوا يحاصرون هذه المدينة كادوا أن يسبقونا إلى دخولها ، فما لبث بوهيمند أن تأهب هو وفرسانه وحدهم دون سواهم لمطاردتهم أنى كانوا ، إلا أنه لم يتهيأ له مصادفتهم .

بلغنا بعد ذلك مدينة تسمى Coxon ، وكانت زاخرة بمواد المئونة التى كنا فى مسيس الحاجة إليها ، وسرعان ما أوطأنا مسيحيوها فناءهم واستسلموا لنا ، فلبثنا بينهم ثلاثة أيام ونحن وإياهم فى وفاق وفى أرغد حال ، واستطاع رجالنا أن يستردوا عافيتهم تمام الاسترداد .

ولما علم الكونت ريموند بارتداد الترك القائمين على حراسة أنطاكية أطبق تدبيره هو ومشاوروه على إرسال بعض فرسانه للمبادرة إلى احتلالها ومن ثم اختار أولئك الذين أراد أن يكل اليهم أمر هذه المهمة وأعنى بهم الفيكونت بطرس القشتالى ، ووليم دى مونبليه ، وبطرس دى روبيه ، وبطرس ريموند دوتبول ، واستصحبوا معهم خمسمائة فارس ، فساروا جميعا فى واد واقع بإحدى ضواحى أنطاكية حتى بلغوا حصن الـ Publicains ، وهناك تناهى إليهم الخبر باحتلال الترك للمدينة وباستعدادهم للاستبسال فى الذود عنها ، فانفصل بطرس دى روبيه عمن معه ، حتى إذا كان مساء اليوم التالى — وقد اقتربوا من أنطاكية — دخل وادى الروج ووجد به فريقا من

الترك والشرقيين فناجزهم القتال ، وفتك بثلة كبيرة منهم ، ثم قص الباقين فى عنف ، وما كاد سكان هذه الناحية من الأرمن يرون عظم الهزيمة التى أنزلها [بطرس] بالكفار حتى أذعنوا له ، ودانت له «رويحا» وكثير من الحصون.

أما نحن الذين بقينا فى « جاكسو » فقد غادرناها وتوغلنا فى جبل مفزع يضرب بقنته إلى السماء ، هذا إلى ضيق مسالكه ضيقا بالغا ، وسرنا فى الطريق المجاور له ، ولم يستطع أحدنا مزاحمة الآخر فى التقدم ؛ وكانت الجياد تسقط فى الأدوية ، وكل فرس حمولة يجر فرسا آخر ، وارتسمت دلائل الحزن على الفرسان أجمعين ، وأخذوا يلطمون أنفسهم بأيديهم غما وكربا ، وتدبروا ما يصنعون بأنفسهم وأسلحتهم ، فراحوا يبيعون تروسهم ومجناتهم وخوذاتهم لقاء مبلغ يتراوح بين ثلاث وخمس دانيات أو بما يكاد لا يساوى شيئا ، أما العاجزون عن بيعها فراحوا يطرحونها عن كواهلهم دون ما ثمن ثم يتابعون سيرهم.

ولما خرجنا من هذا الجبل البغيض وصلنا [يوم ١٣ اكتوبر سنة ١٠٩٧م] إلى بلدة تسمى « مرعش » ، نخف سكانها لاستقبالنا فرحين غاية الفرح ، وحملوا إلينا ذخيرة وفيرة ، ولقد كنا فى العدد الجم ، وأقمنا بها منتظرين وصول السيد بوهيمند.

أخيرا بلغ فرساننا وادى (العاصى) الذى تقوم فيه مدينة أنطاكية الفخمة ، عاصمة كل بلاد الشام قاطبة ، التى أعطاها السيد عيسى المسيح إلى بطرس أمير الحواريين ليرجعها إلى عبادة الدين المقدس ، وهو الذى ذهب وحكم مع الله الآب فى عالم الروح القدس ، له المجد دائما ، آمين !

— ٥ —

بدء حصار أنطاكية

بدء الحصار وأخذ حصن حارم . المجاعة فى معسكر الصليبيين .

---

١٢ — جرت عادة عدائينا على سبقنا دائما ، فلما اقتربنا من جسر الحديد وجد أولئك العداءون أمامهم جماعة قوية من الترك يغذون المسير لنجدة أنطاكية ، فلم يكن منهم إلا أن هاجموا الأتراك يداً واحدة وقلباً واحدا ، وكتبت لهم الغلبة عليهم بعد أن قذفوا الرعب فى قلوب أولئك البرابرة الذين لاذوا بأذيال الفرار ، كالقى الكثيرون منهم مصرعهم فى هذه الوقعة ، ولما كان لواء النصر قد عقد على مفرق رجالنا فقد أصابوا بفضل رعاية الرب إياهم غنيمة هائلة من الخيول والجمال والبغال والحمير المحملة بالطعام والشراب .

وأخيراً وصل رجالنا إلى شاطىء نهر [العاصى] وعسكروا عنده ، وفى الحال ذهب بوهيمند العاقل مع أربعة آلاف فارس وعسكر أمام أحد أبواب المدينة كى لا يمكن أحداً من دخولها خفية أو مغادرتها سراً تحت جنح الظلام ، وفى اليوم التالى بلغوا أنطاكية ، وكان بلوغهم إياها ظهر اليوم الرابع من البطالة الذى هو اليوم الثانى عشر قبل أول نوفمبر ، فحاصرنا ثلاثة أبواب من أبواب المدينة حصاراً عجيبا . ولم نجد مكانا ميسراً لضرب الحصار على الناحية الباقية بلا حصار لأننا كنا مكتنفين بجبل شامخ الذرى لم يترك لنا غير شعب بالغ الضيق .

أما أعداؤنا الترك الذين كانوا داخل المدينة فقد استولى عليهم الجزع منا استيلاء شديداً أبقاهم خمسة عشر يوما جامدين لا يحركون ساكنا ، ولم يجرؤ أحد منهم على مهاجمة فرد ما من جماعتنا ، ولم نكد نضرب معسكراتنا حول

أنطاكية حتى وجدنا فى هذه الناحية كمية بالغة الوفرة من الأعناب الناضجة ، ومخابىء مملوءة بالقمح ، وأشجاراً مثقلة بما حملت من أنواع الفاكهة ، كما عثرنا على شتى ضروب الأطعمة الصالحة للأكل .

أما الأرمن والسوريون الذين كانوا داخل المدينة فقد دأبوا على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالفرار والمجىء إلينا ، بينما بقيت نساؤهم فى المدينة ، وكانت عادتهم أن يتقصوا حالنا وخبر موقفنا ثم يحملون كل شىء إلى أولئك المحاصرين الذين أغلقت عليهم منافذ المدينة ومسالكها ، فلما ألم الترك كل الإلمام بجميع مايتعلق بنا ووقفوا على خبرنا شرعوا يغادرون المدينة سراً على مهل ، ومضوا يحدقون بحجاجنا ، ولم يكونوا يتربصون لنا فى ناحية واحدة بل كنا نجدهم مختفين فى كل الجهات ، فآونة نلقاهم فى طريقنا إلى البحر ، وآونة أخرى نصادفهم فى طريقنا إلى الجبل .

وعلى كثب من هذه الناحية كان يوجد حصن يسمى حصن « حارم » ، قد كمن فيه عدد جم من أبسل الأتراك الذين طالما أقضوا مضاجع رجالنا ، فلما علم قادتنا بذلك اشتد جزعهم وصاروا يقدمون أمامهم كثيرين من فرسانهم لكشف الجهة التى ينزل بها الأتراك ، فاذا ماتحقق فرساننا الذين يفتشون عنهم من المكان الذى يكمنون فيه مضوا لملاقاتهم ، وأخذ رجالنا يتقهقرون تباعا أمامهم إلى حيث البقعة التى كانوا يعرفون أن بوهيمند يعسكر فيها هو وجنده ، ولقى اثنان من رجالنا مصرعهما فى هذا الارتداد ، فلما صك هذا النبأ سمع بوهيمند اندفع هو ورجاله ، فكان بطل المسيح الأشوش ، واستبسل المتبربرون فى دفعهم وكانوا فئة كبيرة بالنسبة لرجالنا القلائل ، ومع ذلك فقد احتدم القتال بين الفريقين وقتل الكثيرون من أعدائنا وأسر غيرهم وسيقوا إلى باب المدينة حيث ضربت أعناقهم أمامه مبالغة فى زيادة آلام من بداخلها ونكالا بهم .

أما الآخرون فقد غادروا المدينة وتسلقوا أحد الأبواب وأخذوا يفوقون إلينا نبالهم التى راحت تتساقط فى ناقلة معسكر بوهيمند تساقط المطر ، وأصيبت امرأة برمية قوس جندلتها .

١٣ — التأم شمل مقدمينا وراحوا يتشاورون فيما بينهم وقالوا « لنبن قلعة على قمة جبل « مرقب » لنأمن على أنفسنا من الترك ولتطمئن قلوبنا فلا نعود نخشاهم » ، وما تم بناء الحصن وتقويته حتى تناوب زعماؤنا حراسته واحدا بعد الآخر .

لكن حدث قبل عيد ميلاد السيد المسيح أن شح القمح وأخذت جميع المواد فى النقصان ، وأصبحنا لا نكاد نجرؤ على مغادرة المعسكر ، وعدنا لانجد فى منطقة المسيحيين شيئا مايمكن أن نقتات به ، زد على ذلك أنه ما كان فى أحد منا الجرأة على اقتحام أرض المسلمين إن لم يكن فى النفر العديد والحشد الكثيف ، واذ ذاك عقد سادتنا مجلسا تشاوروا فيه حول اصطناع الوسائل اللازمة لحكم شعب كبير العدد كهذا الشعب ، فانعقد إجماعهم بعد التشاور على أن يبادر فى الحال فريق من رجالنا إلى الذهاب لجمع الأقوات ولضمان حماية الجيش من ضربة تأتيه من الخلف ، كما اتفقوا على أن يظل الباقون فى المعسكر لحراسته ، ثم قال بوهيمند « أيها السادة ، وأيها الفرسان الفطنون : إننى ذاهب مع كنت تولوز إذا شئتم هذا ورأيتموه خيراً » .

وبعد أن احتفوا احتفاءا شديد الفخامة بعيد الميلاد خرجوا يوم الاثنين ثانى أيام البطالة فى أكثر من عشرين ألف فارس وراجل ، ودخلوا سالمين آمنين منطقة المسلمين ، وكانت تزخر بالترك والعرب والشرقيين القادمين من بيت المقدس ومن دمشق وحلب وغيرها من البلدان لشد أزر حامية أنطاكية ولما علموا أن هذا الجيش المسيحى زاحف على بلادهم تأهبوا لمحاربة النصارى وما كادت فحمة الليل تتلاشى أمام خيوط الفجر حتى كانوا قد بلغوا الناحية التى تجمعت فيها قوتنا ، وانقسم أولئك المتبربرون قسمين تقدم أحدهما أمامنا والآخر خلفنا قاصدين بذلك أن يحدقوا بقواتنا من جميع النواحى ، إلا أن كونت فلاندر الهمام ، المسلح بإيمانه وبشارة الصليب الذى كان يدفعه إخلاصه له للدأب على حمله ، كر عليهم فى الوقت الذى هاجم فيه بوهيمند ، وهكذا أغار

رجالنا جميعا غارة رجل واحد على العدو الذى سرعان ما انطلق هاربا وأدبر موليا إيانا ظهره ، تاركا خلفه كثيرين من القتلى ، فاستولى رجالنا على جيادهم وسواها من الغنائم ، أما أولئك الذين استطاعوا النجاة من القتل فقد أغذوا الهرب وحق عليهم « الهلاك الأبدى » . أما نحن فقد عدنا مسرورين نسبح ونمجد الرب الذى هو فى نفس الوقت ثالوث واحد ، والذى له الملك الآن وإلى الأبد أمين .

— ٦ —

حصار أنطاكية

هجوم الترك على الصليبيين وحملة التموين . فرار بطرس الناسك
ووليم النجار . رحيل تاتيكيوس . انتصار بوهيمند
على الترك قرب بحيرة أنطاكية .

١٤ — خرج الترك أعداء الرب والمسيحية المقدسة الموجودون داخل أنطاكية لحراستها حين ترامى إليهم الخبر بأن السيد بوهيمند وكونت فلاندر متغيبان عن الحصار ، وقدموا واشتبكوا معنا فى قتال عنيف وكانو يؤثرون مهاجمة النواحى الضعيفة ، ولما كانوا يعرفون تمام المعرفة أن هذين الفارسين الفطنين بعيدان عنا فقد صمموا على مهاجمتنا والقضاء علينا يوم الثلاثاء (٢٩ ديسمبر ١٠٩٧م) .

سرى أولئك المتبربرون المخيفون بقطع من الليل وانقضوا علينا بشدة وفتكوا بعدد كبير من فرساننا ومن مشاتنا الذين تراخوا فى حماية أنفسهم ، وفى هذا اليوم المشئوم مات أسقف بوى الذى كان يقود بنفسه كتيبته ويشرف عليها بذاته ، ولو لم يكن النهر فاصلا بيننا وبينهم لكان الأرجح أن يهاجمونا وينكبوا جماعتنا بنكبات جسيمة .

حينذاك غادر بوهيمند العاقل هو وجيشه منطقة الشرقيين وبلغ جبل

تنكريد عساه أن يجد هناك أى شىء يستحق مشقة الأخذ ، وذلك لأن الناحية كلها كانت قد نهبت ، ووجد البعض هناك بعض الفقاع ، وعاد الآخرون صفر الأيدى ، فأنبهم بوهيمند العاقل بهذه العبارات : « أيتها الفئة المنكودة الشقية ويا أحط المسيحيين قاطبة ، ما الذى دعاكم لسرعة الارتداد ؟ لقد كان عليكم أن تصبروا وتتريثوا حتى يلتئم شملنا وألا تكونوا كالقطيع تغدون بلا راع مخافة أن يجدكم أعداؤكم مشردين فيثبون عليكم ويقتلونكم ، لأنهم يترقبونكم ليلا ونهارا مؤملين أن يروكم بلا قائد يدبر أموركم ، فيهاجموكم على انفراد أو مجتمعين ويعملون على سوقكم أسرى » وما كاد يفرغ من خطابه هذا حتى انكفأ هو ورجاله إلى معسكرهم وهم أزهد ما يكونون فى الغنيمة .

وحين رأى الأرمن والسريان أن رجالنا عادوا وهم يكادون أن يكونوا صفر الأيدى ، تجمعوا للتجول فى الجبال وفى الإقليم الذى تكلمنا عنه يفتشونها تفتيشا دقيقا ، ويشترون الحنطة والأطعمة ويرسلونها إلى المعسكر الذى كانت المجاعة العظمى قد ضربت أجرانها عليه ، فكانوا يبيعون حمولة الحمار بثمانيـة .hyperpres (purpuratis) أى بما يعادل ١٢٠ دنيـة ، فمات الـكثيرون من رجالنا الذين عجزوا عن دفع هذا الثمن الفاحش الارتفاع .

انسل وليم النجار وبطرس الناسك سرا حين ألمت بنا هذه النكبة الجسيمة وحاق بنا ذلك الضيق البالغ ، فمضى تنكريد فى آثارهما ورجع بهما وهما فى غاية الخزى ، فأقسما له الأيمان المغلظة بأنهما سوف يرجعان طواعية إلى المعسكر وأنهما سيعتذران للسادة ، وبقى وليم طول الليل فى فسطاط بوهيمند مقيد الطرف إلى الأرض وهو أذل من المهانة ، فلما تنفس صباح اليوم التالى مثل أمام بوهيمند وقد احمر خجلا ، فخاطبه بوهيمند بقوله « أيها الشقى يا خزى فرنسا ويا عار جميع العالمين وآثمهم ، ويا أشقى من حملته الأرض ؛ لماذا هربت على هذه الصورة المخزية ؟ أتراك كنت تريد خيانة هؤلاء الفرسان وتسليم جيش المسيح للـكفرة كما صنعت بغيرهم من قبل فى إسبانيا ؟ » فلزم

وليم الصمت ولم تنفرج شفتاه قط عن أية كلمة ، فاجتمع الفرنسيون جلهم تقريبا متوسلين إلى السيد بوهيمند ألا يشتد أكثر من هذا فى إيلامه . فأجاب سؤلهم وقال « إن حبي إياكم يحملنى على تلبية طلبكم عن رضا خاطر إذا أقسم لى قسما خالصا من قلبه وروحه ألا يحيد عن طريق بيت المقدس سواء فى الفرج أو فى الضيق ، وكذلك إذا قبل تنكريد ورجاله العفو عنه » . فلما سمع تنكريد هذه العبارة رضى عن طيب خاطر ، وسرعان ما رده بوهيمند ؛ على أنه حدث فيما بعد أن افترس الخزى وليم النجار ، فما لبث أن هرب واختفى .

اشتد الفقر والبؤس اللذان أدخرهما الرب لنا جزاء خطايانا إذ لم يعد فى الجيش كله من الفرسان أصحاب الجياد السليمة سوى ألف فارس ، إلا أن الخبر ترامى إلى عدونا « تاتيكوس » بأن جيوشاً من الأتراك زاحفة علينا فاستبد به الفزع الشديد ، ولما كان قد رأى القتل قد استحر فى كثير من رجالنا وسقوط الكثيرين منهم فى أيدى أعدائنا فقد أخذ ينتحل شتى الافتراءات الكاذبة فقال « أيها السادة ، وأيها الرجال الحكماء . انظروا ما نحن فيه من بالغ الضيق ، لقد عدمنا النجدة وضاقت بنا السبل ، فدعونى إذن أعود إلى وطنى بيزنطية ، وكونوا على ثقة من أنى سأحضر إليكم هاهنا ببحر لجى من السفن المحملة بالحنطة والنبيذ والشعير واللحم والطحين والجبن وكل ما تحتاجونه ، وسأبعث إليكم بالجياد للبيع ، وستصلكم الذخيرة إلى هنا عبر الأرض الموالية للإمبراطور ، وأقسم لكم على صدق هذا كله ، وأن أهل بيتى وفسطاسى لباقون فى المعسكر هم الآخرون ، وكونوا واثقين من رجوعى إليكم على جناح السرعة . »

ولما ختم هذا العدو كلامه مضى مخلفا بالمعسكر كل ما يملكه ، وهو حانث فى يمينه وسيظل حانثا فيه ، وكنا إذ ذاك فى أشد حالات الضنك ، إذ ضيق الترك علينا الخناق من جميع الجهات ضيقا لم نجرؤ حياله على مغادرة خيمنا ، فكابدنا مجاعة هددتنا بالفناء ، وعدمنا كل مساعدة وكل نجدة ، وهرب الرعاديد والفقراء إلى قبرص وإلى سلطانية الروم ، كما فر بعضهم إلى الجبال ، وكان خوفنا

من الترك المفسدين قد جردنا من الجرؤة على الذهاب إلى البحر الذى لم يكن لنا مهرب سواه .

١٧ — حين علم الدوق بوهيمند بأن حشدا كثيفا من الترك لايحصيه العد زاحف علينا اقتضاه ماانطبع عليه من الحكمة التفتيش عن الآخرين ، وقال لهم « أيها السادة ويا أيها الفرسان العقلاء ، ترى مانحن فاعلون ، إننا لسنا بالكثرة التى تمكننا من محاربته ونحن منقسمون إلى معسكرين ، لكن هل تعرفون ما نحن فاعلون ؟ سننقسم إلى فريقين فيبقى المشاة لحراسة الخيام ، وسيتمكنون تمكنا تاما من التغلب على حامية المدينة ، أما الفرسان فيلازموننا ليواجهوا أعداءنا الذين نصبوا معسكرهم على كثب منا عند حصن حارم وجسر الحديد » .

ولما جاء المساء خرج بوهيمند العاقل من معسكره مع الفرسان الآخرين الفطناء ، وأمضى الليل فيما بين النهر والبحيرة ، ولما تنفس الفجر بعث النفائض ربيئة له لتستطلع عدد الكتائب التركية ومواضعها وأعمالها ، فانطلقوا لطيهم يفتشون كدأبهم فى الأماكن التى أقامت فيها القوات التركية ، وأخيراً رأوا أتراكا كثيرين قادمين من ناحية النهر مقسمين إلى كتيبتين . وكانت قوتهم الرئيسية فى المقدمة ، فعادت الطلائع على جناح السرعة قائلة « إنهم هناك ، لقد جاءوا فاستعدوا جميعاً لأنهم آخذون فى الاقتراب منا » وقال بوهيمند العاقل للآخرين « أيها السادة وأيها الفرسان الذين لايقهرون ، أعدوا صفوفكم للقتال » فأجابوه « إنك عاقل ، وإنك فطين ، وإنك عظيم وفخم أنت المحارب الباسل ، ياليث المعارك ويارب الوقائع ، افعل مابدالك فقد وكلنا الأمور إليك ، ولننجز نحن وأنت كل ماتراه صالحا . »

حينذاك أمر بوهيمند أن يرتب كل زعيم من الزعماء فريقه تنظيما تاما ، ففعلوا ماأمروا وكونوا ست فرق ، انضمت خمس منها بعضها إلى بعض لمهاجمة العدو ، وأخذ بوهيمند يتراجع بفريقه على مهل إلى الوراء ، واستبشر رجالنا إذ اشتبكوا مع العدو ، والتحمت كل فئة بفئة ، وتعالت الصيحات إلى السماء ،

وتقاتلوا جميعا ، وحجب الجو وابل من النبال الهطالة .

ولما أقبل الجزء الأكبر من جيشهم الذى كان مقيما فى الخلف هجموا هجوما عنيفا على رجالنا الذين أخذوا يتقهقرون شيئا فشيئا ، فلما رأى بوهيمند العالم هذا المنظر تألم ، ودعى إليه حامل علمه روبرت ابن جيرارد وقال له « اذهب بأسرع ما يمكنك وأنت أبسل رجل ، وتشجع فى سبيل نجدة دين الرب والمذبح المقدس ، واعلم أن هذه الحرب ليست حربا شهوانية بل هى حرب روحية ، وكن أشجع صنديد يعمل من أجل المسيح ، رافقتك السلامة ، وليرعك السيد أينما كنت » ، ولما أحاط نفسه من جميع الجهات بعلامة الصليب اندفع كالأسد الذى حبس عن الأكل ثلاثة أيام أو أربعة وخرج من كهفه مبرىا ظامئا لدماء القطعان ، وكر لساعته وسط ميدان الوغى معملا القتل فى هذه النعاج التى فرت هنا وهناك ، ثم صار وسط صفوف الترك واشتد فى مطاردتهم ، حتى إن أضواء علمه كانت تبرق فوق رءوسهم .

أما المقاتلون الآخرون فسرعان ما أمسكوا عن الارتداد حين رأوا علم بوهيمند يتقدم أعلام الآخرين ، وكروا جميعا كرة رجل واحد على الترك الذين فروا مندهلين ، فأخذ رجالنا فى تعقبهم وإعمال القتل فيهم حتى بلغوا جسر الحديد ، إلا أن الترك سرعان ما عادوا إلى معسكرهم واستولوا على كل ما تمكنت أيديهم منه ، وحين تم لهم سلب جميع ما به أضرموا فيه النيران وانثالوا هاربين ؛ ولما علم الأرمن والسريان أن الدائرة قد دارت على الترك خرجوا من قراهم ، وتربصوا لهم فى الممرات فقتلوا وأهلكوا عددا كبيرا منهم .

وهكذا شاءت إرادة الرب أن يهزم أعداؤنا فى ذلك اليوم ، ومضى رجالنا فاستردوا الجياد وغيرها من الأشياء العدة التى أفادتهم كثيرا ، وحملوا إلى باب المدينة مائة رأس من القتلى حيث نصبت خيام رسل حاكم بابليون الوافدين على ساداتنا ، أما المحاربون الذين بقوا فى المعسكر فقد شغلوا طول يومهم بقتال حامية أنطاكية أمام ثلاثة أبواب من أبواب المدينة ، وقد جرت

هذه الوقعة يوم الثلاثاء [٩ فبراير ١٠٩٨] السابق لبدء الصوم الكبير، كل ذلك برعاية سيدنا يسوع المسيح الذى ذهب وحكم مع الآب والروح القدس، له الحكم إلى الأبد. آمين.

— ٧ —

حصار أنطاكية من ٩ فبراير إلى ٨ مارس ١٠٩٨.

الحملة على السويداء. تشييد حصن المحمرة.

---

١٨ — عاد رجالنا بفضل رعاية الله غالبين، واستبشروا بنصرهم الذى آتاهم إياه فى ذلك اليوم، أما أعداؤنا المغلوبون على أمرهم فقد هزموا هزيمة ساحقة ودأبوا على الهروب، فضلوا هنا وهناك، ومضى بعضهم إلى خراسان، وانطلق البعض إلى أرض المسلمين، ولما رأى زعماؤنا أن حامية البلد آخذة فى التحرش بنا والاقتراب منا فقد سهروا ليلهم ونهارهم باحثين عن الناحية التى قد يمكن تلك الحامية مباغتتنا منها، لذلك راحوا يتشاورون فى الأمر وقالوا: «يجب علينا قبل أن نقدم على حرب تودى بجماعتنا أن نبنى حصنا على المحمرة الواقعة أمام باب المدينة حيث يوجد الجسر، ومن هناك ربما استطعنا بدورنا تضييق الخناق على عدونا».

فوافق الجميع على هذا الرأى واستصوبوا المشروع استصوابا عظيما، وكان كونت صنجيل أول من تكلم فقال: «أمدونى بالمساعدة اللازمة لإعادة بناء هذا الحصن، وسأحصنه وأحميه»، فأجابه بوهيمند «وإنى سأمضى معك — إذا قبلت وقبل الآخرون — إلى باب سمعان لجمع الرجال القادرين على إنجاز هذا العمل [من أهل جنوة البحريين الذين قدموا يوم ١٧ نوفمبر ١٠٩٧] أما من يبقون هنا فسوف يعملون على تحصين جميع الجهات للدفاع عنه». وكان أن تم ما اتفقوا عليه.

عند ذلك رحل الكونت وبوهيمند إلى باب سمعان ، أما نحن الذين انضم بعضنا إلى بعض وصرنا جماعة واحدة فقد أخذنا نعمل فى بناء الحصن ، وإذا بالترك قد استعدوا للخروج وقدموا علينا لمحاربتنا ، وكروا علينا كرة دفعت رجالنا إلى الهرب ، وقتل منهم الكثيرون مما سبب لنا جزعا عظيما .

ولما رأى الترك فى اليوم التالى [٦ مارس ١٠٩٨] تغيب زعمائنا وعلموا أنهم خرجوا بالأمس قاصدين الميناء ، جمعوا شملهم ومضوا لصد من كانوا قادمين من ناحية الميناء ، فلما أبصروا الكونت بوهيمند على رأس هذه القوة صروا على أسنانهم واندفعوا مزمجرين زمجرة هائلة ، ثم أحدقوا برجالنا ينضحونهم بالنبال والسهام ، فجرحوهم وقتلوهم فى قسوة ، وهجموا على رجالنا هجوما عنيفا اضطروهم للفرار إلى الجبل الشاهق وإلى كل ناحية حسبوها تعصمهم منهم ، ولم تقيض الحياة إلا لمن تهيأ له الاختفاء بالهرب السريع ، أما من عجز عن الفرار فقد لاقى حتفه . واستشهد فى هذا اليوم أكثر من ألف من مشاتنا وفرساننا ، وفى إيماننا أنهم صعدوا إلى السماء حيث لبسوا ثياب الاستشهاد البيضاء .

أما بوهيمند فلم يتبع نفس الطريق الذى ولجوه ، بل سرعان ما انقلب راجعا مع فريق من الفرسان إلى حيث كنا نحن مجتمعين . واشتد بنا الغضب لمصرع رجالنا ، فهتفنا باسم المسيح ، مؤملين بلوغ الضريح المقدس . وضممنا صفوفنا إليهم ، واتفقنا على أن ننازل العدو وأن نكون جميعا يدا واحدة فى الهجوم عليه ، وأبدى أعداء الرب ورجالنا ما أذهل وأرعب ، فكان الترك يعتقدون أننا سنغلب على أمرنا وأنهم سيقضون علينا كما قضوا على قوات الكونت وبوهيمند . لكن الرب القوى لم يمكنهم من ذلك ، فقد هاجم جمعَهم فرسانُ الإله الحق — المسلحون بعلامة الصليب — هجوما عنيفا دفعهم إلى الفرار عن طريق الجسر الضيق حتى بلغوا مدخل المدينة ، أما الذين أسعفهم الهرب بعبور الجسر أحياء وهم فى حشد كثير من الرجال والجياد فقد لاقوا فى هذه البقعة الموت ، وذهبوا إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته .

ولما تم النا الظهور على الترك أخذنا فى تضيق الخناق عليهم ودفعناهم شطر النهر وألقيناهم به ، فاصطبغت أمواجه السريعة بدمائهم،وكان أحدهم إذا شرع فى تسلق أعمدة الجسر أو حاول السباحة لبلوغ الأرض تناوشته سهام رجالنا الذين كانوا يغطون شاطىء النهر ، ودوى الأفق بضجيج صيحاتهم وصياح رجالنا حتى بلغ عنان السماء ، وانهل وابل من السهام والنبال حجب ضوء النهار أن يلمحه الطرف ، وبرزت نساء المدينة المسيحيات على شرفات الأسوار يرقبن سوء منقلب الترك ، وكن يصفقن وهن فى مخبأهن ، ونزل الأرمن والسريان فأخذوا ينضحوننا بالنبال — طائعين أو كارهين — على أمر زعماء الترك . وفى هذه الوقعة لاقى اثنا عشر أميرا من أمراء الترك حتفهم ، كما قتل كثيرون من أفطن المحاربين وأشجع المقاتلين الذين كانوا يعدون من خيرة المدافعين عن المدينة ، وقد بلغ عددهم ألفا وخمسمائة رجل، أما من بقو أحياء فلم يعودوا يجرأون على التهليل أو الصراخ سواء بالليل أو بالنهار كما جرت عاداتهم ، ولم يحل بيننا وبينهم سوى مقدم الليل، وهو الذى منع الفريقين من المحاربة واستعمال الحراب والسيوف والسهام ، وبذلك تمكنا بقوة الرب والضريح المقدس من قهر أعدائنا الذين فقدوا ما كان لهم من قبل من القدرة على الهتاف والعمل ، وفى هذا اليوم أصبنا كمية كبيرة من الذخيرة النافعة لاسيما الجياد .

وفى اليوم التالى [٧ مارس] عند مستهل النهار غادرت المدينة فئة أخرى من الترك وجمعت ماصادفته على شاطىء النهر من جيف قتلاها ، ثم أخذتها وقبرتها فى المحمرة الواقعة خلف الجسر أمام باب المدينة ، ودفنوا مع هذه الجثث جببا وبزنطيات وقطعا من الذهب وقسيا وسهاما وغير ذلك من الأشياء التى لا نعرف لها أسماء ، ولما علم رجالنا أن الترك قد لحدوا موتاهم ، جمعوا عدتهم وهبوا مهطعين مسرعين إلى تلك المقبرة الشيطانية ، وأمروا بتحطيم القبور ونبشها وطرح الجثث بعيدا عن الأضرحة، ورموا بها جميعا فى خندق حفروه

لها ، كما حملوا الرؤس المقطوعة إلى المعسكر ليعرف القوم عدد القتلى ، هذا عدا الرؤس التى وضعوها على أربعة جياد من جياد رسل خليفة مصر الفاطمى وأرسلوها ناحية البحر ، فلما رأى الترك هذا المنظر ران على قلوبهم الحزن المقيم ، وكانوا كل يوم يبكون قتلاهم ، ولم يعد لهم عمل سوى النحيب والعويل.

وفى اليوم الثالث [أعنى يوم ٨ مارس ١٠٩٨] انضم بعضنا إلى بعض — ونحن فى شدة الفرح — لبناء الحصن المشار إليه بالأحجار التى انتزعناها من مقابر الترك ، ولم يكد يتم بناؤه حتى شرعنا فى التضييق من كل ناحية على أعدائنا الذين تلاشى زهوهم ، أما نحن فقد ذهبنا فى غاية الطمأنينة إلى الميناء وإلى الجبل نسبح ونحمد ربنا الذى له المجد والشرف إلى الأبد ، آمين .

— ٨ —

نهاية حصار أنطاكية والاستيلاء عليها

(من ٨ مارس إلى ٣ يونيو ١٠٩٨)

تانكريد يحتل حصنا بجرى المدينة ويسد جميع المسالك على المحاصرين . المفاوضات بين بوهيمند وفيروز. الاستيلاء على أنطاكية .

---

١٩ — أغلقنا جميع المخارج أمام الترك وسددناها عليهم ، وتركنا ناحية النهر التى كان بها حصن واحد ودير منفرد ، ولو أننا كنا جهزنا هذا الحصن بالقوة الكافية لما جرأ أحدهم على مغادرة أى باب من أبواب المدينة ولسدت جميعها فى وجوههم ، واجتمع رجالنا للتشاور فيما بينهم ، وانعقد رأيهم على قولهم « لنختر واحدا منا للاستيلاء بالقوة على هذا الحصن ، وليحول بين أعدائنا وبين بلوغ السهل والدنو من الجبل ، وكذلك لسد كل السبيل المؤدية إلى المدينة » ، فكان تنكريد أول من تقدم الآخرين وقال « إذا كنت أعرف أية فائدة أجنيها فإننى سوف أحتل الحصن مع رجالى وحدهم ، وسأدفع العدو بعنف عن الطريق الذى كثيرا ما جرت عادته على مداهمتنا منه » وفى الحال أمدوه بأربعمائة قطعة من الفضة .

رحل تنكريد مع فرسانه ومشاته الأبطال [يوم ٥ أبريل] ، وسرعان ما أخذ جميع السبل على الأتراك أخــذا قويا حتى إنهم — وقد أذهلهم الجزع — لم يجرؤا على فتح أحد أبواب المدينة لجمع الكلأ والخشب أو أية غلة من الغلات اللازمة لهم ، وبقى تنكريد هنالك مع رجاله ، وبدأ فى محاصرة المدينة من جميع النواحى .

وفى اليوم ذاته أقبل من الجبال إلى المدينة فريق كبير من الأرمن والسريان وهم فى غاية الاطمئنان ، حاملين الذخيرة إلى الترك ، والأقوات للمدينة ، فهب تنكريد لصدهم وأسرهم واستولى على جميع مامعهم من القمح والنبيذ والشعير والزيت وأمثالها ، كذلك أظهر تنكريد غاية القوة وجاء بالعجائب ، ذلك أنه قبل سقوط أنطاكية سد جميع المخارج أمام الترك واحتلها.

وإنه لمن المستحيل على أن أقص جميع مافعلناه قبل استيلائنا على المدينة كما أنه لا يمكن لأحد ما ممن كانوا فى تلك النواحى دينيين كانوا أودنيويين أن يكتب أو يقص بالتمام كيف سارت الأمور ، ومع ذلك فسأروى هنا الشىء القليل منها .

٢٠ — كان هناك قائد تركى الجنس اسمه فيروز ، قد توثقت بينه وبين بوهيمند عرى الصداقة المكينة ، وطالما تبادلا الرسائل فيما بينهما فرسخت المودة بينهما وأحله بوهيمند منزلة الود فى نفسه ، ووعده مقابل هذا أن يرحب به إذا هو اعتنق النصرانية ، وراح يغريه بالشرف العظيم والثروة الوافرة . فوثق فيروز بتلك الأقوال وهاتيك العهود وقال له « إننى أقوم بحراسة ثلاثة أبراج ، وإننى أعدك بها عن طيب خاطر ، وسأسلمك إياها يوم تشاء » .

انشرح صدر بوهيمند حين وثق من دخوله المدينة واطمأنت نفسه ، ثم دنا من السادة الآخرين ثابت الجنان مستبشرا وقال لهم : « أيها الفرسان الفطنون ، عليكم أن تتبصروا المتربة والشقاء اللذين نحيا فيهما صغارا وكبارا ولا ندرى من أين تأتينا النجدة ، ومن ثم فلعله يرضيكم ويشرفكم أن يقوم

أحدنا فيتقدمنا جميعا عسى أن تساعده إحدى الوسائل أو يمكنه فنه [الحربى] من الاستيلاء على المدينة أو شن الهجوم عليها بمفرده أو بمعرفة الآخرين ، وحينئذ نجمع الرأى على تملكه إياها » ،غير أن هؤلاء السادة لم يقبلوا عرضه وخالفوه بقولهم له : « لن نقبل أن ينفرد واحدمنا وحده دون الآخرين بامتلاك هذه المدينة ، بل سنقابلهم جميعا فيما بيننا بالتساوى ، ولما كنا جميعا قد ساهمنا فى هذا العمل فلابد من أن نتقاسم شرف الاستيلاء عليها » ، فلما سمع بوهيمند هذه الكلمات افترت شفتاه عن بسمة خفيفة وانصرف لساعته .

ولم نلبث غير قليل حتى تلقينا أنباء اقتراب جيش أعدائنا الترك والرعاع والأرمن وغيرهم من الشعوب ، وسرعان ما اجتمع زعماؤنا وتشاوروا فيما بينهم قائلين : « إذاقدر لبوهيمند التغلب على المدينةوحده أو بمعونة الآخرين فعلينا أن نوليه إياها عن طيب خاطر ، على أنه إذا قدم الإمبراطور لنجدتنا حسب الاتفاق الذى أبرمه معنا وأقسم لنا عليه ، فإننا سنرد إليه المدينة بمقتضى العهد ، ولو كانت فى حوزة بوهيمند نفسه » .

حينئذ شرع بوهيمند فى ملاحقة صديقه بطلباته اليومية ، مغريا إياه بكل ضروب الرعاية والكسب الجزيل ، قائلا له : « لقد دنت اللحظة الملائمة التى تستطيع فيها إتمام مااعتزمنا عليه ، وذلك بأن تقوم ياصديقى فيروز بالمساعدة التى وعدتنى بها » ، وسر فيروز وصرح بأنه سيعاونه بما ينبغى عليه .

وفى الليلة التالية [ليلة ٢ — ٣ يونيو] بعث فيروز ابنه إلى بوهيمند ليكون رهينة عنده تأكيدا له على أنه مدخله البلد ، وأنفذ معه هذه الرسالة « عليك أن تستدعى غدا كل جيش الفرنجة ، وأن تتظاهر بالذهاب إلى المنطقة التى يسكنها المسلمون لتخريبها ، ثم تنكفىء على عجل عبر الجبل القائم على اليمين ، أما أنا فسأعنى بمراقبة هذه القوات وسأنتظرها وأتلقاها فى الأبراج التى فى حوزتى وتحت إشرافى » .

وفى الحال استقدم بوهيمند أحد مشاته واسمه مال كرون Male Coronus

وطلب إليه كداعية للحرب أن يدعو جيش الفرنجة العظيم للتأهب لدخول أرض المسلمين ، وكان أن تم له ما أراد ، وعهد بوهيمند بتنفيذ هذه الخطة إلى الدوق جودفروى وكونت فلاندر وكذلك كونت سنجيل وأسقف بوى قائلا لهم « ستستسلم أنطاكية الليلة إذا لاحظتنا عناية الرب » .

ولقد تم كل شيء كالآتى : فقد تجمع الفرسان فى السهل ، وأقام على الجبل جماعة المشاة الذين دأبو على السير طوال الليل بعضهم فى أثر بعض حتى تنفس الفجر ، ثم اقتربوا من الأبراج التى ظل حارسها يغط فى نومه طيلة ليله ، فترجل بوهيمند وأصدر تعاليمه إلى جميع من معه قائلا لهم : « امضوا قدما مطمئنين متحدين ، واصعدوا بالسلم إلى أنطاكية التى ستكون سريعا إن شاء الله فى يدنا » فظلوا سائرين حتى بلغوا السلم المنصوب المثبت تثبيتا قويا إلى أسوار المدينة ، فارتقاه زهاء ستين رجلا من رجالنا ، وانبثوا بين الأبراج التى يشرف عليها فيروز ، الذى دب الخوف إليه وخشى على نفسه وعلى رجالنا من الوقوع بين يدى الترك ، وذلك حين أبصر الصاعدين هنا لا يعدون أن يكونوا ثلة ضئيلة ، فصاح بهم « ما أقل الفرنجة ! أين إذن بوهيمند الشجاع ؟ أين هذا الذى لا يقهر ؟ » وفى هذه اللحظة بالذات نزل سرجند لمباردى واندفع إلى بوهيمند قائلا له : « ماذا تفعل هنا أيها الرجل الفطن ؟ وما الذى دعاك للقدوم إلى هنا ؟ ، أما ترانا قد كدنا أن نستولى على ثلاثة أبراج ! » فأثارته هذه الكلمات ، فانضم إلى الآخرين ووصل الجميع مستبشرين إلى السلم .

ما كاد الذين بالأبراج يلمحون هذا المنظر حتى تعالى هتافهم وهم فى نشوة وسرور قائلين « هكذا أراد الله » ، وصحنا نحن نفس الصيحة ، وعندئذ بدأ التسلق العجيب ، ثم بلغوا القمة وأخذوا يكرّون على الأبراج الأخرى وهم يقتلون كل من يعثرون عليه ، فكان من القتلى أيضاً أخو فيروز ، غير أن السلم الذى صعدنا عليه تحطم ، مما أحزننا وأوقعنا فى كرب شديد ، وعلى الرغم من تحطم السلم إلا أنه كان يوجد على يسارنا باب مغلق لا يدرى أحد عنه شيئا ، فلما

أقبل الليل أخذنا نتحسس هذا الباب فى الظلام ، وأفضى بنا البحث عنه إلى العثور عليه ، فتسابقنا جميعا نحوه وحطمناه ودخلنا المدينة منه ، وفى هذه اللحظة بالذات دوت صيحة مجلجلة فى جميع أرجاء المدينة ، فلم يضع بوهيمند أية دقيقة بل أمر برفع رايته المجيدة على رابية مواجهة للقلعة ، وعندما تنفس الصباح ترامى الخبر الخطير الذى أرجفت به المدينة إلى من كانوا لا يزالون مقيمين فى معسكراتهم ، فخرجوا مسرعين ، ورأوا راية بوهيمند تخفق على أحد المرتفعات ، وسرعان ما كروا مسرعين ودخلوا المدينة من أبوابها ، وقتلوا من صادفوه بها من الأتراك والمسلمين ، ولم ينج من القتل سوى من تهيأ لهم الفرار إلى القلعة المرتفعة . وخرج جماعة آخرون من الترك من الأبواب ورأوا سلامتهم فى الهروب .

أما رئيسهم ياغى سيان فقد هرب هو الآخر مع كثيرين ممن تبعوه ، وأدى بهم الهرب إلى دخول منطقة تنكريد ولم تكن بعيدة عن المدينة ، ونظراً لتعب جيادهم فقد انكفأوا إلى إحدى الدساكر واعتصموا ببيت من بيوتها ، ولم يلبث سكانها الأرمن والسريان أن عرفوا خبرهم ، وسرعان ما قبضوا على ياغى سيان ، وأطاحوا رأسه وحملوها إلى بوهيمند ، لينالوا حريتهم وبيع نجاده وقراب سيفه بستين بيزنطية .

وقد جرت هذه الحوادث فى اليوم الثالث من يونيو أى خامس أيام البطالة ، وامتلأت جميع شعاب المدينة ومسالكها بالجثث ، حتى لقد أصبح من المستحيل السير فيها نظراً للرائحة النتنة المتصاعدة منها ، ولم يتمكن أحد منا من السير فى الشوارع إلا على جثث الموتى .

— ٩ —

حصار الترك لأنطاكية

من ٥ إلى ٢٨ يونيو سنة ١٠٩٨

وصول أم كربوغا أنطاكية . رسالته للخليفة عن الجيش المسيحى . موقف أم كربوغا وميلها للنصارى . هجوم كربوغا على أنطاكية . قصة الحلم . يمين الزعما الصليبيين . رؤية بطرس بارتلمى . حريق أنطاكية والمجاعة فيها . هروب اتين دى بلوا واتصاله بالإمبراطور . العثور على الحربة المقدسة . سفارة بطرس الناسك وهرلوان إلى المعسكر الإسلامى . انتصار الصليبيين .

---

٢١ — كان كربوغا زعيم جند فارس لا يزال فى خراسان حين تلقى من ياغى سيان حاكم أنطاكية كثيراً من الرسائل يلح عليه فيها أن يبادر لإنقاذه ، لأن محاصرة الفرنجة الأقوياء إياه بأنطاكية أنزلت به شر البوائق ، ولو أن كربوغا أنفذ إليه فريقاً لنجدته لأسلمه ياغى سيان مدينة أنطاكية ، أو لما كان أقل من أن يمنحه منحة عظيمة . وكان كربوغا قد استعد للأمر منذ زمن بعيد ، فجمع جيشاً كبيراً من الترك ما لبث أن زحف به على أنطاكية حيث أذن له الخليفة — زعيمُه الروحى — بمحاربة النصارى . وجاء حاكم بيت المقدس بجيشه لمساعدته ، كما قدم أمير دمشق هو الآخر بجند كثيفين ، وجمع كربوغا جموعاً غفيرة جداً من الوثنيين والترك والعرب والشرقيين والرعاع والأرمن والكرد والفرس والغلمان وغيرها من الأجناس الأخرى التى لا حصر لها ، أما الغلمان فكانوا ثلاثمائة ألف رجل ، وكانوا فى منعة من الرماح والقسى وسواها من الأسلحة للبسهم الحديد هم وجيادهم ، هذا إلى ما طُبِعوا عليه من الاقتصار فى الحرب على حمل السيوف من بين مختلف أنواع السلاح ؛ وقدم الجميع لمحاصرة أنطاكية ، قاصدين تبديد شمل جيش الفرنجة .

ولما صاروا على مقربة من المدينة قابلوا شمس الدولة بن ياغى سيان أمير أنطاكية ، فجرى إلى كربوغا متوسلا إليه باكياً ، مخاطباً إياه بقوله : « أيها الأمير الذى لا يُقهر ، أتوسل إليك أن تقدم لنجدتى لأن الفرنجة أحدقوا بي — وأنا فى قلعة أنطاكية — من جميع الجهات ، وقد أصبحت المدينة فى قبضة أيديهم ، وهم يريدون إخراجنا من أرض سلاجقة الروم ومن الشام بل ومن خراسان ذاتها ، وقد أنجزوا ما أرادوا فقتلوا أبى ، ولا همّ لهم غير القضاء علىّ وعليك وعلى جميع أبناء جنسنا ؛ أما أنا فلا أرقب غير عونك ومساعدتك إياى فى هذا المأزق » .

فأجابه كربوغا : « لا سبيل إلى نجدتى إياك بنفس خالصة ، والعمل صادقاً على إنقاذك من هذا الخطر إلا بتسليمى قلعة [أنطاكية] وجعلها فى يد رجالى ، وإذ ذاك سترى مقدار الصنيع الذى أؤديه لك » .

فأجابه شمس الدولة : « إذا استطعت القضاء على جميع الفرنجة وأسلمتنى رؤوسهم فسوف أعطيك القلعة وأغدو تابعاً لك ، وحينذاك أعد هذه القلعة من أملاكك » .

غير أن كربوغا قال له : « كلا ، ليس الأمر كما تقول ، بل كل شىء مرهون بوجوب تسليمك إياى القلعة » . فأسلمه شمس الدولة القلعة راضياً أو كارها .

وفى اليوم الثالث من دخولنا المدينة [وهو يوم ٥ يونيو] صارت ربيئتهم تحت الأسوار ، وعسكر جيشهم عند جسر الحديد ، وهجموا على أحد الأبراج [القائمة عند مدخل الجسر لحمايته] وقتلوا كل من وجدوه فيه ، ولم ينج واحد منهم من الموت غير زعيمهم الذى وجدناه مقيداً بالسلاسل عقب الموقعة العظمى [التى انتصر فيها كربوغا يوم ٢٨ يونيو] .

وفى اليوم التالى [٦ يونيو] تحرك الجيش الوثنى واقترب من المدينة ، وضرب معسكره بين النهرين ، ولبث هناك مدى يومين ، فلما تسلم كربوغا القلعة دعى

إليه قائدا من قواده يقدر فيه الإخلاص والطيبة والهدوء وقال له : « أريد منك أن تكون وفيا لى فى حراسة هذه القلعة ، لأننى أعرف منذ أمد بعيد قدر وفائك ، وإننى لموكل إياها إليك للعناية بهـــا والمحافظة عليها » ، فأجابه القائد « وددت لو أعفيتنى من هذا الأمر ، ومع ذلك فإننى أقبله على شرط واحد، هو أن أبادر إلى تسليم القلعة للفرنجة لو انتصروا عليك فى وقعة فاصلة»، فأجابه كربوغا « إننى أعرف تمام المعرفة صدقك وحكمتك فى قبول كل ما ستقسم لى على حسن القيام به . . » .

عاد كربوغا إلى جيشه ، وأراد الترك أن يسخروا من الفرنجة ، فجاءوا إليه بسيف رخيص قد علاه الصدأ ، وبقوس مسود ، وبحربة لم تعد صالحة صالحة للاستعمال أخذوها من جماعة من الحجاج الفقراء ، وقالوا له : « هذه هى الأسلحة التى يحملها الفرنجة فى محاربتهم إيانا » ، فابتسم كربوغا وقال لهم: « أهذه هى الأسلحة القوية المشحوذة التى يرمى النصارى إلى التغلب بها علينا فى آسيا، والتى يعتقدون أنهم متمكنون بواسطتها من طردنا إلى ماوراء خراسان وإزالتنا عن تلك الناحية حتى أنهار الأمازون(١) ، أولئك النصارى الذين طردوا إخواننا من آسيا الصغرى ومن أنطاكية : تلك المدينة الملكية والعاصمة العظمى لجميع بلدان الشام ! » .

وبادر فبعث فى طلب كاتبه وقال له « اكتب جميع المراسيم التى ستقرأ فى خراسان وقل فيها : إلى خليفتنا المعظم ، وإلى مولانا الملك الجليل ، الفارس المصلات، وإلى جميع فرسان خراسان الحكماء ، السلام عليكم ، والتوقير لكم ، وبعد فليتهيأ لهم من السعادة والتوفيق الطيب ما يتيح لهم ملأ بطونهم والوعظ فى جميع المناطق والانكباب على حميتهم ومتاعهم ، وإنجاب الذرية الضخمة القادرة على قتال النصارى بشجاعة ، وأخذ هذه الجيوش الثلاثة التى استطعنا

---

(١) جاء فى النص اللاتينى للحوليات قوله «et delere omnia nomina nostra ultra Amaziona flumine» وهو نص غريب ليس له سند جغرافى .

بها قهر فريق من الفرنجة ، والذين يعلمون صفة السلاح الذى يصطنعه الشعب الفرنجى لغزونا ، وليعلم الجميع كذلك أننى أسرت الفرنجة الموجودين داخل أنطاكية ، وأننى احتللت القلعة وصارت فى يدى ، بينما هم موجودون بظاهر المدينة ، وأنهم الآن جميعا فى قبضة يدى ، وسيساقون إلى الموت أو إلى الأسر فى خراسان ، لأنهم يتوعدوننا بالطرد على يد جيوشهم وبالنفى خارج بلادنا كما استطاعوا نفى أبناء جنسنا من آسيا الصغرى والشام ، وإننى لأقسم لكم بمحمد وبجميع أربابنا[1] أننى لن أظهر بحضرتكم ، وأمثل أمامكم ، قبل أن أغزو بحد سيفى القوى مدينة أنطاكية الملوكية وجميع بلاد الشام وآسيا الصغرى وبلغاريا حتى إقليم أپوليا ؛ والمجد لآلهتنا ولكم ولجميع الجنس التركى » . وهكذا كانت خاتمة الرسالة .

٣٢ — أما والدة كربوغا التى كانت مقيمة فى مدينة حلب فقد قدمت على ولدها واستخرطت فى البكاء بين يديه وسألته « يا ولدى : أحقا ما سمعته ؟ » فقال لها « وماذا سمعت ؟ » قالت « علمت أنك ماض لمحاربة جيش الفرنجة . » فأجابها « لقد علمت الواقع ! » فقالت له « استحلفك يا بنى بجميع الأرباب ، وبحق طبيعتك السمحاء أن ترجع عن قتال الفرنجة ، أنت أيها الفارس الذى لا يعرف الهزيمة ، لم يرك أحد قط هاربا أمام أى فاتح ، ولقد طبق الآفاق خبر فروسيتك ، كما أن أبسل الفرسان ليرتجفون أنى كانوا حين يسمعون اسمك ينطق أمامهم ، ونحن نعرف جيدا يا بنى أنك أخو غمرات ومردى حرب ، عركت الحروب وألممت بفنونها ، ولن تستطيع أية أمة — مسيحية كانت أم وثنية — أن تزهو بقوتها فى وجهك ، بل يهرب الجميع إذا ذكر اسمك كما تهرب النعاج أمام زئير الأسد ، ولهذه الأسباب أتوسل إليك يا ولدى

---

(١) هذه رسالة تمخض عنها خيال كاتب الحوليات والخطأ فيها بين ، مما يدل أيضا على جهله المطبق بالدين الإسلامى .

الحبيب أن تستمع إلى نصائحى وألا تحاول مطلقا التفكير فى قتال الأمة المسيحية أو الشروع فى منازلتها » .

فلما سمع كربوغا هذه النصائح الأموية أجابها حانقا « ماذا تقولين يا أماه؟ وما الذى تحكين؟ أتراك مجنونة أم مستك لوثة؟ إن معى كثيرا من الأمراء الذين لا يتوفر مثلهم للمسيحيين : صغارا كانوا أم كبارا » ، فأجابته أمه « يابنى العزيز : إن النصارى لا يستطيعون الوقوف أمامك فى الحرب ، وأعرف أنهم عاجزون عن النهوض لقتالنا ، إلا أن ربهم يحارب دائما فى صفوفهم ، كما أنه يدافع عنهم ويحميهم ليلا ونهارا حماية الراعى لقطيعه ، ولا يرضى لأمة ما أن تمسهم بأدنى سوء أو شـقوة ، وإن إلههم ليؤذى كل متطلع لمقاومتهم مصداقا لما جاء على لسان داود النبى « نشتت الشعوب الذين يسرون للقتال » ، وقوله « أفض رجزك على الأمم الذين لا يعرفونك ، وعلى الممالك التى لم تدع باسمك » ، بل قبل أن يتهيأوا للقتال ترى إلههم القوى الذى لا يقهر قد قضى على جميع أعدائهم بواسطة ملائكته ، واعرف الحقيقة يا ولدى العزيز وهى أن أولئك النصارى يسمون بأبناء المسيح ، وقد جاء على لسان الرسول « إنهم أولاد الموعد » ، وقال الرسول أيضا « إنهم ورثة الله ووارثون مع المسيح » وهم الذين منحهم الرب الميراث الذى وعدهم إياه ، لأنه قال ذلك على لسان أنبيائه . فمن ذا الذى يستطيع معارضة هذه الأقوال أو مناهضتها؟ والواقع أنك إذا بدأت بحربهم بؤت بالخسارة والعار المقيم ، وستفقد كثيرين من فرسانك المخاصين ، وتخلف وراءك كل غنيمتك ، بينما يلاحقك الفزع الشديد ، اجل ، إنك لن تموت فى هذه الموقعة ، بل فى بحر السنة ، ذلك لأن الرب فى غضبه لا يدين فوراً من أساء إليه بل يؤجل حسابه إلى اللحظة التى يشاؤها هو ذاته ، فينتقم منك أفظع انتقام ، ولهذا السبب أخشى أن يراك مستحقا العذاب الشديد ، لكننى أقول لك إنك ستفقد كل ما تمتلكه الآن يداك . »

تأثر كربوغا غاية التأثر بما سمع ، وأجاب أمه على عبارتها قائلا : « يا أمى الغالية أتوسل إليك أن تقولى من الذى قال لك كل هذا القول عن الشعب المسيحى ؟ ومن أنبأك أن ربه يحبه إلى تلك المرتبة حتى يمده بمثل هذه القوة فى القتال ؟ ومن ذا الذى حمل إليك أن الغلبة ستكون لهؤلاء المسيحيين علينا أمام أنطاكية ، وأنهم سيستولون على غنائمنا ويمضون فى آثارنا عقب نصرهم المؤزر علينا ، ومن قال لك إن المنية ستخترمنى فى سنتى هذه ؟ »

فقالت له أمه والحزن يمضها مضا « يا بنى العزيز ، لقد تبين بعضهم منذ أكثر من مائة عام أنه جاء فى كتابات الوثنيين أن الأمة المسيحية ستهاجمنا وسيعقد لها النصر علينا فى كل ناحية ، وأنها ستسود الوثنيين ، وأن شعبنا سيخضع لها ولكننى لست أدرى عما إذا كان مقدراً لجميع هذه الحوادث أن تحدث الآن أم لم يحن زمنها بعد ،، وإننى سأتبعك — والأسى يرمضنى — من حلب : تلك المدينة العظيمة التى استطعت فيها عن طريق التدقيق والبحوث الحاذقة من مطالعة النجوم ومساءلة الكواكب والبروج الإثنى عشر والتنبؤات العدة ، فأنبأتنى كل هذه الظواهر أن الشعب المسيحى سيقهرنا أنى كنا ، وإننى لأضطرب فزعا وحزنا مخافة أن أحرم منك ! »

فأجابها كربوغا « يا أمى الغالية ، أفضى إلى بكل ما يأبى قلبى أن يؤمن به » فقالت له أمه « ما كان لى إلا أن ألبى ذلك الطلب عن طيب خاطر يا ولدى الحبيب لو كنت أعرف الأمور الخافية عليك » ، فقال لها « إن بوهيمند وتانكريد ليسا آلهة الفرنجة ، ولا يخلصانهم من أعدائهم لأنهما يأكلان فى المرة الواحدة ألفى بقرة وأربعة آلاف خنزير[١] » ، فقالت له أمه « يا بنى

---

(١) النص اللاتينى لهذه الترجمة هو : «Non sunt igitur Boamundus et Tancredue Francorum dii et non eos liberant de inimicisuis et quod ipsi manducant in uno quoque prandio II milia vaccas et IV milia porcos» وقد علق الأستاذ بريبه على هذا فى ترجمته الفرنسية بقوله « إن فى هذه الفكرة الساخرة غموضا » ولكن المتأمل للمحادثة بأكملها يرى مقدار ما أعمله خيال صاحب الحوليات فى هذا الحديث الخرافى .

العزيز إن الموت جائز على بوهيمند وتانكريد جوازه على سائر البشر ، إلا أن ربهما فضلهما على غيرهما ومنحهما قوة يحاربان بها الجميع ، ولأن ربهم الرحمن — تقدس اسمه — يقول « إنه صنع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها وإن عرشه موجود فى السماء منذ الأزل ، وبأسه مرهوب فى كل مكان »

فأجابها ابنها « لن أكف عن قتالهم حتى ولو كان الأمر كما تزعمين » . فلما أدركت أمه أنه غير مستجيب لتبكيتها الشديد إياه ، انصرفت عنه وقلبها يقطر حزنا ، وانكفأت راجعة إلى حلب ، حاملة معها كل ما استطاعت حمله من الغنيمة .

٢٣ — وفى اليوم الثالث [وكان يوم ٨ يونيو] لبس كربوغا لامة الحرب ودنى من المدينة فى ثلة كثيفة من الترك ، وجاءوها من الناحية التى تقوم فيها القلعة ، ولما كنا نظن أن فى إمكاننا دفعهم فقد تهيأنا لمحاربتهم ، إلا أنهم أبدوا بأسا شديداً عجزنا حياله عن مقاومتهم ، وبذلنا الجهد الجهيد حتى استطعنا العودة إلى المدينة التى كان بابها شديد الضيق ، حتى لقد مات الكثيرون مخنوقين تحت أقدام رفاقهم .

وفى خامس أيام العطلة كان البعض يحارب خارج المدينة والبعض الآخر داخلها ، وظلوا على تلك الحال طول يومهم هذا حتى تلفع الكون بالظلام ؛ وفى هذه الأثناء استولى الفزع من معركة البارحة التى دامت حتى الغسق على نفس وليم دى جراندميل وأخيه أبرى ، وجى تروسو ، ولامبرت الفقير [كونت كليرمونت] ، فتسربلوا بالظلام وانسلوا تحت جنح الدجى هاربين مصاقبين للسور الموازى لسيف البحر ، حتى لقد عرقت أيديهم وأقدامهم فلم يبق منها سوى العظام ، وصاحبهم فى فرارهم هذا كثيرون لا أعرفهم ، فلما بلغوا السفن الراسية فى ميناء سمعان قالوا لملاحيها « ما تفعلون هنا أيها التعساء ؟ لقد قتل رجالنا جميعهم ولم تكن نجاتنا نحن إلا بعد عسر شديد ، وذلك لأن

الجيش التركى حاصر المدينة من جميع نواحيها ونحن بها » . فلما سمعوا هذا القول اعتراهم الذهول ، ثم مالبث الفزع أن استبد بهم فانطلقوا إلى سفنهم وأنزلوها فى البحر ، فهب الترك فى آثارهم وقتلوا كل من عثروا عليه منهم ، ثم أضرموا النار فى المراكب الراسية فى مجرى النهر واستولوا على أسلابهم .

أما نحن الذين بقينا [فى المدينة] فلم نعد نستطيع احتمال وطأة أسلحتهم ، وأقمنا بيننا وبينهم سدا تناوبنا حراسته ليلا ونهاراً ، وفى هذه اللحظة بالذات بلغ من ضيق الحصار علينا أن اضطررنا لأكل خيولنا وحميرنا .

٢٤ — وفى ذات يوم من الأيام كان زعماؤنا مجتمعين فى أعلا المدينة أمام القلعة وهم فى غاية الحزن ، حين مثل أمامهم أحد القسس قائلا لهم : « أيها السادة ، هل لكم أن تصغوا إلى ما رأيته فى الحلم ؟ بينما كنت الليلة نائما فى كنيسة القديسة مريم والدة سيدنا يسوع المسيح إذ ظهر لى مخلص العالم ومعه أمه وبطرس الطوباوى سيد الحواريين ، واقترب منى قائلا : أو تعرفنى ؟ قلت : كلا ! وحينذاك رأيت صليبا كاملا على رأسه ، فسألنى السيد ثانية « أو عرفتنى الآن ؟ فقلت له « ما كان لى أن أعرفك لو لم أر على رأسك صليبا يماثل صليب مخلصنا » فقال لى : « إننى هو بعينه » ، وفى الحال ركعت على قدميه متذللا متوسلا إليه أن ينقذنا مما ألم بنا من الكوارث ، فأجابنى السيد : « لقد ساعدتكم ، وإننى ماض لمعونتكم ، كما مكنتكم من الاستيلاء على نيقية ، وأخذت بقيادكم حتى وصلتم ها هنا ، وتألمت للمشقة التى كابدتموها أثناء حصار أنطاكية ، وقد استطعتم بفضل مساعدتى إياكم من دخول المدينة سالمين آمنين ، بيد أنكم زنيتم مع نساء فاسدات من النصرانيات والوثنيات ، فتصاعد النتن حتى بلغ السماء » .

وحينذاك ركعت العذراء المقدسة وبطرس الطوباوى على قدميه مستعطفين متوسلين إليه أن يعين شعبه فى محنته هذه التى ألمت به ، وقال له بطرس المبارك : « ياسيد ، لقد طال احتلال الشعب الوثنى لبيتى الذى لقى من جراء هذا الأمر

مساوىء يعجز اللسان عن وصفها ، والآن فلنطرد الأعداء أيها السيد ، ولتفرح الملائكة فى سماواتها » ، فقال لى السيد : « اذهب وقل لشعبي أن ارجع لى وسأعود إليه ، ودونه خمسة أيام سأبعث إليه بعدها نجدة عظمى ، ومره أن يرتل كل يوم هـــذه التسبيحة « هو ذا الملوك اجتمعوا » [1] . والآن أيها السادة إذا خالجكم الشك فى حقيقة ما أقول فأذنوا لى باعتلاء هذا السور وطرح نفسى بيدى فى أسفله ، فإن سلمت فآمنوا بما قلت وإن مسنى سوء ما فاقتلونى أو اجعلونى طعمة للنار » .

حينذاك أمر اسقف پوى بإحضار الأناجيل والصليب ليقسم ذلك القسيس على صدق ما قال ، وفى تلك الساعة اتفق زعماؤنا أن يقسموا بسر القربان المقدس ألا يحاول أحدهم حيا أن يفر أو يهرب من الموت أو يحاول إنقاذ حياته ، ويقال إن بوهيمند كان أول من أقسم ثم تلاه كونت صنجيل فروبرت النرمندى فالدوق جودفروى فكونت فلاندر . أما تانكريد فقد اقسم بأنه لن يتنحى أبدا فى هذه الحرب أو يتخلى عن السير فى طريق الضريح المقدس حتى ولو لم يبق معه سوى أربعين فارساً . فلما تناهى خبر هذه اليمين إلى الجيش المسيحى دبت الفرحة بين رجاله جميعا .

٢٥ — وكان هناك حاج من جيشنا اسمه « بطرس » ، تراءى له القديس أندراوس الرسول قبل دخولنا المدينة ، وقال له « ماذا تفعل أيها الصنديد » فأجابه « وأنت ؟ من أنت ؟ » فقال له الرسول « إننى الحوارى أندراوس ، اسمع يا بنى : حين تدخل المدينة عرج على كنيسة القديس بطرس وستجد بها الحربة التى طعن بها مخلصنا يسوع المسيح حين رفع على الصليب » . ثم اختفى الرسول بعد أن فرغ من هذه العبارة .

ولما كان هذا الرجل [بطرس] خائفا من الجهر بما أشار به الحوارى

---

(١) مزامير ، ٧٤ : ٤ .

عليه فقد أمسك عن مصارحة حجاجنا بذلك القول ، وظن ان ماجرى ليس سوى أضغاث أحلام ، وقال « ياسيدى ترى من يستطيع الإيمان بها؟ » وفى هذه اللحظة بالذات أخذه القديس أندراوس وسار به شطر الناحية التى كانت الحربة مطمورة فيها تحت الأرض .

وفى اللحظة التى كنا موجودين فيها فى الموقف الذى ذكرته آنفا [حين كان كربوغا محاصراً الصليبيين] ، عاد القديس أندراوس إلى بطرس وقال له : « لماذا لم ترفع الحربة من جوف الأرض كما أشرت عليك ؟ ألا فاعلم أن لن يغلب قط قوم يحملون هذه الحربة معهم فى القتال » .

وفى الحال أفضى بطرس إلى رجالنا بالسر الذى استودعه إياه الرسول الحوارى ، فلم يؤمن القوم بما قال بل أنكروه قائلين له : « كيف نعتقد بصحة هذا القول ؟ » ، والواقع أن الخوف كان مستوليا على نفوسهم ، وكانوا يتوقعون الموت بين لحظة وأخرى ، فذهب بطرس إليهم وأقسم لهم أنه صادق فى كل ماقال ، وأن القديس أندراوس تبدى له مرتين وقال له « إنهض وامض إلى شعب الرب وقل له ألا يخشى شيئا ، بل عليه أن يؤمن إيمانا صادقا من كل قلبه بإله حقيق واحد ، وأنه سينتصر فى كل مكان ، وأن السيد سوف يبعث إليه فى الأيام الخمسة التالية برسالة تملؤه فرحاً ونشوة ، وإذا أراد المحاربة فعليه أن يخرج بأجمعه متحدا إلى القتال ، وسيظهر على جميع أعدائه الذين لن تقوم لهم بعد ذلك أبداً قائمة ضده » . فلما سمعوا بأن القضاء التام على عدوهم سيكون على أيديهم تنفسوا الصعداء وأخذ بعضهم يشجع البعض الآخر قائلا : « هبوا وكونوا شجعانا فطناء ، لأن الرب سيبادر حالا لمعونتنا ، وستكون التعزية لشعبه الذى يرى الآن ماهو فيه من كرب » .

٣٦ — أما الترك الذين كانوا موجودين فى أعلا القلعة فقد أخذوا فى التقدم حتى صاروا على مقربة منا ، وفى ذات يوم نجحوا فى محاصرة ثلاثة من

فرساننا فى برج وافع قبالة قلعتهم . والواقع أن الوثنيين قد وجدوا مخرجا لهم وطاردوهم بعنف شديد لم يستطيعوا حياله الصبر على مجالدتهم ، وخرج من البرج فارسان طعينان ، أما الثالث فقد استبسل فى الدفاع عن نفسه ضد هجوم الترك عليه مدة يوم كامل ، فصرع فى اليوم ذاته اثنين منهم أمام السور بعد أن تحطمت الحراب ، إذ انكسرت بين يديه فى ذلك اليوم ثلاث حراب ، ولقى الرجلان مصرعهما ، أما اسم هذا [الفارس] فهو هيج الثائر ، وكان من جماعة جودفروى دى مونت سكيوبوزو .

فلما رآى بوهيمند الموقر أنه من المستحيل عليه أن يجد رجالا لمهاجمة القلعة لوجود الجميع فى بيوتهم من أثر المجاعة والخوف من الترك ، اشتد به الغضب ، وأمر بإحراق المدينة من الناحية القائم بها قصر ياغى سيان ، فلما تراءى هذا المنظر للجماعة التى كانت بالمدينة غادرت مساكنها وخلفت كل ماتملك ، وفر فريق ناحية الحصن ، وغيره إلى باب كونت صنجيل ، وفريق ثالث إلى باب جودفروى ، أى أن كل فريق هرب شطر الجماعة التى ينتسب إليها .

وفى هذه اللحظة هبت ريح عاصفة لم يستطع أحد ما حيالها أن ينتصب واقفا ، وحزن بوهيمند العاقل حزنا شديدا جزعا من أن يمتد الحريق إلى كنيستى القديس بطرس والقديسة مريم وغيرهما من الكنائس ، واستمرت هذه المحنة من الساعة الثالثة حتى منتصف الليل ، وأتت النار على ألفى بيت وكنيسة ، ثم خمدت جذوتها حين أوشك الليل على الانتصاف .

أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا ؛ ولما رآى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملون متاعب فوق هذه المتاعب ، نظرا لأنه لم يعد يسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز ولا بشرب الماء لمن معه الماء ، فقد بنوا حائطا من الجير والكلس بينهم وبين الترك ، وشيدوا حصنا جهزوه بالآلات المختلفة لضمان

طمأنينتنا ، كما أقام فريق من الأتراك فى القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الآخر فقد أقام فى معسكراته فى واد قريب من القلعة .

ولما أقبل الليل لاحت فى السماء نار مقبلة من الغرب ، حتى إذا دنت سقطت وسط الجيش التركى ، فاستولى الذهول الشديد على رجالنا وعلى الترك معا ، فلما تبلج الصباح فر الترك المذعورون جزعا من هذه الظاهرة العلوية ، حتى إذا بلغوا باب بوهيمند نصبوا عنده معسكرهم ؛ أما حامية القلعة فقد دأبت على مهاجمة رجالنا ليلا ونهاراً ، وجعلتهم ما بين جريح وقتيل ؛ أما بقية التركمان فقد أخذت فى محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصارا شديدا لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها أو الدخول إليها ، وبذلك كنا نعانى الحصار ونكابد الضيق على أيدى أولئك الأعداء الذين كانوا فى العدد الكثيف .

أخذ أولئك الدنسون أعداء الرب فى تضييق الحصار علينا ونحن داخل أنطاكية حتى لقد مات الكثيرون منا جوعاً ، وحتى كان الرغيف الصغير يباع ببيزنطية ، ولا حاجة للكلام عن النبيذ . فكان الفرنجة يأكلون لحوم الخيل والحمير ويتبايعونها ، وكانت الدجاجة تباع بخمس وعشرين سوسية ، والبيضة بسوستين ، والجوزة بدنيّة ، وبذلك كان كل شىء يباع بثمن يفوق الوصف ، ومن ثم عمت المجاعة واشتد هولها ، حتى لقد كان البعض يقيم المطابخ يقدم فيها إلى القوم أوراق التين والعنب والحسك ، وأقام البعض الآخرون المطابخ يطهون فيها جلود الجياد والجمال والثيران والجاموس اليابسة ؛ ولقد تكبدنا كل ذلك الهم وتلك الشدة وأمثالها التى يستحيل وصفها فى سبيل اسم المسيح ، ولكى نفتح الطريق إلى الضريح المقدس ونجعله حراً ، وهذه هى المحن والمخاوف التى كنا فريسة لها مدة ستة وعشرين يوما .

٢٧ — كذلك قام إتين دى شارتر الذى تنكب طريق السداد والذى

انتخبه كبراؤنا رئيساً أعظم لهم ، فتظاهر بالمرض قبل الاستيلاء على أنطاكية ، وارتد خزيانا يجلله العار إلى مدينة أخرى حصينة تسمى بالإسكندرونة ، ورحنا ننتظر كل يوم مجيئه لمساعدتنا ، ونحن كما نحن داخل المدينة ، دون أية معونة تخلصنا مما نحن فيه .

أما هو فما كاد يعلم بأن جيش الترك محدق بنا ومحاصر إيانا حتى تسلل وصعد فى جبل قريب مجاور لأنطاكية ، وشاهد الخيم التى لا يحصيها العد ، وإذ ذاك استبد به الفزع الشديد ، وارتد هارباً بجنده على جناح السرعة ، حتى إذا رجع إلى معسكره رحل برجاله وبادر فولى الإدبار .

ولما دخل على الإمبراطور فى « إكسشهر » سأله الانفراد به وقال له : « إعلم أن قد تم استيلاء الترك على أنطاكية . أما القلعة فلم تقع فى يدهم بعد ، كما أن رجالنا عانوا شدة الحصار ، والأرجح أنهم لاقوا الموت جميعاً على أيدى الترك ، وعليك أن ترجع بأسرع ما يمكنك حتى لا تقع فى أيديهم أنت وجندك الذين معك » .

وحينذاك جزع الإمبراطور جزعاً شديداً ، واستقدم سراً « جى » أخا « بوهيمند » وجماعة غيره وقال لهم : « أيها السادة ، ترى ما الذى نحن فاعلوه ؟ هؤلاء جميع رجالنا قد ضيق الترك عليهم الحصار ، وربما يكونون قد قتلوهم فى لحظتنا هذه أو أخذوهم أسرى كما يذكر لنا هذا الكونت الشقى الخزيان ، فعلينا أن نبادر بالتقهقر إذا شئتم حتى لا ينالنا ما نال إخواننا من الهلاك المروع » .

فلما سمع « جى » الفارس المصلات هذه العبارات استخرط فى البكاء هو ومن معه ، وأنوا أنيناً طويلا وصاحوا : « أيها الرب القوى ، أيها الثالوث الواحد ، لماذا رضيت بحدوث جميع هذه الأمور ، لماذا سمحت لشعبك المؤمن بك أن يقع بين يدى عدوه ؟ لماذا سارعت فهجرت أولئك الذين يحاولون تعبيد الطريق إلى هيكلك وجعله آمناً حراً ؟ يارب : لو تحقق ماسمعناه من فم أولئك التعساء فإننا سنهجرك — نحن والنصارى الآخرون — ولن

تعود تخطر ببالنا ، وان يجرؤ أحدنا بعد ذلك أبداً على الدعاء باسمك ! » .
وسرى هذا النبأ المشئوم بين الجيش بأجمعه ، حتى لقد انقضت بضعة أيام لم يتمكن أحد من القسيسين أو المطارنة أو رجال الدين أو الدنيويين من ذكر اسم المسيح .

والواقع أنه لم يستطع أحد أن يقدم على مواساة « جى » الذى دأب على البكاء وضرب صدره ولىّ أصابعه وهو يقول « أواه يا سيدى بوهيمند ، يا شرف الدنيا وزينتها ، يا من كان العالم يرهبه ويحبه ، واشقوتاه ! أى قاصمة داهية نزلت بى ! اما كنت بالمستحق فى رزيتى أن أرى جثمانك المبجل ؟ لقد كان ذلك غاية سؤلى وطلبى ! من ذا الذى يمكننى من افتدائك بنفسى ياسيدى وصديقى الغالى ؟ لماذا لم يخترمنى الموت يوم خرجت من بطن أمى ؟ ولماذا قُدِّرَ لى أن أعيش حتى أشهد يومك المشئوم ؟ لماذا لم يبتلعنى اليم ! لمَ لم يكْبُ بى جوادى فيدق عنق ؟ كم كنت أرجو أن أكون معك فأنال هذه الشهادة الكريمة وأراك وأنت تموت ميتتك الشريفة ؟ » .

ولما قدم الجميع لتعزيته ومواساته استفاق من غشيته وقال لهم « ترى ماظنكم بهذا الفارس الأشيب الذى ضل الصواب ؟ هل سمعتم قط أنه أنجز أى عمل من أعمال الفروسية ؟ كلا لقد اختفى متسربلا بالعار هضيم الجانب كما يختفى الآثم الشقى ، ألا فاعلموا جميعا بأن كل ما تخرس به هذا المنكود إن هو إلا إفك باطل . »

وفى هذه الأثناء أرسل الإمبراطور تعليماته وأوامره إلى رجاله قائلا لهم : «امضوا وقودوا جميع رجال هذه الناحية فى بلغاريا ، وجوسوا الإقليم فخربوا كافة الأماكن حتى إذا جاء الترك لم يجدوا شيئا ما » .

فارتد رجالنا — إن طوعا أو كرها — وهم فى غاية الحزن المقيم المهلك ، ودب الخور فى نفوس كثير من حجاجنا وأصبحوا عاجزين عن متابعة

الجيش ، فتوقفوا عن الزحف ، ومات بعضهم فى أثناء الطريق ؛ أما الباقون فقد عادوا جميعا إلى القسطنطينية .

٢٨ — ولما سمعنا أقوال [بطرس بارتلمى] الذى نقل إلينا إيحاء المسيح على لسان الرسول ، انطلقنا بأقصى سرعة شطر ناحية كنيسة القديس بطرس التى ذكرها ، واشتغل ثلاثة عشر رجلا فى الحفر من الصباح حتى المساء ، وحينذاك عثر هذا الرجل على الحربة فى الموضع الذى أشار إليه ، فتلقاها القوم بفرح شديد وهيبة عظيمة ، وعمت المدينة بهجة شاملة .

وفى هذه اللحظة عقدنا فيما بيننا مجلسا حربيا للتشـــاور فيما نصنع ، وحينذاك انعقد إجماع زعمائنا على المبادرة بإنفـاذ رسول إلى الترك أعداء المسيح — ليسألهم — على يد أحد المترجمين — هذا السؤال الصريح « عما دعاهم إلى اقتحام أرض المسيحيين وهم فى سورة غضبهم ، وما الذى دفعهم لنصب مخيمهم هنـاك وفتكهم بخدام المسيح وقتلهم إياهم » . ولما انتهت المشاورة جاءوا ببعض الرجال ومنهم بطرس الناسك وهرلوان Herlouin ، وألقوا إليهم بهذه التعليمات قائلين لهم : « اذهبوا فابحثوا عن جيش الترك الملعون وقصوا عليهم هذا كله ، واسألوهم لماذا دعاهم غرورهم وبطشهم إلى اقتحام أرض المسيحيين التى هى أرضنا نحن أيضاً . »

فلما سمع الرسل هـذه الـكلمات انطلقوا لتوهم وجاءوا مجمع الـكفرة ، وأفضوا إلى كربوغا ورجاله بالرسالة التـالية « لقد عجب زعماؤنا وساداتنا كل العجب من أن يدفعكم التهور والحمق إلى اقتحام أرض النصارى التى هى أرضهم هم الآخرون ، أفهل لنا أن نظن ونعتقد أنكم قد قدمتم إلى هنا لاعتناق المسيحية ، أم ترون أن الدافع لـكم للمجىء هو إنزال شتى ضروب السوء بالنصارى؟ وإن زعماءنا جميعا ليسألونكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحيين التى هدتها قديما موعظة الرسول بطرس الطوباوى إلى الإيمان بمذهب المسيح ،

وإن زعماءنا ليأذنون لكم بأخذ كل مالكم من الخيول والبغال والحمير والإبل والماشية والثيران وجميع ماتملكون ، كما يأذنون لكم بنقل ذلك كله ، والانتقال من هنا إلى حيث شئتم »

حينذاك أخذت العزة بالإثم قائد جيش ملك فارس وجميع من معه وأجابوهم فى غلظة : « إننا لانبالى بربكم ولا بنصرانيتكم ولا نميل لشىء منها ، بل نسحقها وإياكم فى آن واحد سحقا تاما ، وما حملنا على المجىء إلى ها هنا إلا دهشتنا من أن يدعى السادة والزعماء الذين ذكرتموهم ملكية أرض سلبناها نحن من الأمم الضعيفة . أفهل تريدون معرفة ردنا عليكم ؟ . . . عودوا على جناح السرعة إلى سادتكم وقولوا لهم إنهم إذا كانوا يريدون أن يتركوا وينبذوا ربهم الذى يسجدون له ويهجروا شرائعهم التى هم عليها الآن ، فإننا نعطيهم هذه الأرض وما هو أكثر منها ، ونهبهم المدن والحصون فلا يبقى أحد منكم راجلا ، بل ستكونون جميعا فرسانا مثلنا ، وستتوثق بيننا وبينكم صداقة مكينة ومودة راسخة ، وإلا فعلهم أن يدركوا أنهم سيلاقون الموت ، وسنقودهم مكبلين بالأصفاد إلى خراسان حيث يبقون فى الأسر إلى الأبد ، ونستعبدهم نحن وأبناؤنا على مر العصور » .

سرعان ماانكفأ رجالنا إلينا وأفضوا إلينا بكل ما أجابتهم به تلك الطغمة الفظة الغليظة . ويقال إن هرلوان — الذى يعرف اللسانين [العربى واللاتينى] كان يقوم بالترجمة لبطرس الناسك

وفى هذه الأثناء ألمت بجيشنا نكبتان لم ندر ما نفعل حيالها ، أولاهما المجاعة الفظيعة التى أضنتنا ، وثانيهما الفزع الشديد من الترك .

٢٩ — بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذى دام ثلاثة أيام ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحتفالات التى أقاموها فى شتى الكنائس ، أخذوا فى الاعتراف بخطاياهم ، فلما انتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذى هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات وأقاموا القداسات .

ثم أقامت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة ، أما الفرقة الأولى التى تقدمت سواها فكان بها هيج العظيم وبصحبته الفرنسيون وكونت فلاندر : وفى الثانية دوق جودفروى ورجاله ، وفى الثالثة روبرت النرمدى مع فرسانه ، وكانت الفرقة الرابعة بقيادة أسقف پوى حاملا حربة المخلص وكان معه رجاله وأتباع ريموند الصنجيلى الذى كان مقيما على حراسة الحصن ، خوفا من هجوم الترك عليه ومنعا لهم من النزول إلى المدينة ، وكان فى الفريق الخامس تنكريد — ابن المركيز — بصحبة رجاله ، وفى الكتيبة السادسة بوهيمند الحكيم مع فرسانه .

ولما لبس أساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا حللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصلبان ، ممجدين السيد ومبتهلين إليه أن ينقذنا ويقينا من كل شر ، بينما اعتلى آخرون الباب رافعين الصليب المقدس فى أيديهم ، ورسموا علينا علامة الصليب وباركونا ، ولما تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب المقابل للمحمرة .

ولما رأى كربوغا ما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب العظيم وهى خارجة واحدة فى إثر الأخرى قال « دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا حينذاك خيراً مما لوكانوا فى أيدينا » إلا أنه ما كاد يرى جيوش الفرنجة اللجبة تغادر الأبواب حتى استبد به الذعر ؛ وسرعان ما أمر قائده الموكل إليه الحراسة العامة أن يعلن الارتداد إذا شاهد النار تتأجج فى مقدمة الجيش ، إذ تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك .

وفى الحال شرع كربوغا فى الارتداد على مهل شطر الجبل ورجالنا فى إثره بنفس الخطى ، ثم انشطر الترك شطرين : اتجه أحدهما ناحية البحر بينما أقام رجال الفريق الآخر فى مكانهم مؤملين أن يحدقوا بنا ، فلما شعر رجالنا بما يبيته العدو لهم فعلوا فعله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق جودفروى وكونت نرمندى ، وألقوا قيادتها إلى رينالد ، وبعثوها لملاقاة

الأتراك الذين قدموا من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب أخرى امتدت من النهر حتى الجبل شاغلة مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب فى التقدم من الجانبين ، وأحاطت برجالنا تنضحهم برماحها وترميهم بأقواسها ، كما شوهدت قوات لا يحصيها العد تنطلق من ناحية الجبل ممتطية صهوة جياد بيضاء ، بياض الرايات التى تحملها بأيديها ، فلما شاهد رجالنا منظر هذا الجيش لم يعرفوا لمن هذا الجند ، وما لبثوا أن أدركوا أنهم نجدة المسيح بقيادة القديسين جرجس ومرقص وديمترى ، وينبغى الإيمان بهذه الشهادة ، لأن الكثيرين من رجالنا شاهدوا تلك الآية .

ولما رأى الترك المقيمون على جانب البحر أن لم تعد لهم قدرة على المقاومة أضرموا النار فى الحشائش حتى يراها المقيمون فى خيمهم ويلوذوا بالفرار ، فلما تبين هؤلاء الإشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين ، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم ، وكان تقدمهم شطر معسكره ، وذرع الدوق جودفروى وهيج العظيم وكونت فلاندر ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم ، فتدرعوا بعلامة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد ، فلما رأت البقية ذلك طاردتهم هى الأخرى ، فتعالى صياح الترك والفرس ، أما نحن فقد مجدنا الإله الحى الصادق ، وحملنا عليهم باسم عيسى المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا وإياهم فى القتال ، وتغلبنا عليهم بمعونة الرب.

استولى الفزع على الترك فانثالوا هاربين ، ومضى رجالنا فى آثارهم حتى خيامهم ، وآثر فرسان المسيح أن يقصوهم ، ورأوا أن قصهم إياهم أجدى من الاستيلاء على الغنيمة ، وظلوا فى أعقابهم حتى جسر الحديد فقلعة تنكريد ، فخلى العدو وراءه خيمه وذهبه وفضته وكثيرا من المتاع والماشية والثيران والجياد والبغال والإبل والحمير والحنطة والنبيذ والطحين وكثيراً غير ذلك مما كان يلزمنا ، فلما استطار نبأ ظهورنا على الترك إلى سمع الأرمن والسريان

الساكنين فى هذة المنطقة جروا نحو الجبل ليسدوا عليهم الطريق ، وفتكوا بكل من وقع منهم فى أيديهم .

كان سرورنا عظيما حين استعدنا المدينة ، فأخذنا نمجد الرب ونشكره على أن آتى النصر لجماعته ، أما [أحمد بن مروان] القائد القائم بحراسة القلعة فقد استولى عليه الذعر حين رأى هرب كربوغا ورجاله من ساحة القتال أمام جيش الفرنجة ، وسرعان ما بادر إلى طلب الأعلام الفرنجية ، فأمره سنجيل — الذى كان مرابطا أمام الحصن — برفع رايته دون سواه ، فأخذها منه وركزها لساعته على البرج ، فلما شاهدها اللمبارديون الموجودون هناك قالوا « ليست هذه راية بوهيمند » فقال لهم [أحمد بن مروان] ، فراية من إذن ؟ » فأجابوه « إنها راية كونت سنجيل » وحينذاك تقدم [أحمد بن مروان] ، واقتلع الراية وردها إلى الكونت ؛ وفى هذه اللحظة قدم بوهيمند المحترم وناول رايته [للقائد] التركى الذى تلقاها بيد السرور ، وعقد اتفاقية مع السيد بوهيمند الذى أذن بمقتضاها للكفرة الذين يريدون اعتناق المسيحية بالإقامة حيث هم ، بينما أذن لمن انصرف عنها منهم بالرجوع سالمين آمنين دون أن يمسهم أدنى ضر أو أذى .

ووافق [بوهيمند] على جميع مطالب [أحمد بن مروان] ، وسرعان ما أنزل سرجنديته فى الحصن ، ولم تنقض إلا أيام قلائل حتى عمـــد القائد [المسلم] وجميع من آثروا الإيمان بالمسيح ، أما أولئك الذين فضلوا البقاء على ملتهم فقد بعثهم السيد بوهيمند إلى المنطقة الإسلامية .

وقد جرت هذه الوقعة فى اليوم الرابع قبل مستهل يوليو [٢٨ يونيو ١٠٩٨] ، شهر الحواريين بطرس وبولص ، فى حكم السيد عيسى المسيح الذى له الشرف والمجد إلى الأبد ! آمين .

— ١٠ —

من تخليص أنطاكية إلى وقعة عسقلان

من ٢٩ يونيو إلى ١٢ أغسطس ١٠٩٩

الزحف على بيت المقدس . حملة ريموند بيليه وموت أسقف پوى . حملة ريموند الصنجيلى على ألبارة . اختلاف الزعماء بشأن أنطاكية . استيلاء ريموند وبوهيمند على المعرة . زحف ريموند وروبرت النورمندى على أرشليم . الوصول أمام عرقة . اتحاد الأمراء عدا بوهيمند . حصار عرقة . رفع الحصار عنها . الوصول لبيت المقدس ومحاصرتها . الاستيلاء عليها . انتخاب جودفروى وموقعة عسقلان

---

٣٠ — هزم أعداؤنا عن بكرة أبيهم هزيمة ساحقة ، وشكرنا الرب الثالوث الأوحد على نعمه بما يستحق ، وشرع الترك فى الهرب من كل النواحى ، فكان بعضهم أنصاف أحياء ، والبعض الآخر منهم قد أثقلته جراحه فراحوا يتساقطون أمواتا فى الوديان والغابات والحقول وفى الطرقات ، أما شعب المسيح وهم الحجاج الظافرون فقد عادوا إلى البلدة بعد ظهورهم على العدو وهم فى غاية الفرح لانتصارهم السعيد .

وبادر سادتنا الدوق جودفروى ، وكونت ريموند صنجيل ، وبوهيمند . والسيد روبرت ، وكونت فلاندر وكثيرون غيرهم بإرسال هيج العظيم : ذلك الرجل الموقر الكريم إلى إمبراطور القسطنطينية عساه أن يقدم لاستلام المدينة ، ولتنفيذ الاتفاقات التى أبرمها معهم ؛ ومن ثم رحل [هيج] إلا أنه لم يعد بعد ذلك أبداً .

بعد أن فرغ زعماؤنا من ذلك كله التأم شملهم ثانية وأمروا بعقد مؤتمر لإيجاد الوسائل اللازمة لحكم وقيادة الشعب ، حتى ينجز رحلته إلى الهيكل المقدس الذى تكبدوا من أجله كل هذه الأخطار ، وقر رأيهم فى هذا الاجتماع على أنه ليس فى قدرة أحد ما أن يدخل أرض الكفرة ، لما تكون عليه زمن الصيف من شدة الجفاف ونضوب المياه ، ومن ثم قبلوا أن يؤجلوا ذلك الدخول إلى نهاية شهر نوفمبر ، فتفرق السادة ، ورحل كل إلى ناحيته حتى يحين الوقت المتفق عليه ، ونادى الأمراء فى جميع نواحى البلدة بأن كل من يجدون أنفسهم فى ضيق ويحتاجون للدينار والدرهم يستطيعون أن يقيموا معهم إذا شاءوا حسب اتفاق يبرم بين الطرفين ، وأنهم يتلقونهم على الرحب والسعة .

كان هناك فارس من جماعة الكونت سنجيل يدعى ريموند بيليه ، الذى استخدم لنفسه جماعة ليست بالتافهة من الفرسان والمشاة ، وقد رحل بالجند الذين جمعهم ودخل المنطقة الإسلامية غير هياب ولا وجل ، وبعد أن جاوز مدينتين وصل إلى قلعة تدعى « تل منس » فبادر أهلها السريان للاستسلام له عن طواعية وطيب خاطر ، فأقام بينهم قرابة ثمانية أيام إلى أن جاءته الرسل مفضية إليه بوجود حصن للمسلمين على كثب منه وتقوم على حراسته حامية ضخمة ، فبادر فرسان المسيح وحجاجه إلى الزحف على هذا الحصن وأحدقوا به من كل جانب ، وسرعان ما تمكنوا من الاستيلاء عليه بمعونة السيد المسيح ، وإذ ذاك ألقوا القبض على جميع فلاحى تلك الناحية وقتلوا كل من أبى اعتناق النصرانية ، أما أولئك الذين آثروا الإيمان بالمسيح فقد أخلوا سبيلهم وأبقوا على حياتهم .

بعد أن تم ذلك انصرف فرنجتنا مسرورين إلى القلعة الأولى [قلعة تل منس] ، ثم غادروها فى اليوم الثالث [٢٧ يوليو] ، وجاءوا إلى معرة النعمان القريبة منهم ، وكان قد اجتمع بها نفر كبير من الأتراك والشرقيين القادمين من

حلب ومن جميع البلدان الأخرى ومن الحصون التى فى تلك النواحى ، وخرج المتبربرون للهجوم على رجالنا الذين أجمعوا العزم على الالتحام بهم فى القتال وأرغموهم على الفرار ، إلا أنهم ما لبثوا أن عادوا وظلوا طول يومهم يعاودون قتالنا مرة بعد أخرى ، واستمر هذا الهجوم حتى المساء ، وكان الحر ثقيل الوطأة ، فلم يعد رجالنا يطيقون احتمال الظمأ لأنهم لم يجدوا قط قطرة من الماء يطفئون بها غلتهم ، ومن ثم رغبوا أن يعودوا سالمين فى أنفسهم إلى حصنهم ، غير أن الفرسان والمشاة الذين استولى عليهم الفزع دفعتهم خطاياهم للنكوص على أعقابهم ، فلما رآهم الترك وهم يولون الإدبار انطلقوا فى آثارهم وأمدهم النصر بالبأس العظيم ، فأسلم كثير من رجالنا أرواحهم لله من أجل حبهم إياه ذلك الحب الذى دفعهم للتجمع هناك ، وكانت هذه المذبحة فى اليوم الخامس من شهر يوليو ، أما الفرنجة الذين نجوا من الموت فقد عادوا إلى قلعتهم ، وبقى ريموند هناك مع قواته فترة من الزمن .

أما بقية القوم الذين كانوا مقيمين بأنطاكية والذين كانوا فى فرح ونشوة كبرى لاشتداد المرض بمدبر أمرهم وراعيهم أسقف بوى ، وذلك تبعا لمشيئة الرب التى من أجلها وحدها هجر هذا العالم ، راقدا فى هدوء ، وذهب ليرقد عند السيد يوم العيد المسمى بعيد القديس بطرس فى الأصفاد [يوم أول أغسطس ١٠٩٨] ، ونتج عن ذلك كرب شديد ، وغم مقيم ، وشمل الحزن العظيم جميع جيش المسيح قاطبة ، لأن إدهمار كان عضد الفقراء ومشيرا الأغنياء ، فكان يأمر الكهنة بذلك ويكرز فيهم ، ولطالما قال للفرسان فى عظاته لهم « لن يستطيع أحد منكم إنقاذ نفسه إن لم يعمل على مواساة الفقراء واحترامهم ، ولن تستطيعوا النجاة من دونهم ، كما أنهم لا يستطيعون العيش بدونكم ، ومن ثم فإن ابتهالاتهم اليومية تتصاعد إلى الرب الذى طالما تسيئون إليه فتغفر للمخطئين منكم خطاياهم ، وإننى لأسألكم أن تحبوهم حبكم لله ، وأن تساعدوهم جهد ما تستطيعون » .

٣١ — بعد ذلك بقليل رحل ريموند المحترم كونت سنجيل ، وتوغل فى المنطقة الإسلامية حتى بلغ بلدة يدعونها « ألبارة » ، فشد عليها برجاله ، وسرعان ما دانت له ، فقتل جميع من وجدهم بها من المسلمين والمسلمات ، غير مفرق بين صغير وكبير ، ولما تم له امتلاكها دعاها إلى دين المسيح ، وعقد مجلسا من ذوى الرأى من جماعته ، وأقام حفلا رائعا احتفى فيه بتعيين أسقف لهذه المدينة يرجعها إلى دين المسيح وعبادته ، وجعل من هذا المسكن الشيطانى معبدا نذره لله الحى القيوم ، وأقام المحاريب على شرف القديسين .

وسرعان ما اختاروا رجلا عاقلا شريفا سيروه إلى أنطاكية لترسيمه [أسقفا] لها ، وأخرجوا الاختيار إلى حيز التنفيذ ، أما الآخرون الذين بقوا بأنطاكية فقد شملهم الفرح وعمتهم البهجة .

ولما دنى الأمد المضروب [أعنى عيد جميع القديسين] انكفأ جميع زعمائنا إلى أنطاكية ، وانصرفوا يعدون العدة لإنجاز الرحلة إلى القبر المقدس وقالوا « الآن حان وقت رحيلنا ، وليس الوقت وقت جدل حول مصلحة كل فرد الذاتية »

وكان بوهيمند من جانبه يدأب طول الوقت على حمل الزعماء على الاعتراف بالعهد الذى عاهده عليه جميع السادة باحتلاله المدينة ، غير أن كونت سنجيل لم يكن يميل لأى اتفاق ما مع بوهيمند ، مخافة أن يكون فى هذا الاتفاق نكث للعهد مع الإمبراطور ، وكثر عقدهم الاجتماعات فى كنيسة القديس بطرس للبحث فيما ينبغى عمله ، وقرأ بوهيمند عليهم نص الاتفاق ، وأطلعهم على ما أنفق ، وفعل كونت سنجيل مثل فعله حيث ذكر شروط اليمين التى قطعها للإمبراطور حسبما أشار به عليه بوهيمند ، وحينذاك غادر الأساقفة والدوق جودفروى وكونت فلاندر وكونت نرمندى والسادة الآخرون الاجتماع ، وانطلقوا إلى الناحية التى يوجد بها منبر القديس بطرس ، ليتفقوا على حكم

يقضون به بين الاثنين ، ودفعتهم خشيتهم من عرقلة السير إلى القبر المقدس إلى كتمان ما أجمعوا الرأى عليه وقرروه فيما بينهم ، وأخيرا صاح كونت صنجيل « قبل أن نهجر طريق القبر المقدس أقول لكم إنه إذا قبل بوهيمند أن يصحبنا فإننى راض بكل ما اتفق عليه الدوق جودفروى والكونت فلاندر وروبرت النرمندى وغيرهم من السادة ، وإننى نازل على ما قضوا به ، إلا فيما يتعلق بإخلاصى للإمبراطور » .

فاستصوب بوهيمند كل الاستصواب قوله هذا ، وجاء الاثنان فأقسما بين أيدى القسس أن لن يحاول أحدهما — بأية وسيلة ما — عرقلة الزحف إلى القبر المقدس ، وإذ ذاك أخذ بوهيمند فى مشاورة رجاله ليكفل تموين القلعة القائمة على الجبل العالى بالرجال والعتاد والذخيرة ، وفعل كونت سنجيل فعله، فأخذ هو الآخر فى الاتفاق مع رجاله بشأن تموين قصر الأمير ياغى سيان والبرج القائم عند مدخل الجسر بجانب ميناء القديس سمعان ، وأقول شاور جماعته بشأن تموينها بالرجال والذخيرة التى يمكن بقاؤها زمنا طويلا .

٣٢ — أنظر الملحق الخاص بأنطاكية .

٣٣ — اتخذت هذه التدابير الدقيقة فى شهر نوفمبر ، وإذ ذاك غادر ريموند كونت سنجيل مدينة أنطاكية بجيشه ، وبلغ مدينة تدعى « الروج » ، ثم أخرى تسمى « ألبارة » ، وقبل نهاية شهر نوفمبر بأربعة أيام أدرك مدينة المعرة ، وقد اجتمع بها حشد كثيف من الشرقيين والترك والعرب وسواهم من الكفار . فلما كان اليوم التالى هاجمها الكونت ، وبعد فترة قصيرة من الزمن سار بوهيمند بجيشه فى آثار الكونتات واتصل بهم يوم الأحد ، وفى يوم الاثنين [٢٩ نوفمبر ١٠٩٨] حملوا حملة عنيفة على المدينة من جميع نواحيها ، واستبسلوا استبسالا عظيما شديدا مكنهم من تثبيت السلالم على الأسوار ، غير أن قوة الكفار كانت أشد فلم يستطع رجالنا أن يصيبوهم بأدنى أذى .

لما رأى سادتنا ألا جدوى من ذلك العمل وأنهم لا يجنون ثمرة ما ، قام ريموند كونت صنجيل وشيد حصنا خشبيا باسقا منيعاً ، يدور على دواليب أربعة ، وجهزه بما يحتاج إليه ، فكان يوجد فى الطابق الأعلى كثير من الفرسان مع « إفرار الصياد » الذى كان أشد من يقرع الطبول ، ومن تحتهم الفرسان المدرعون الذين يدفعون الحصن إلى قرب الأسوار ليلاحق أحد الأبراج ، فلما شاهد الكفار هذا العمل بادروا إلى آلة أخذت تقذف الحصن بالحجارة الضخمة ، وكادوا أن يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا يرمون الحصن بالنار الإغريقية عساه أن يحترق ويتهدم ، إلا أن الرب القوى لم يشأ أن يحترق الحصن هذه المرة ، لأنه كان أعلى من كل أسوار المدينة .

أما فرساننا الموجودون بالطابق الأعلى — وفيهم وليم مونت بليه وكثيرون غيره — فقد مضوا يقذفون المدافعين عن السور بالأحجار الضخمة ، كما شرعوا يضربون بشدة على مجناتهم ، فكان الرجل وفرسه يسقطان فى داخل المدينة ويصاب بضربة قاتلة ، وبينما كان هؤلاء يتحاربون كان هناك آخرون يستعملون رماحا عقدوا بها الرايات ، واستطاعوا بواسطة رماحهم وشصوصهم الحديدية تصيد الأعداء ، وظل القتال مستمرا حتى المساء .

كان يوجد خلف الحصن جماعة القسس والشمامسة فى مسوحهم المقدسة ، وهم يصلون لله ويبتهلون إليه أن يرفع المعرة عن شعبه ، وأن يعلى كلمة المسيحية ويلاشى الوثنية ، وكان هناك فى ناحية أخرى فرساننا وهم فى حرب دائمة مع العدو ، ينصبون السلالم على سور المدينة ، غير أن مقاومة الوثنيين كانت من الشدة بالدرجة التى عاقت رجالنا عن أى تقدم ، ومع ذلك فقد كان جوتييه دى لاستور أول من اعتلى السور بواسطة السلم الذى سرعان ما تحطم تحت ثقل رفاقه الكثيرين ، إلا أنه كان قد تمكن من اعتلاء السور مع جماعة منهم ، كما وجد فريق غيرهم سلما آخر ، وسرعان ما ثبتوه على السور ، وبادر فارتقاه كثير من الفرسان والمشاه وتسلقوا الحائط ؛ غير أن الشرقيين هاجموهم هجوما

عنيفا على السور وعلى الأرض، وأشرعوا نحوهم الأسنة ، وأخذوا يضربونهم عن قرب برماحهم ، فاستولى الذعر على كثير من رجالنا ، فألقوا بأنفسهم من فوق السور .

وفى الوقت الذى كان فيه أولئك الرجال الشجعان واقفين على حافة السور يكابدون أهوال الهجوم ، كان الآخرون الذين عند سفح الحصن يعملون على نقب سور البلد ، فلما رأى المسلمون أن رجالنا قد نقبوا حائطهم استولى عليهم الرعب وفروا هاربين إلى داخل المدينة ، وقد تم ذلك كله يوم السبت ١١ ديسمبر وقت صلاة الستار عند غروب الشمس ، وإذ ذاك أمر بوهيمند — على لسان مترجمه — زعماء المسلمين بالالتجاء — هم ونساؤهم وأطفالهم ومتاعهم — إلى قصر واقع جنوب الميناء ، وأخذ على نفسه عهدا أمنهم به على حياتهم .

بعدئذ دخل رجالنا جميعاً إلى المدينة ، واستحوذ كل منهم لنفسه على كل قيم ثمين مما وجدوه فى المنازل والمخابىء ، فلما طلع الصباح أخذوا يقتلون كل من يعثرون عليه من أعدائهم رجلا كان أم امرأة ، حتى لم تعد ثم ناحية ما من المدينة خالية من جثث المسلمين ، وندر أن يجوب المرء شوارع البلدة دون أن يطأ تلك الجثث، وقبض بوهيمند على من أمرهم بالدخول إلى القصر الذى عينه لهم وسلبهم كل ما كانوا يملكونه من الذهب والفضة وسواها من الحلى ، وقتل البعض وساق الباقين إلى أنطاكية ليباعوا بها .

بقى الفرنجة فى هذه المدينة مدة شهر وأربعة أيام ، وفى أثناء ذلك مات [وليم] أسقف اورنج .

وكان بين رجالنا فريق لم يجد هناك مايحتاجه ، وذلك لطول مكثه ولصعوبة التموين ، ولأنه لم يستطع أن يجد خارج المدينة شيئا يستولى عليه ، وإذ ذاك أخذ رجاله يبقرون بطون القتلى لما علموه من أن بعضهم كان قد ابتلع النقود ، ومضى غيرهم يقطعون لحومهم قطعا قطعا ويطهونها ليقتاتوا بها .

٣٤ — لم يستطع بوهميند أن يوافق الكونت سنجيل على ماطلبه، وقام وهو فى سورة غضبه فقفل راجعا إلى أنطاكية ، ولم يتوان الكونت ريموند فى أن يبعث رسله إلى الدوق جودفروى وكونت فلاندر وروبرت النرمندى وبوهيمند يطلب منهم القدوم إلى الروج لمفاوضته ، فجاء جميع السادة وتشاوروا لإيجاد وسيلة تحفظ لهم شرف السير إلى المذبح المقدس الذى نهضوا من أجله بحربهم الصليبية ، وقدموا فى سبيله حتى هذه الناحية، ولكنهم لم يستطيعوا التوفيق بين ريموند وبين بوهيمند الذى أبى ذلك إلا إذا رد له الكونت أنطاكية، فامتنع الكونت عن النزول على طلبهم بسبب العهد الذى قطعه للإمبراطور ، وفى النهاية عاد الكونتات والدوق إلى أنطاكية بصحبة بوهيمند ، وقفل الكونت ريموند راجعا إلى المعرة حيث وجد الحجاج ، وطلب إلى فرسانه تجهيز القصر والحصن الذى كان موجودا أسفل ميناء الجسر ، ولما رأى ريموند أن ليس هناك من أحد من القادة يرغب فى السير إلى الهيكل المقدس من أجله فقد خرج من المعرة حافيا يوم ١٣ يناير وقصد كفر طاب وبقى بها ثلاثة أيام حيث انضم إليه كونت نرمندى ، وبعث أمير شيزر بسفرائه إلى الكونت وهو بالمعرة وكفر طاب يعلنون إليه رغبة [مولاهم] فى موادعته ، وعمله على راحة الحجاج ويقسم له على ذلك بدينه ، كما أنه يتعهد له بأن لا ينالهم — داخل حدود أرضه — أى أذى ، ويؤكد له أنه سيمده عن طيب خاطر — بالجياد والطعام .

رحل رجالنا حتى إذا صاروا على كثب من شيزر الواقعة على نهر فرفر نصبوا معسكراتهم هناك ، فانزعج أمير شيزر حين رأى أن الفرنجة قد ضربوا خيامهم قرب المدينة ، وأمر بمنع المؤونة عنهم إن لم يبتعدوا عن ضواحى البلد ، وفى اليوم التالى بعث معهم برسولين من الترك ليدلوهم على مخاضة يعبرون عندها النهر وليمضيا بهم إلى حيث يجدون الغنيمة الطيبة ،

فوصلوا إلى واد تشرف عليه إحدى القلاع ، ونهبوا هناك أكثر من خمسة آلاف رأس من الغنم ، وجزء غير قليل من القمح وغير ذلك من السلع التى يمكن أن تعين جميع القوات المسيحية ، كما أذعنت حامية القلعة للكونت وأعطته بعضا من الجياد والذهب، ثم أقسمت له بدينها ألا تمس الحجاج بأذى ما ، وأقمنا هناك مدة خمسة أيام [من ١٧ إلى ٢٢ يناير] . ثم رحلنا — يعمنا الفرح — لنضرب معسكراتنا قرب حصن للعرب ، فخرج إلينا صاحبه وعقد اتفاقا مع الكونت .

وصلنا — بعد مغادرتنا هذه الناحية إلى مدينة عظيمة زاخرة بالذخيرة وواقعة فى أحد الوديان ، يسمونها رفنية ، فلم يكد نبأ قدوم الفرنجة يترامى إلى سمع سكانها حتى غادروها وتركوا مابها من البساتين الممتلئة بالبقول وخلوا مساكنهم المذخورة بمواد الطعام ، هاموا على وجوهم ، أما نحن فقد غادرنا هذه المدينة بعد ثلاثة أيام [٢٥ يناير] من إقامتنا بها ، وعبرنا جبلا هائلا شامخا ، فلما جاوزناه دخلنا وادى البقيعة حيث كانت توجد ذخيرة وفيرة . واستغرقت رحلتنا هذه خمسة عشر يوما ، [امتـــدت من ٢٩ يناير حتى ١٢ فبراير] .

كان يوجد بالقرب منا قلعة اعتصم بها جمهور كثيف من الكفار ، فهاجمنا هذه القلعة ، وكان نصرنا أمرا مفروغا منه لو لم يخرج المسلمون من أبوابها قطيعا كبيرا من الحيوان ، فانصرف رجالنا إلى خيمهم محملين بجميع أنواع الغنائم ، وفى الصباح الباكر طوى رجالنا خيمهم وجاؤا لمحاصرة القلعة قاصدين من وراء ذلك نصب معسكراتهم هناك ، غيرأن جميع القوم الكفرة لاذوا بأذيال الفرار وخلفوا القلعة وراءهم ليس بها من أحد ، فاقتحمها رجالنا ووجدوا بها كمية كبيرة من القمح والنبيذ والدقيق والزيت وكل مايحتاجونه .

وهناك احتفلنا [يوم ٢ فبراير ١٠٩٩] بعيد دخول القديسة مريم الهيكل ، واستقبلنا رسلا من مدينة حمص أنفذهم أميرها [جناح الدولة] إلى الكونت

ومعهم الجياد والمال ، وعقد معه معاهدة ، اتفق فيها معه على ألا يمس النصارى بما يضايقهم بل تعهد له باحترامهم والمحافظة عليهم ، وبعث [أبو على فخر الملوك بن عمار] أمير طرابلس من قبله رسالة إلى الكونت [ريموند] يسأله الموادعة والاتفاق والارتباط معه برباط المودة إذا أحب ، وأنفذ إليه عشرة جياد وأربعة بغال وبعض الذهب ، غير أن الكونت صرح له أنه لا يقبل مسالمة أمير طرابلس إلا إذا اعتنق النصرانية .

بعد أن غادرنا هذا الوادى الجميل بلغنا مكانا حصينا اسمه « عرقة » ، وذلك يوم الاثنين منتصف فبراير ، وأقمنا به خيامنا ، وكان الوادى يعج بحشد كثيف من الكفرة الذين عملوا بهمة عجيبة فى تقوية هذا المكان والاستبسال فى الدفاع عنه ، وخرج أربعة عشر رجلا من فرساننا للزحف على طرابلس الواقعة على كثب منا ، فصادف هؤلاء الأربعة عشر فريقا من الترك يبلغ الستين ومعهم غيرهم وقد ساقوا أمامهم الرجال والحيوان ، فكان العدد يقرب من ألف وخمسمائة أو يزيد ، فتدرع رجالنا بالصليب ، وكروا عليهم فقتلوا منهم ستة رجال واستولوا منهم على ستة جياد .

وانفصل عن جيش كونت ريموند كل من ريموند بيليه وريموند فيكونت تورين ، ووصلا أمام بلدة طرطوس ، التى نهض للدفاع عنها جمع غفير من الكفرة ، فنازلاها نزالا عنيفا ، فلما جاء المساء ارتدا إلى إحدى النواحى ونصبا خيامهما عندها ، وأوقدا نارا عظيمة كما لو كان الجيش بأجمعه موجودا هناك ، فاستولى الذعر على الكفرة ، وتسربلوا بالظلام وانسلوا هاربين خفية وخلوا المدينة وراءهم وتركوا بها متاعهم الكبير ، وكان للمدينة إلى جانب هذا ميناء فخم مطل على البحر [يعرف باللاذقية] ، فتأهب رجالنا فى اليوم التالى لمهاجمته ، غير أنهم وجدوا المدينة خالية ، فدخلوها وظلوا ناصبين خيامهم حتى لحظة محاصرتهم لعرقة ، وكانت تتاخمها مدينة أخرى تدعى « مرقب » ، فعقد واليها معاهدة مع رجالنا وأدخلهم إياها مشرعين راياتهم .

٣٥ — جاء الدوق جود فروى وبوهيمند وكونت فلاندر ، حتى إذا اقتربوا من مدينة اللاذقية انفصل بوهيمند عن بقية الجماعة ، وقفل راجعا إلى أنطاكية .

أما البقية فقد تابعت سيرها وحاصرت بلدة تدعى « جبلة » ، وعلم الكونت ريموند دى صنجيل أن هناك جمهورا غفيرا من الوثنيين زاحف علينا لمقاتلتنا ، وسرعان ما اتفق مع رجاله على مطالبة السادة القائمين بحصار جبلة بالنهوض لنجدته. فلما تناهى ذلك الخبر إلى سمعهم عقدوا موادعة مع أميرها وتصالحوا معه ، وأخذوا منه الجياد والمال ، ثم غادروا البلد قادمين لمساعدتنا ، غير أنه ألقى إلى الكفرة ألا يقاتلونا ، وإذ ذاك ضرب الكونتات معسكراتهم خلف النهر ، وساهموا بنصيب فى حصار هذا المكان [المعروف بعرقة لما ترامى إلى سمعهم من نهوض خليفة بغداد لنجدة المسلمين]

لم يمض غير قليل من الزمن حتى زحف رجالنا على طرابلس ، ووجدوا خارج المدينة جماعة من الترك والعرب والمسلمين ، فهاجمهم رجالنا واضطروهم إلى الفرار ، وقتلوا فئة كبيرة من أشراف البلد ، واستحر القتل فى الكفرة ، وتدفقت الدماء حتى اصطبغت المياه التى تغذى المدينة والآبار باللون الأحمر القانى ، وعمهم الحزن والأسى ، واشتد الذعر بالباقين حتى إنه لم يعد لأحد منهم الجرأة على مجاوزة أبواب البلد .

وفى يوم آخر أخذ رجالنا فى الزحف ، حتى إذا صاروا على كثب من وادى « البقعة » صادفوا بعض الثيران والماشية والحمير وكثيراً من الأنعام والجمال ، فكانت عدة ما استولوا عليه من الحيوان تبلغ ثلاثة آلاف .

وحاصرنا المكان المشار إليه آنفا [عرقة] حصارا دام ثلاثة أشهر ويوما واحدا ، واحتفلنا هناك بعيد قيامة السيد المسيح مدة أربعة أيام قبل منتصف إبريل [أى يوم ١٠ منه] ، وكانت سفننا قد اقتربت منا إذ بلغت أحد الموانىء وظلت به طول فترة هذا الحصار ، وحملت إلينا ذخيرة وفيرة من القمح والنبيذ

واللحم والجبن والشعير والزيت ، فتوفر لدينا ذلك كله أثناء الغزو ، وفى خلال هذا الحصار سعد كثير من رجالنا بالشهادة ، وكان من بينهم أنسلم دى ريمونت ووليم بيكاردى وكثيرون غيرهم ممن لا أعرفهم .

توالت رسل [ابن عمار] أمير طرابلس على السادة يطلب إليهم مغادرة المكان وموادعته ، فلما علم رجالنا بالمحاصيل الجديدة وأبصروها [لأنه فى منتصف مارس كنا نأكل البقول الجديدة ، وفى منتصف أبريل حصدنا القمح] عقد الدوق جودفردى وريموند كونت سنجيل وروبرت النرمندى وكونت فلاندر اجتماعا فيما بينهم ، وقرروا أن من صالحهم مواصلة السفر إلى بيت المقدس ، وقت جنى المحاصيل الجديدة .

٣٦ — إذ ذاك غادرنا هذا المكان وبلغنا مدينة طرابلس يوم الجمعة ١٣ مايو وبقينا بها ثلاثة أيام فسلمهم [أميرها] أكثر من ثلثمائة حاج كانوا فى أسره ، وأعطاهم خمسة عشر الف قطعة ذهبية وخمس عشرة هدية غالية القيمة ، وأمدنا أيضا بذخيرة كبيرة من الجياد والحمير وشتى أنواع المحاصيل مما أغنى جميع جند المسيح ، واتفق مع زعمائنا على أن يتنصر ويسلم أرضه إذا استطاعوا الظهور على خليفة مصر فى الحرب التى أعدها لهم إذا تمكنوا من امتلاك بيت المقدس .

وبعد أن تم الاتفاق على ذلك غادرنا المدينة يوم الاثنين [١٦] من شهر مايو ، وأسرينا طول الليل فى طريق ضيق صعب المنحدر ، وأدركنا قلعة الباطرون ، حيث أدت بنا إلى مدينة مجاورة للبحر يسمونها « جبيل » ، وكابدنا المشقة من جراء الظمأ الممض ، وألم بنا الوهن حتى بلغنا نهرا يدعونه « نهر إبراهيم »

وبعد أن سرنا ليلة صعود السيد ونهارها [يوم ١٩ مايو] فى طريق شديد الضيق ، جئنا إلى جبل ظننا أننا واجدون عنده العدو كامنا يترصدنا ، إلا أن إرادة الرب حرمتهم الجرأة على الاقتراب منا ، فتقدمنا فرساننا وفتحوا الطريق أمامنا ، وبلغنا بعد ذلك مدينة بحرية اسمها بيروت ، خرجنا منها إلى أخرى تدعى صيداء ، ثم إلى غيرها يقال لها « صور » ، ومن صور وصلنا إلى مدينة

عكا ، وأدى بنا السير من عكا إلى مكان حصين اسمه يافا ، ونصبنا معسكرنا قرب شيزر حيث احتفلنا بعيد العنصرة وذلك يوم ٢٩ مايو .

بعد هذا جئنا إلى مدينة الرملة التى أخلاها المسلمون خوفا من الفرنجة ، وكانت على مقربة كبيرة منها كنيسة مقدسة مدفون بها جثمان القديس جورج الطاهر ، وذلك لأنه قد نعم بالشهادة السعيدة فى هذه البقعة على أيدى الوثنيين الكفرة من أجل اسم المسيح ، فعزم قادتنا على انتخاب أسقف لرعاية هذه الكنيسة وإدارتها ، ووهبوه الأعشار ، وأمدوه بالذهب والفضة والجياد وغيرها من السائمة والأنعام حتى يكون قادرا على أن يعيش هو ورجاله عيشة خالصة مشرفة ، فأقام مسرورا .

٣٧ — أما نحن فقد عمنا الفرح وتابعنا الزحف حتى بلغنا مدينة بيت المقدس ، وذلك يوم الثلاثاء [٦ يونيو فى الساعة الثامنة ، وحاصرناها حصاراً يدعو إلى الاعجاب ، وضيق روبرت النرمندى الخناق عليها من ناحية الشمال قرب كنيسة أول الشهداء القديس أتين ، من الجهة التى قتل بها فى سبيل اسم المسيح ، وكان إلى جانبه روبرت كونت فلاندر . وحاصرها من الناحية الغربية الدوق جودفروى وتنكريد ، أما الكونت صنجيل فقد أقام فى الوسط على جبل صهيون قبالة كنيسة القديسة الست مريم أم الإله ، فى البقعة التى احتفل فيها السيد وتلاميذه بالعشاء السرى .

وفى اليوم الثالث دفعت الرغبة فى القتال كلا من ريموند بيليه وريموند دى تورين للانفصال عن الجيش ، فصادف فارسا المسيح مائتى عربى فقاتلاهم ، وعاونهما الله فكانت لهما الغلبة عليهم ، وقتلا كثيرا منهم واستوليا على ثلاثين حصانا .

وفى يوم الاثنين [١٢ يونيو] هاجمنا البلدة هجوما عنيفا ، وكانت سطوتنا عليها شديدة ، ولو كانت السلالم مهيأة ومعدة لسقط البلد فى أيدينا ، ومع ذلك فقد حطمنا السور الصغير ، ورفعنا سلما على السور الرئيسى ، وصعده

فرساننا وضربوا عن قرب جماعة الشرقيين والمدافعين عن المدينة بالسيوف وناوشوهم بالرماح ، وكان قتلاهم أعظم عدداً من قتلانا أثناء هذا الحصار الذى ظل عشرة أيام لا نجد خلالها الخبز لنشتريه ، ودامت تلك الشدة حتى جاءتنا نجدة من سفننا ، ووقعنا فريسة الظمأ المحرق ، واحتملنا أشد المخاوف حتى لقد كنا نمشى ستة أميال لإرواء جيادنا وحيواناتنا الأخرى ، غير أننا وجدنا الماء عند نبع « سيلو » الواقع عند سفح جبل صهيون ، إلا أنه كان يباع بيننا بثمن جد غال .

بعد أن قدم علينا الرسول من قبل هذه السفن اجتمع سادتنا للتشاور ، وقرروا إرسال جماعة من الفرسان لحماية الرجال والمراكب الراسية فى ميناء يافا ، فلما كان الصباح انفصل مائة فارس عن جيش ريموند بيليه وأكاردى مونتمول ووليم السبرانى، ومضوا ثابتى الجنان شطر الميناء .

ثم انفصل ثلاثون من فرساننا عن البقية ، وصادفوا سبعمائة رجل من العرب والترك والشرقيين الذين فى جيش خليفة مصر ، فاشتد فرسان المسيح فى الهجوم عليهم ، غير أن تفوق العدو العددى مكنه من الإحداق برجالنا من جميع الجهات ، وقتل أكاردى مونتمول وغيره من المشاة الفقراء .

أحدق برجالنا ، وأخذوا ينتظرون الموت حين وفد رسول على ريمند بيليه يقول له « ماذا فعلت هناك بهؤلاء الفرسان ؟ هؤلاء رجالنا فى قبضة العرب والترك والشرقيين ، ولعلهم الآن قد قتلوا عن آخرهم ، ألا هب فأنقذهم » فلما استطار هذا النبأ بين رجالنا بادروا بالرحيل ، وأغذوا السير حتى أدركوهم والظبى ملتحمة ، فلما رأى الشعب الوثنى فرسان المسيح انقسم إلى كتيبتين ، فهتف رجالنا باسم المسيح وكروا على أولئك الكفرة كرة عنيفة التحم فيها كل فارس بخصمه ، ولما أدرك الأعداء ان لا قبل لهم بمقاومة بطش الفرنجة استبد بهم الذعر العظيم وولوا مدبرين غير مقبلين ، ورجالنا فى آثارهم يتعقبونهم مسافة تقرب من أربعة أميال، وقتلوا جمعا غفيرا منهم ، كما أخذوا

فريقا آخر حيا ليدلوهم على الطريق ، واستولوا على ثلاثمائة حصان . وفى أثناء هذا الحصار كابدنا وطأة الظمأ ، حتى لقد كنا نخيط جلود الثيران والجاموس لنحمل فيها الماء مسافة ستة أميال ، وكان الماء الذى احتملناه معنا فى الأوانى قد أسن ونتن ، واقتصر طعامنا اليومى على خبز الشعير مما صار مثار حزننا ومبعث أسانا ، والواقع أن الشرقيين عملوا من ناحيتهم سرا على إيذاء رجالنا بإفساد الينابيع والعيون ، كما كانوا يجمعون كل مايجدونه ويخفون أنعامهم فى الكهوف والمغارات .

٣٨ — وقف سادتنا إذ ذاك على الوسائل التى يهاجمون بها المدينة بواسطة الكباش حتى يتمكنوا من دخولها لأداء فروض العبادة عند قبر مخلصنا ، فبنوا برجين من الخشب ، وبعض آلات لابأس بها . وأقام الدوق جودفروى حصنا جهزه بالآلات ، وفعل الكونت ريموند مثل فعله ، وكانوا يجلبون الأخشاب من آفاق قاصية ، فلما رأى الشرقيون مانصبه رجالنا من تلك الآلات حصنوا المدينة تحصينا عجيبا ، وأخذوا فى الدفاع عن الأبراج أثناء الليل .

فلما تبين لسادتنا أضعف جوانب المدينة وهو الناحية الشرقية منها ، أخذوا فى ليلة السبت [٣ يوليو] فى نقل الآلات ونقل حصن من الخشب ، فلما تنفس النهار نصبوا الكباش واستعدوا للقتال ، وشغلوا أنفسهم أيام الآحاد والاثنين والثلاثاء بتجهيز الحصن . أما الناحية الجنوبية فقد أخذ الكونت سنجيل فى ترميم آلاته بها ، وفى هذه اللحظة بالذات كابدنا الظمأ المميت ، حتى لقد كان الرجل منا يعجز عن أن يجد جرعة كافية من الماء تروى غلته لقاء دينار .

وفى يومى الأربعاء والخميس [١٣ ، ١٤ يوليو] حملنا حملة عنيفة فى الهجوم على المدينة من جميع نواحيها ، ولكن قبل أن نشرع فى الهجوم أعلن الأساقفة والقساوسة بمواعظهم وخطبهم وجوب القيام بتطواف احتفالى حول

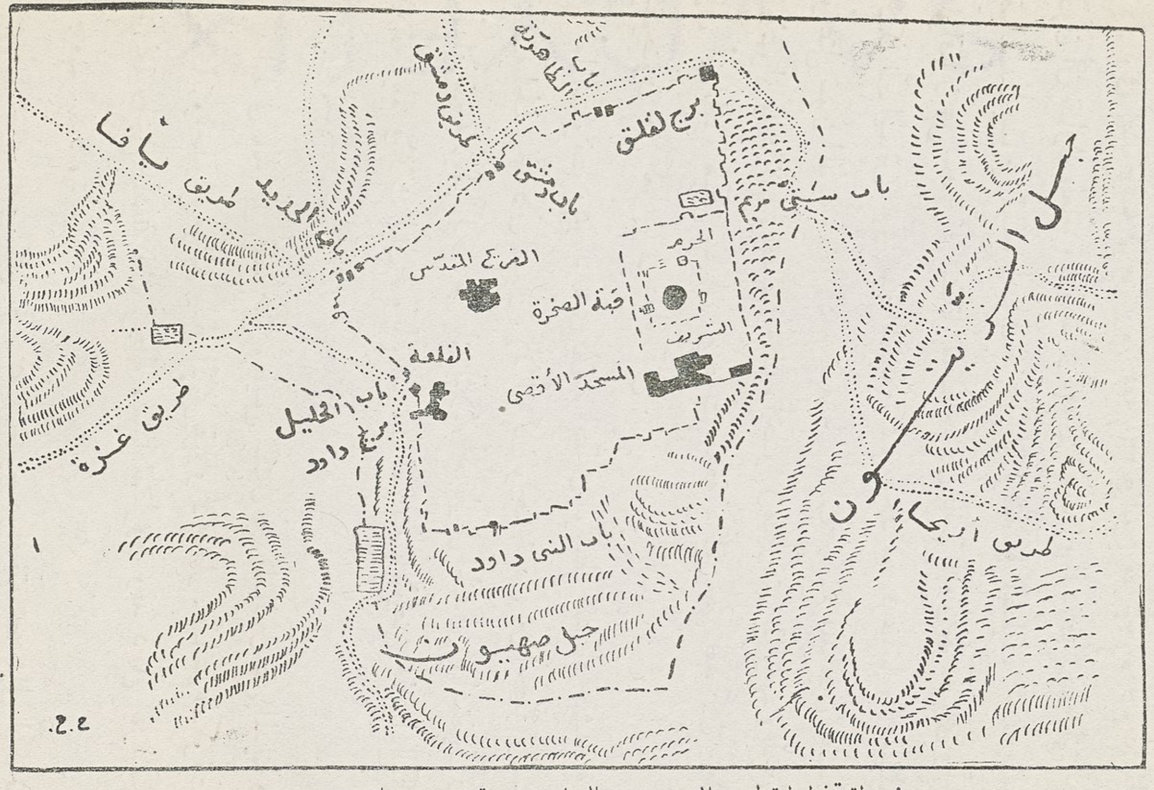
أسوار بيت المقدس تمجيداً لله ، وأن يصحب هــذا التطواف الصلوات والحسنات والصيام .

وفى الصباح الباكر من يوم الجمعة [١٦ يوليو] قمنا بهجوم عام على البلد دون أن نتناول طعاما ما ، وكنا فى ذهول شديد . ولما دنت اللحظة التى تحمل فيها سيدنا يسوع المسيح العذاب من أجلنا برفعه على الصليب أخذ فرساننا الواقفون على الحصن فى التقاتل بعنف ، وكان بينهم الدوق جودفروى وأخوه الكونت استاش ؛ وفى هذه اللحظة تقدم واحد من فرساننا واسمه « ليتو » واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار إلى داخلها ، وتعقبهم رجالنا وأخذوا فى مطاردتهم يقتلونهم ويذبحونهم إلى أن بلغوا هيكل سليمان ، وجرت مذبحة هائلة ، حتى لقد كان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم فى دماء القتلى .

أما الكونت ريموند الذى كان مرابطا فى الوسط فقد قاد جيشه ، ودفع حصنه الخشبى حتى دانى السور ، إلا أنه كان يوجد خندق بين الحصن والسور ، وأعلن منحه ديناراً لكل من يلقى بثلاثة أحجار فى الخندق ، واستغرق ردمه ثلاثة أيام وثلاث ليال سويا ، فلما تمت تسويته بالأرض جذبوا الكبش ودفعوه إلى السور ينطحه .

أما فى الداخل فقد حمى وطيس القتال بين المدافعين عن المدينة وبين رجالنا ، وأخذوا يرمونهم بالنار الإغريقية والأحجار ، فلما علم الكونت بأن الفرنجة داخل المدينة قال لرجاله « ماذا تنتظرون وقد دخل الفرنسيون بأجمعهم البلد ؟ » .

أما القائد الذى كان يقوم بحراسة برج دواد فقد مضى إلى الكونت ، وفتح له الباب الذى اعتاد الحجاج أن يؤدوا الجزية عنده ، فلما ولج حجاجنا المدينة جدوا فى قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أفظع القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى لقد



خريطة تخطيطية لبيت المقدس زمن الصليبيين سنة ١٠٩٩ نقلا عن جروسه

فاض المعبد كله بدمائهم ؛ ولما تم لرجالنا إغراق الكفرة عثروا فى المعبد على جماعة كبيرة من الرجال والنساء فقتلوا البعض وأبقوا على الآخرين الذين أحسنوا بهم الظن ، وكان قد هرب إلى فوق معبد سليمان فريق كثيف من الكفرة من الجنسين ، متوسلين لرفع راية تنكريد وجاستون بيرون فأعطوهم إياها ، وأما الصليبيون فقد انطلقوا فى جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال ، كما أخذوا فى نهب البيوت الممتلئة بالثروات.

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه ، وفى صباح اليوم التالى تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالا ونساء ، واستلوا سيوفهم وقتلوهم ، فرمى بعضهم بنفسه من أعلى المعبد ، فتلظى تنكريد غيظا حين رأى هذا المنظر.

٣٩ — وحينذاك اجتمع رجالنا وانعقد إجماعهم على قيام كل منهم بالصلوات وتوزيع الصدقات كى يختار الله من بينهم واحداً يكون له الحكم على الباقين وعلى المدينة ، وصدر الأمر أيضا بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلد لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ، ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم. فقام الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس وطرحهم أمام الأبواب ، وتعالت أكداسهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا ، وما تأتى لأحد قط أن يسمع أو يرى مذبحة كهذه المذبحة التى ألمت بالشعب الوثنى ، وجمعت أكوام من الحطب كأنها الأعلام ، ولا يعلم أحد أبداً غير الله عددها ، أما الكونت ريموند فقد ساق الأمير [جناح الدولة] ورفاقه حتى عسقلان ، وأبلغهم مأمنهم سالمين . وفى اليوم الثامن من استيلائنا على المدينة [أعنى يوم ٢٢ يوليو ١٠٩٩] وقع الاختيار على الدوق جودفروى فانتخب أميراً للبلد قصد محاربة الكفرة والدفاع عن النصارى ، وفى يوم عيد « القديس بطرس فى الأصفاد » انتخب القوم أرنول بطركا للمدينة ، وكان رجلا عاقلا

شريفا ، ولقد تم لنصارى الرب الاستيلاء على هذه المدينة يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو .

وفى هذه الأثناء وفد على تنكريد والكونت استاش [أخى جودفروى] رسول يدعوهما للتأهب والقدوم لاستلام مدينة نابلس ، فرحلا على رأس فئة كثيرة من الفرسان والمشاة ، وبلغوا البلدة التى سرعان ما استسلم لهم سكانها.

بعدئذ طلب إليهم الدوق [جودفروى دى بويون] أن يغذوا السير لصد الهجوم الذى يشنه [الأفضل] وزير مصر على عسقلان ، فأسرعوا باقتحام الجبل مفتشين عن الشرقيين بغية مقاتلتهم ، وبلغوا شيزر ، ثم ساحلوا سيف البحر حتى وصلوا الرملة ، فعثروا بها على جمهور غفير من العرب قادم لنفض المكان ، فانطلقوا فى آثارهم وألقوا القبض على الكثيرين منهم ، وحملوهم على الإفضاء إليهم بتصريحات تتعلق بموقفهم وعددهم وبالناحية التى يعتزمون أن يقاتلوا النصارى منها ، فلما أحاط تنكريد بذلك علما هب لساعته ، وأنفذ رسولا إلى الدوق جودفروى وإلى البطريرك [أرنول] وإلى جميع الأمراء (ببيت المقدس) يقول لهم « ليكن معلوما لديكم أن القوم يعدون العدة فى عسقلان لمهاجمتنا ، فبادروا بالمجىء بجميع القوات التى تستطيعون جمعها . »

وإذ ذاك أمر الدوق بدعوة جميع الرجال ، كما أمر بسرعة تجهيزهم وتوجيههم آمنين إلى عسقلان لصد أعدائنا وقتالهم ، وخرج هو ذاته مع البطرك وروبرت كونت فلاندر من المدينة يوم الثلاثاء ، وصحبهم الأسقف « مارتيرانو » ؛ غير أن كونت صنجيل وروبرت النرمندى جاهرا بأنهما لن يأخذا فى المسير إلا إذا تأكد لهما خبر الهجوم ، ولذلك أمرا فرسانهما بالتقدم قبل الرحيل ليروا إن كان حقا ما قيل من استعداد [المصريين] للهجوم ، ثم العودة على جناح السرعة لأنهم كانوا على وشك المسير ، فمضى هؤلاء واتضح لهم صدق خبر زحف العدو ، وبادروا إلى العودة يقصون على القوم ما شاهدوه بأعينهم.

وما لبث الدوق — وقد اختار الأسقف « مارتيرانو » — أن بعثه إلى بيت المقدس حتى يتجهز الفرسان الذين كانوا بها ويمضوا فى الزحف للقتال .

فلما كان يوم الأربعاء ، تحرك هؤلاء الأمراء وساروا للمعركة ، وعاد الأسقف « مارتيرانو » حاملا الرسائل إلى البطرك وإلى الدوق ، فهب الشرقيون لمقابلته ، وألقوا القبض عليه ، ورجعوا به .

أما بطرس الناسك فقد بقى فى بيت المقدس لاتخاذ ما تتطلبه الحال من التدابير والاستعدادات اللازمة ، ولدفع الإغريق واللاتين والكهنة إلى تمجيد الرب وإقامة الصلوات وتوزيع الصدقات حتى يؤتى الله شعبه ماوعده به من النصر ، ولما فرغ الكهنة والقسس من ارتداء ملابسهم الكهنوتية قاموا بالوعظ فى هيكل السيد ، وترتيل القداس والصلوات عسى أن يدافع الرب عن شعبه .

وأخيرا اجتمع البطرك والأساقفة والسادة الآخرون عند شاطىء نهر فى ناحية من نواحى عسقلان ، وتمكنوا باجتماعهم فى هذه الضاحية من الاستيلاء على عدد كبير من الضأن والثيران والجمال والنعاج وشتى ضروب الغنائم ، وكان العرب يناهزون ثلاثمائة رجل ، فوثب عليهم رجالنا وأسروا منهم اثنين ، وطاردوا البقية حتى بلغوا جيشهم ، فلما جاء المساء نادى البطرك فى جميع رجال الجيش بالتأهب فى الصباح الباكر للمعركة ، وأصدر قرار الحرمان ضد كل رجل يفكر فى الاستيلاء على شىء من الغنيمة قبل انتهاء الوقعة ، فإذا تم لهم النصر استطاعوا العودة فرحين للاستيلاء على كل ماهيأه لهم الرب .

وفى الصباح الباكر دخلوا واديا خصيباً قريباً من ساحل البحر وضربوا فيه معسكراتهم ، ثم عمد الدوق إلى قواته فرتبها للقتال ، وفعل مثله كل من كونت نرمنديا وكونت صنجيل ، ثم تانكريد وجاستون برجالهما ؛ كما أرسلوا جماعة من المشاة ورماة النشاب أمام الفرسان ، ولما أتموا ذلك كله شرعوا فى القتال مستفتحيه باسم السيد يسوع المسيح .

كان على الجناح الأيسر الدوق جودفروى بقواته ، أما الكونت صنجيل فكان على الجناح الأيمن وقد أخذ يذرع الأرجاء المجاورة للبحر ، ووقف فى الوسط كل من كونت فلاندر وكونت زماندى وبقية الآخرين . وأخذ رجالنا فى التقدم باستمرار .

أما الوثنيون فكانوا هم الآخرون متأهبين للقتال ، وقد علق كل منهم وعاء شربه إلى عنقه ، كى يسهل عليهم تناول الماء ورشفه وهم مجدون فى آثارنا ، غير أن مشيئة الرب لم تدع لهم من الوقت فترة يحققون فيها ما يبتغون . فقد رأى كونت نورمانديا علم القائد محلى بكرة ذهبية ومرفوعا على طرف رمح فضى ، وإذ ذاك تقدم غير هياب ، ووثب على حامله وضربه ضربة أردته قتيلا يتخبط فى دمه ، كما قام تانكريد بغارة على معسكر العدو الوثنى الذى ما كاد يراه حتى انطلق هاربا ، وكان الجند كثيرين لا يحصيهم العد ولا يعرف عددهم سوى الرب ، وحمى وطيس القتال ، غير أن قوة إلهية عاونتنا وكانت من الضخامة والبأس بالدرجة التى جعلت النصر يواتينا فى أقصر وقت .

غشى الله أبصار أعدائه وأذهلهم ، ورغم شدة إبصارهم وعيونهم المحدقة إلا أنهم كانوا يحدقون فى فرسان المسيح وكأنهم لا يرون شيئا ما أمامهم ، ولم يعودوا يجرءون على رفع أبصارهم إلى النصارى ، لأن القوة الربانية روعتهم ، وحملهم جزعهم على تسلق الأشجار للاختفاء وراءها ، لكن رجالنا طرحوهم أرضا وقتلوهم رميا بالسهام والحراب والسيوف ، واختفى البعض الآخر من الأعداء بالارتماء على الأرض دون أن يجرءوا على الوقوف أمامنا ، بيد أن رجالنا ذبحوهم ذبح الأغنام فى السوق ، كما أن كونت صنجيل قتل جمعا غفيراً منهم على كثب من البحر الذى ارتمى فيه بعضهم ، وانطلق آخرون على وجوههم هائمين هنا وهناك .

أما القائد [الأفضل] الذى وصل أمام المدينة حزيناً يائساً فقد أخذ يبكى

ويقول « يا أرواح الأرباب ، إن العين لم تبصر مثل ما جرى ، ولا سمعت الأذن بمثل ماحدث ! أيتها الأرواح : يا من لا تعادلك قوة ، ولا يماثلك بأس ، ولا تضاهيك فروسية قط ، يا من لم تهزمى أبداً أمام أية أمة ولكنك غلبت على أمرك على يد هذا الشعب المسيحى الصغير ، ما أبلغ الحزن وما أشد الأسى ! ماذا أقول وماذا أعيد ؟ أترانى أهزم على أيدى شعب منبوذ جبان ، وجماعة من الصعاليك لا يملكون من الدنيا سوى المزود والعصاة ! هؤلاء هم الذين تتبعوا الشعب المصرى الذى طالما وزع عليهم الصدقات حين كانوا يجوبون بلادنا ملتمسين الإحسان . لقد قدت مائتى ألف فارس ، ولكننى رأيتهم يثنون أعنة جيادهم ويوجهونها شطر مصر هرباً ، وانطلقوا لا يلوون على الوقوف أمام أمة الفرنجة ، وإنى لأقسم بمحمد وبقوة جميع أربابنا (١) أنى لن أقود أية جماعة من الفرسان بعد الآن ما دمت قد طردت على يد مثل هذا الشعب الأجنبى . لقد أحضرت جميع أنواع السلاح والآلات لمحاصرة الفرنجة فى بيت المقدس ، لكنهم هم الذين هاجمونى وتعقبونى مدة يومين . وا أســفاه ! ماذا أقول أكثر من ذلك ؟ لقد ضاعت هيبتى إلى الأبد فى مصر ! » .

استولى رجالنا على راية [الأفضل] ، فاشتراها كونت نرمنديا بعشرين دينار فضى ، ثم وهبها للبطرك تمجيداً للرب وللضريح المقدس ؛ وتقدم غيره فاشترى سيف [الأفضل] بستين بيزنطية .

وهكذا تمت هزيمة أعدائنا جميعا كما شاءت إرادة الرب . وكانت جميع سفن البلاد الوثنية موجودة هناك [فى عسقلان] ؛ فلما أبصر من بها انطلاق [الأفضل] هاربا بجيشه بادروا إلى ركوب سفنهم وتسييرها بأقصى سرعة .

---

(١) هذا مثال من جهل كاتب الحوليات ، وهو شبيه بما أورده على لسان أم كربوغا مع أن جوهر الاسلام هو التوحيد .

ولما عادت بقية رجالنا إلى معسكر العدو جمعوا غنيمة هائلة من الذهب والفضة ، واستولوا على أكداس من الأموال ، وعلى كثير من شتى أنواع الحيوان والأسلحة ، فحملوا معهم كل ما أحبوا الاستحواذ عليه ، وأضرموا النار فيما تبقى .

وعاد رجالنا إلى بيت المقدس حاملين معهم كل ما هم فى حاجة إليه .

وقد جرت هذه الوقعة يوم الجمعة [١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩م] حسب مشيئة سيدنا يسوع المسيح ، الذى له المجد والشرف إلى الأبد وعلى مر القرون . آمين .

ملحق (١)

وصف مدينة أنطاكية

مدينة أنطاكية رائعة عظيمة ، إذ يوجد داخل أسوارها أربعة جبال ضخمة شامخة الذرى ، ويقوم على أعظمها ارتفاعا حصن حصين قوى جيد البناء ، وعلى السفح تمتد المدينة الرائعة المحبوبة ، قد ازدانت بكل ضروب الفتنة ، لما تحويه من الكنائس العدة التى تكاد تبلغ ثلاثمائة كنيسة ، كما تضم ستين ديرا ، ويشرف بطركها على مائة وثلاثة وخمسين أسقفا .

والمدينة محاطة بسورين : أكبرهما شديد الارتفاع ، عجيب البناء ، مشيد تشيداً عجيباً ، ففيه أربعمائة وخمسون برجا ، وأينما ولى المرء وجهه شدهه جمال المدينة .

وتحيط بها من الشرق أربعة جبال عظيمة ، ويجرى فيها من الناحية الغربية نهر يسمى بنهر فرفر [وهو العاصى] ، حيث ينطلق على مقربة من أسوارها .

---

(١) راجع ص ١٦٤

وهذه المدينة بالغة الشهرة ، فقد تولاها فى مبدأ الأمر خمسة وسعون ملكا، أولهم « أنتيوكس » الذى سميت المدينة باسمه . وقد أقام الفرنجة على حصارها مدة ثمانية أشهر ويوم واحد ، ثم حاصرهم الترك وغيرهم من الوثنيين مدة ثلاثة أسابيع ، إلا أن الغلبة كانت للمسيحيين بفضل معونة الرب والضريح المقدس ، وأقمنا مطمئنين راغدين مدة خمسة أشهر وثمانية أيام .

للمؤلف

١ — الحرب الصليبية الأولى

دراسة تاريخية تليها الترجمة العربية للحوليات الفرنجية اللاتينية .

(طبع دار الفكر العربى)

تحت الطبع

تأليفا :

٢ — السلطان نور الدين والصليبيون .

بحث قدم لكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، ونال به مؤلفه درجة الماجستير بمرتبة الشرف .

٣ — العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين فى القرن الثانى عشر الميلادى .

٤ — **A Transition Period in Byzantine Antioch.**

ترجمة :

٥ — تاريخ العرب الأدبى ، للدكتور رينولد نيكلسون ، أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة كمبردج سابقاً (بإذن من المؤلف) .

٦ — تاريخ الأندلس ، للمستشرق الهولندى رينهرت دوزى ، ويقع فى أربعة مجلدات .

ÉTUDE HISTORIQUE

de la

PREMIÈRE CROISADE

Suivie par la traduction Arabe des

GESTA FRANCORUM

PAR

Hasan Habashy

à la Faculté Superièure Normale de Baghdad.

M. A. (Honrs.) ; Dip.ès Ed. et Psych.

1ére ÉD.

DAR-eL-FIKR el-ARABY

Le Caire

IMPR. AL-EETEMAD, LE CAIRE.